



قَالَتِ الْمَنَابِرُ

مَجْمُوعَةٌ مِنْ خُطَبِ الْجُمُعَةِ الْفَيْتِ فِي جَامِعِ الْأَمِيرِ الرَّاحِلِ صَاحِبِ السَّمَوِّ
السَّيِّدِ عَيْسَى بْنِ سَلْمَانَ آلِ خَلِيفَةَ
رَحِمَهُ اللَّهُ

الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى

أَلْقَاهَا الرَّاجِي عَفْوَرَبِّهِ
رَاسِدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ وَطَيْسٍ (لَهَا جَرِيٌّ
خَطِيبِ جَامِعِ عَيْسَى بْنِ سَلْمَانَ آلِ خَلِيفَةَ
الرِّفَاعِ الْغُرَبِيِّ - مَمْلَكَةُ الْبَحْرَيْنِ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً
للعالمين، صلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فقد بدأتُ الخطابةَ - بصفةٍ رسميةٍ - قبلَ عشرينَ سنةً تقريباً، وذلك
حينَ التحقتُ بشعبةِ الإرشادِ والثقافةِ بالحرسِ الوطنيِّ، وكانَ منْ جملةِ
مهامِّي الوظيفيةِ إلقاءَ خطبةِ الجمعةِ في جامعِ معسكرِ الحرسِ الوطنيِّ،
إلى أنْ تشرَّفتُ بصدورِ التَّوجيهِ السَّاميِّ الكريمِ لصاحبِ الجلالةِ الملكِ
حمد بن عيسى آل خليفة ملكِ مملكةِ البحرين - حفظه اللهُ ورعاهُ -
بتعييني خطيباً رسمياً لجامعِ المغفورِ له - بإذنِ اللهِ تعالى - صاحبِ
السموِّ الأميرِ الراحلِ الشيخِ عيسى بن سلمان آل خليفة طيبَ اللهُ ثراهُ،
وذلكَ في عامِ ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠ م.

وفي خلالِ هذهِ الفترةِ التي قضيتها خطيباً أدركتُ تماماً أهميَّةَ
خطبةِ الجمعةِ وخطورةِ التَّهاونِ فيها، فلقد كنتُ أقابلُ في كلِّ جمعةٍ
عقولاً راجحةً جديرةً بالاحترامِ والاهتمامِ، فكنتُ أهتمُّ كثيراً بموضوعِ
الخطبةِ، ولا أبالغُ إذا قلتُ: إنِّي أفكَّرُ في موضوعِ الخطبةِ التاليةِ منذُ بدايةِ
الأسبوعِ، ولقد زادني تعظيماً لشأنِ الخطبةِ أنَّ هذا المقامَ هو مقامُ النبيينِ
والمرسلين، وهو توقيعٌ عن ربِّ العالمين، ووسيلةٌ عظيمةٌ لنشرِ الحقِّ
وإذاعةِ الدِّينِ .

هذا المقام مقام الرُّسُلِ قاطبةً وفوقه حاربوا كيَدَ الشَّيَاطِينِ
وموطنُ النَّصْحِ والإرشادِ مِنْ زَمَنِ ومنبرُ الحَقِّ والتَّعْلِيمِ لِلدِّينِ

والحقُّ أَنِّي استفدْتُ كثيرًا مِنْ خُطَبِ العُلَمَاءِ ودروسِهِمْ وكتبِ
الدُّعَاةِ ومقالاتِهِمْ، فكنْتُ أَلْخُصُّ بعضَ الكتبِ والمقالاتِ والخُطَبِ
وأعيدُ صياغَتَها؛ ليتناسبَ المقالُ معَ المقامِ، ولا أدَّعي أَنِّي جئتُ في
هذه الخُطَبِ بالجديدِ أبدًا، وإنَّما هي نُقولُ جمعتُها وألَّفتُ بينها وقدمتُها
عليَّ هيئَةً خطبةً.

ولمَّا كنتُ أَلقي هذه الخُطَبَ ارتجالًا مِنْ ذاكِرتي دونَ كتابتِها أشارَ
عليَّ بعضُ الإخوةِ بتسجيلِها، ثمَّ تفرَّغْتُ في كتابٍ ليستفادَ منها.

زكاةُ العِلْمِ بذلٌّ ثمَّ نشرٌ وما كالعِلْمِ في أخراكَ ذُخْرٌ
تفيدُ بهِ الخلائقَ كُلَّ حينٍ ويبقى مِنْهُ بعدَ الموتِ أجرٌ

ولقد كنتُ مترددًا كثيرًا في تلبيةِ طلبِهِمْ إليَّ أنْ شرحَ اللهُ صَدْرِي
لذلكَ، فقمْتُ بتفريغِ المجموعةِ الأولى مِنْ هذه الخُطَبِ - وعدُّها
تسعَ وأربعونَ خطبةً - في هذا المَوْلفِ، وتركتُ البقيةَ للمجموعاتِ
القادمةِ بإذنِ اللهِ تعالى.

ولا يَسْغُنِي في هذا المقامِ وبعدَ شكْري اللهُ عليَّ ما مِنْ بهِ عليَّ مِنْ
فُضْلِ إخراجِ هذه المجموعةِ مِنَ الخُطَبِ إلا أنْ أشكُرَ جميعَ مَنْ ساعدني

وساهم في إخراج هذه الخطب سائلاً الله لي ولهم الأجر والثواب السداد
والصواب.

تولاني الأجابة والصحابُ أعانوني فصاحبني الصوابُ

وخيرُ الصحبِ من يؤتيك نصحاً يفيدك حين يغشاك الترابُ

وفي الختام أرجو ممن سيقراً هذه الخطب أن يعذرني إن وجدَ خطأً
وخللاً؛ فقد ألقيتُ هذه الخطبَ _ كما تقدّم _ حفظاً من ذاكرتي .

وإن تجدَ عيباً فسُدّ الخلالا جَلَّ مَنْ لا عيبَ فيه وعَلا

وعليه فأرجو ممن رأى شيئاً أن يبذل النصيحة ويوافيني بما وجدَ؛
لأتدارك ذلك في الطبعات القادمة إن شاء الله .

والحمدُ لله ربّ العالمين .

وكتبه :

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي _ مملكة البحرين

جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ

فبراير ٢٠١٧ م

١
اعْمَلْ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ



عبدالله ...

اعْمَلْ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ، مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسِيرَ حُلٍّ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، فَلَا بُدَّ
 أَنْ يُقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَحِيلِهِ عَمَلًا يَشْرَفُ بِهِ وَيَفْخَرُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا بُدَّ أَنْ يَتْرَكَ
 لَهُ عَمَلًا مُؤَثِّرًا يَبْقَى أَجْرُهُ يَصِلُ إِلَيْهِ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ رَحِيلِهِ، الْحَقُّ سُبْحَانَ اللَّهِ يَقُولُ:
 ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]
 وَفِي سُورَةِ الزُّمَرِ يَقُولُ الْمَوْلَى سُبْحَانَ اللَّهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا
 هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ* وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ
 بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* وَوُفِّيَتْ كُلُّ
 نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٠].

وَبَيْنَنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ يَقُولُ:
 «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ
 تَرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ،
 فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [مَنْ نُوقِشَ الْحَسَابَ عُدْبَ] (١١٢/٨) برقم: [٦٥٣٩]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْحَتُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ] (٧٠٣/٢) برقم: [١٠١٦]، واللفظ للبخاري.

عباد الله ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، فَلْنَعْمَلْ قَبْلَ أَنْ نَرَحَلَ لِنَعْمَلَ لِأَنفُسِنَا عَمَلًا ثَابِتًا يَصِلُ أَجْرُهُ إِلَيْنَا فِي قُبُورِنَا؛ وَلْنُرَكِّزْ عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي نَفْعُهَا مُتَعَدِّ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ، مِنْهَا مَا هُوَ نَفْعُهُ قَاصِرٌ عَلَى الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ نَفْعُهُ مُتَعَدِّ إِلَى غَيْرِهِ، وَقَدْ اِمْتَدَحَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ الْأَعْمَالَ الْمُتَعَدِّي نَفْعُهَا إِلَى الْغَيْرِ.

فَنَبِيَّنَا ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عِنْدَ أَبِي دَاوُدٍ يَقُولُ: «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ» (١)، وَالْعَالِمُ فَضْلُهُ مُتَعَدِّ وَنَفْعُهُ مُتَعَدِّ غَيْرِ الْعَابِدِ، وَيَقُولُ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ، وَلَا يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» (٢)، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ ﷺ لَمَّا سُئِلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ؟ قَالَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ اللَّهُ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» (٣).

فَانظُرْ أَيُّهَا الْأَخَ الْمُبَارِكُ إِلَيَّ يُوْسُفَ ﷺ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [الْحَثُّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ] (٣١٧/٣) برقم: [٣٦٤١]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [فَضْلُ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثُّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ] (٨١/١) برقم: [٢٢٣]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفِقْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ] (٤٨/٥) برقم: [٢٦٨٢]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٤/١) برقم: [٢١٢].

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٥٧/٦) برقم: [٥٧٨٧]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٧٨٧/١) برقم: [٤٢٦].

(٣) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٣٩/٦) برقم: [٦٠٣٦]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٥٧٤/٣) برقم: [٩٠٥].

خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿يوسف: ٥٥﴾، وَانظُرْ إِلَىٰ مُوسَىٰ لَمَّا
 وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ قَالَ اللَّهُ فِي شَأْنِهِ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ
 وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا
 خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا
 ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:
 ٢٣-٢٤]، وَنَبِيْنَا مُحَمَّدٌ ﷺ لَمَّا فَرَعَ مِنْ نُزُولِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَيْهِ جَاءَ
 فِرْعَا إِلَىٰ خَدِيجَةَ رضي الله عنها قَالَتْ خَدِيجَةُ: «أَبَشِّرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا،
 فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ
 الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ» (١).

عبد الله ... لَا بُدَّ أَنْ تَتْرَكَ لَكَ أَثْرًا قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ، لَا بُدَّ أَنْ تَتْرَكَ لَكَ
 أَثْرًا فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَ أَيُّ أَثْرٍ، أَثْرًا مُؤَثِّرًا قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا أَجْمَلَ
 مَا قَالَه أَحْمَدُ شَوْقِي فِي هَذَا الْبَابِ:

وَخُذْ لَكَ زَادَيْنِ مِنْ سِيرَةٍ
 وَكُنْ فِي الطَّرِيقِ عَفِيفَ الْخَطَا
 وَلَا تَخُلْ مِنْ عَمَلٍ فَوْقَهُ
 وَكُنْ رَجُلًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَهُ
 وَمِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مُدَّخِرٍ
 شَرِيفَ السَّمَاعِ كَرِيمَ النَّظَرِ
 تَعِشْ غَيْرَ عَبْدٍ وَلَا مُحْتَقَرٍ
 يَقُولُونَ: مَرَّ وَهَذَا الْأَثْرُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ} [الضحى: ٣] [(١٧٣/٦) برقم: ٤٩٥٣]،
 وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بَدَأَ الْوَحْيُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] [(١٣٩/١) برقم: ١٦٠].

اعمل قبل أن ترحل

﴿١٤﴾

مَرَّ فُلَانٌ، عَاشَ فُلَانٌ وَهَذَا أَثْرُهُ، هَذَا الَّذِي تُرِيدُ أَنْ نَخْرُجَ بِهِ مِنْ هَذِهِ
الْخُطْبَةِ، فَمَا هِيَ الْمَشَارِيعُ وَالْأَعْمَالُ الَّتِي نَفْعُهَا مُتَعَدِّي يُمَكِّنُ أَنْ نَسُوقَهُ
فِي هَذَا الْوَقْتِ الْقَصِيرِ؟

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، إِنَّهَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ،
وَيَصِلُ أَجْرُهَا إِلَى الْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ، يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ
قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:
٣٣]، وَنَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ لَنَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ لِمَنْ دَعَا إِلَى الْخَيْرِ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى
الْحُوتَ لَيَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»^(١)، صَلَاةُ اللَّهِ ثَنَاؤُهُ عَلَى الْعَبْدِ،
وَصَلَاةُ مَخْلُوقَاتِهِ دُعَاءٌ وَاسْتِغْفَارٌ لِلْعَبْدِ.

عباد الله... قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: الدَّعْوَةُ مَحْصُورَةٌ فِي الْعُلَمَاءِ وَفِي طُلَّابِ
الْعِلْمِ، أَقُولُ: هَذَا مَفْهُومٌ خَاطِئٌ، الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ مُتَاحَةٌ لَكَ، فَبِمَا مَكَانِكَ أَنْ
تَدْعُوَ إِلَى اللَّهِ بِحَسَبِ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةٍ.

سَافَرْتُ يَوْمًا إِلَى إِحْدَى دُولِ شَرْقِ آسِيَا فِي سَفْرَةٍ دَعْوِيَّةٍ، فَالْتَقَيْتُ
بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ لَيْسَ بِعَالِمٍ وَلَا بِطَالِبِ عِلْمٍ وَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ أَثْرُ
التَّدْيِينِ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَدَيِّنًا صَالِحًا، فَقُلْتُ لَهُ: مَاذَا تَفْعَلُ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ؟

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفِقْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ] (٥٠/٥) برقم: [٢٦٨٥]، وأخرجه الطبراني في
"المعجم الكبير" (٢٣٣/٨) برقم: [٧٩١١]، وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٧٤/١) برقم: [٢١٣].

قَالَ: فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَدَّخِرُ مَبْلَغًا مِنْ رَاتِبِي وَأَتِي إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي يَقْصِدُهَا الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ لِيَفْعَلُوا فِيهَا الْفَاحِشَةَ، آتِي هُنَا أَوْ جُرِّ قَنَاءً إِذَاعِيَّةً لِمُدَّةِ سَاعَاتٍ مَعْلُومَةٍ وَأَتَّفِقُ مَعَ أَحَدِ عُلَمَاءِ الْمِنْطَقَةِ يَبِثُّ مَوَاعِظَ دِينِيَّةً فِي هَذِهِ الْإِذَاعَةِ، قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا مِمَّنْ سَيُؤَثِّرُ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ، وَمِمَّنْ سَيَتْرُكُ أَثْرًا قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ.

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا الْعَمَلُ الَّذِي تُقَدِّمُهُ مَا قَدَّمَهُ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَزْعُمُ الْإِنْتِسَابَ إِلَى الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ، قَالَ: سَأَخْبِرُكَ شَيْئًا آخَرَ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: ذَهَبْتُ إِلَى أَعْرَقِ الْجَامِعَاتِ هُنَا فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ وَالتَّقَيْتُ بِمُدِيرِ الْجَامِعَةِ وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ فَاقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ قَائِلًا: مَا رَأَيْتُكَ لَوْ زَوَّدْتُكَ بِمَكْتَبَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ تَضَعُهَا فِي إِحْدَى زَوَايَا الْجَامِعَةِ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا طُلَّابُكَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَامِعَةِ مُسْلِمُونَ؛ فَأَذِنَ لِي بِذَلِكَ فَتَأَثَّرَ مِنْ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ أَنْاسٌ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى يَدِ هَذَا الرَّجُلِ وَلَمْ يَكُنْ عَالِمًا وَلَا دَاعِيَةً.

وَذَهَبْتُ إِلَى إِحْدَى دُوَلِ الْبَلْقَانِ وَالتَّقَيْتُ بِأَحَدِهِمْ فَإِذَا بِهِ يُدْخِلُنِي سِرْدَابًا فِي أَسْفَلِ إِحْدَى الْبِنَايَاتِ فَإِذَا بِهِ مَكْتَبَةٌ صَوْتِيَّةٌ وَإِذَاعَةٌ مُتَوَاضِعَةٌ تَبِثُّ الْخَيْرَ عَلَى دُوَلِ الْبَلْقَانِ كُلِّهَا، قُلْتُ: كَمْ يَصِلُ مَدَى هَذِهِ الْإِذَاعَةِ؟ قَالَ: حَالِيًّا أَرْبَعَةٌ مَلَائِينَ نَسَمَةٍ، وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ سَنُعْطِي أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَالْمُتَبَرِّعُ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ كَلَّفَتْهُ هَذِهِ الْمَكْتَبَةُ أَكْثَرَ بِقَلِيلٍ مِنْ خَمْسَةِ

آلاف دينار.

هُؤْلَاءِ عَرَفُوا كَيْفَ يُؤَثِّرُونَ وَيَتْرُكُونَ أَثْرًا قَبْلَ أَنْ يَرْحَلُوا، فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِأَبِّ كَبِيرٍ مَفْتُوحٍ بَيْنَ يَدَيْكَ، مُصْحَفٌ تَشْتَرِيهِ ثُمَّ تُرْسِلُ بِهِ إِلَى إِحْدَى الدُّوَلِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى الْمَصَاحِفِ تُؤَثِّرُ، شَرِيطٌ تَشْتَرِي مِنْهُ نُسْخًا بِالْآلَافِ تُوَزَّعُهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الصُّوَرِ، لَكِنْ كُنْ مِمَّنْ يَتْرُكُ أَثْرًا فِي بَابِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.

بَابٌ ثَانٍ: بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ وَحَفْرُ الْآبَارِ، نَبِيْنَا ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ يَقُولُ: «مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرِيٌّ مِنْ جِنٍّ وَلَا إِنْسٍ وَلَا طَائِرٍ إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) وَقَالَ ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ، أَوْ أَصْغَرَ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(٢)، قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: مَا نَسْتَطِيعُ بِنَى مَسْجِدًا، أَقُولُ: بَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْنِيَ مَسْجِدًا، نَبِيْنَا ﷺ يَقُولُ: «كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ»، يَعْنِي بِحَجْمِ مَا يَضَعُ هَذَا الطَّائِرُ بَيْضَةً فِي الْمَكَانِ كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ لِبَيْضِهَا، يَعْنِي بِأَدْنَى الْقَلِيلِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَبْرَعَ فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ.

وَقَدْ زُرْتُ إِحْدَى الدُّوَلِ فَوَجَدْتُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ مَشْرُوعٍ بِنَاءُ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، فَلَمَّا اسْتَقْرَأْتُ بَعْضَ الْأَسْمَاءِ إِذْ كَانَتْ أَسْمَاءُ مَنْ بَنَى هَذِهِ

(١) وأخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" باب: [في فضل المسجد وإن صغر المسجد وضاق] (٢٦٩/٢) برقم: [١٢٩٢]، وصححه محمد مصطفى الأعظمي في تحقيقه على صحيح ابن خزيمة، وقال: "إسناده صحيح".

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٤/٤) برقم: [٢١٥٦]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا] (٢٤٤/١) برقم: [٧٣٨]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢٤٠/٢) برقم: [١٨٥٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٥٧٢) برقم: [٦١٢٧].

المَشَارِيعَ مَكْتُوبَةً عَلَى الْبِنَاءِ؛ فَوَجَدْتَهَا لِأُنَاسٍ أَعْرَفُهُمْ مِنْ ذَوِي الدَّخْلِ
المَحْدُودِ، فَسَأَلْتُهُمْ كَيْفَ جَمَعْتُمْ هَذَا المَالَ؟ قَالُوا: نَجْمَعُهُ مِنَ الأُسْرَةِ
كَامِلَةً، مِنْ هَذَا عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ، وَمِنْ هَذَا مِئَةَ دِينَارٍ وَبَنِي لِأَنْفُسِنَا مَا نَنْتَفِعُ
به بعد رحيلنا من الدنيا. لِأَنَّ مِنَ المَفَاهِيمِ الخَاطِئَةِ اليَوْمَ المُتَشِيرَةَ بَيْنَ
النَّاسِ: أَنَّ الابْنَ يَبْنِي لِوَالِدِهِ، ثُمَّ يَأْتِي الابْنُ وَيَبْنِي لِوَالِدِهِ، تُرِيدُكَ أَنْ تَبْنِي
لِوَالِدِكَ وَلِنَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ، فَقَدْ لَا تَجِدُ مَنْ يَبْنِي لَكَ بَعْدَ أَنْ تَرْحَلَ،
ابْنَ لِنَفْسِكَ وَشَارِكٌ.

وَمِنَ المَشَارِيعِ: إِيجَادُ مُؤَسَّسَةٍ لِلإِصْلَاحِ الأُسْرِيِّ، مَشْرُوعٌ
تَحْتَاجُهُ الأُمَّمُ، يَحْتَاجُهُ مُجْتَمَعُنَا، تَحْتَاجُهُ هَذِهِ المِنَظَقَةُ مَشْرُوعٌ لِمُؤَسَّسَةٍ
لِلإِصْلَاحِ الأُسْرِيِّ، وَاللَّهُ مَنْ قَامَ بِهَذَا المَشْرُوعِ سَيَتْرُكُ أَثْرًا لَهُ وَإِنْ لَمْ
يُكْتَبْ اسْمُهُ عَلَى المَشْرُوعِ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا

عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، مَا فَضَّلَ هَذَا البِنَاءِ؟

قَالَ اللهُ ﷻ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ
مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وَنَبِيْنَا ﷺ يَقُولُ كَمَا
جَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ
الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ

الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»^(١)، أَفْضَلُ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ، فَلْتَكُنْ لَكَ يَدٌ فِي هَذِهِ الْمَوْسَسَةِ بِاقْتِرَاحِ تَقْتَرِحُهُ، بِكَلِمَةٍ تَأْيِيدِ تَقُولُهَا فِي مَجْلِسٍ، بِأَيِّ شَيْءٍ يَخْطُرُ فِي بَالِكَ ادْفَعْ بِهَذَا الْمَشْرُوعِ حَتَّى نَرَاهُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، وَتَذَكَّرُوا.

وَكُنْ رَجُلًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَهُ يَقُولُونَ: مَرَّ وَهَذَا الْأَثَرُ

وَمِنَ الْمَشَارِيعِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي مُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَكَ نَصِيبٌ فِيهَا: مَشْرُوعُ الْقَرْضِ الْحَسَنِ، هَذَا الْمَشْرُوعُ مَشْرُوعٌ غَفَلَ عَنْهُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ عُدِمَتِ الثِّقَةُ بَيْنَ النَّاسِ فَبَدَّوْا وَيَتَهَرَّبُونَ مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ إِخْوَانِكُمْ لَا يَزَالُونَ يُقِيمُونَ هَذَا الْمَشْرُوعَ فِي أُسْرِهِمْ، مَشْرُوعُ الْقَرْضِ الْحَسَنِ، أَتَدْرِي مَا فَضْلُهُ؟ أَأَخْبِرُكُمْ مَا فَضْلُ الْقَرْضِ الْحَسَنِ؟

إِنَّكَ إِذَا أُعْطِيتَ إِنْسَانًا قَرْضًا حَسَنًا، إِذَا أُعْطِيتَهُ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ يُسَدِّدَهَا لَكَ بَعْدَ شَهْرٍ؛ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةً أَلْفَ دِينَارٍ، فَإِنْ كَانَ الْمَبْلُغُ الَّذِي أَقْرَضْتَهُ أَكْثَرَ؛ كَانَ لَكَ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةً، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ وَانْقَضَى الشَّهْرُ فَقَالَ لَكَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ! أَنَا مَا عِنْدِي أَنْظِرْنِي شَهْرًا آخَرَ؛ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةً، مِنْ أَيْنَ لِي هَذَا؟

هَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنِ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٠٠/٤٥) برقم: [٢٧٥٠٨]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في إصلاح ذات البين]

(٢٨٠/٤) برقم: [٤٩١٩]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٠٦/١) برقم: [٢٥٩٠].

أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ »، قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: " مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ "، قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَقُولُ: " مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ "، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: " مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ "، قَالَ لَهُ: " بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِيهِ صَدَقَةٌ »^(١)، هَذَا مَشْرُوعٌ رَائِدٌ وَقَدْ قَامَ بِهِ بَعْضُ الإِخْوَةِ فِي أُسْرَتِي، فِي ثَوَابِ وَالِدِهِ، نَسَأَلُ اللَّهَ ﷻ أَنْ يَغْفِرَ لِوَالِدِهِ وَلِجَمِيعِ مَوْتَى المُسْلِمِينَ، مِنْ أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ إِلَى الْآنَ يَدْخُلُ هَذَا الْمَشْرُوعُ فِي قَبْرِ وَالِدِهِ إِلَيْهِ فِي الدَّخْلِ يَنْتَفِعُ بِهِ.

رُبَّمَا تَضَعُ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، وَتَقُولُ: هَذِهِ الْعَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ سَأَجْعَلُهَا لِلْقَرْضِ الْحَسَنِ، فَإِنَّهَا بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ كَمْ يَكُونُ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ وَأَنْتَ تَضَعُ هَذِهِ الْمُؤَسَّسَةَ مُؤَسَّسَةَ الْقَرْضِ الْحَسَنِ؟ رُبَّمَا تَقْتَرِحُ هَذَا الْمُقْتَرِحَ فِي مُؤَسَّسَتِكَ فِي دَارِ عَمَلِكَ، فِي وَحْدَتِكَ، فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي مَجْمُوعَةٍ مِنْ زُمَلَائِكَ تَقْتَرِحُونَ هَذَا الْقَرْضَ الْحَسَنَ فَإِنَّهُ مِمَّا يُوَثِّرُ لَكَ بَعْدَ رَحِيلِكَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١٥٣/٣٨) برقم: [٢٣٠٤٦]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٧٠/١) برقم: [٨٦].

٢

التَّحْذِيرُ مِنَ الدُّنْيَا

عباد الله ...

سُئِلَ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! صِفْ لَنَا الدُّنْيَا، فَقَالَ: دَارٌ مَنْ صَحَّ فِيهَا أَمِنَ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ، وَمَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، دَارٌ حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ، هَكَذَا شَأْنُ الدُّنْيَا.

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي
بَيْنَا يَرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا
جُبِلَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارِ
حَتَّى يَرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَقْدَارِ
مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

حَدَّرْنَا رَبَّنَا سُبْحَانَ اللَّهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَحَدَّرْنَا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ أَتْنَاوُلُ سِتَّةَ تَحذِيرَاتٍ تُظْهِرُ لَنَا حَقِيقَةَ الدُّنْيَا الَّتِي أَلْهَتْنَا وَأَبْعَدَتْنَا وَأَصَابَتْنَا بِالْغَفْلَةِ وَالْوَهْنِ، وَأَنْسَتْنَا دَارَ الْخُلُودِ، وَأَنْسَتْنَا الْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ.

التَّحذِيرُ الْأَوَّلُ: لَا تَتَوَصَّلْ بِالْآخِرَةِ إِلَى تَحْقِيقِ الدُّنْيَا، بِمَعْنَى اخْتِزِ أَنْ تَطْلُبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، لَا تَظْهَرِ بِلِبَاسِ الدِّينِ لِتَكْسِبَ الدُّنْيَا، وَلَا تَكْسِبِ الدُّنْيَا بِالْقُرْآنِ، وَلَا تَكْسِبِ الدُّنْيَا بِالْأَذَانِ، وَلَا تَكْسِبِ الدُّنْيَا بِالْخُطَابَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ، لَا تَكْسِبِ الدُّنْيَا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا تَكْسِبِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، وَهَذِهِ مُصِيبَةٌ مُوجُودَةٌ.

مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَصِلَ إِلَى الثَّرَاءِ السَّرِيعِ عَبْرَ مَطِيَّةِ الآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ عَكْسُ
المَطْلُوبِ، وَالمَطْلُوبُ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا مَطِيَّةً إِلَى الآخِرَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَيَّامَ
مَطَايَا، جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ كَمَا رَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ قَالَ ﷺ:
« بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمَكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ
الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ »^(١)، انظُرْ إِلَى التَّحذِيرِ.

الَّذِي مَطِيَّتُهُ دِينُهُ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى الدُّنْيَا؛ لَيْسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ،
يَقُولُ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: سَأَلْتُ الحَسَنَ مَا عَلَامَةُ عُقُوبَةِ
العَالِمِ؟ العَالِمُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَدُلَّ النَّاسَ عَلَى الآخِرَةِ، كَيْفَ يُعَاقَبُ؟
قَالَ: يُعَاقَبُ بِمَوْتِ القَلْبِ، قَالَ: فَمَا مَوْتُ القَلْبِ؟ قَالَ: طَلَبُ الدُّنْيَا
بِعَمَلِ الآخِرَةِ.

وَيَقُولُ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: لِأَنَّ أَكْلَ الدُّنْيَا
بِالطَّبْلِ وَالمِزْمَارِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكَلَهَا بِدِينِي.
وَيَقُولُ الجُنَيْدُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- يَذُمُّ مَنْ يَأْكُلُ بِدِينِهِ
فَيَقُولُ: مِنَ النَّذَالَةِ أَنْ يَأْكُلَ العَبْدُ بِدِينِهِ.

وَيُسْأَلُ رَبِيعَةَ الرَّأْيِ -وَكَانَ أَسْتَاذًا لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُمُ اللهُ- يَا

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١٤٧/٣٥) برقم: [٢١٢٢٣]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذَكَرْتُ نَفِي وَجُودِ
النَّوَابِ عَلَى الأَعْمَالِ فِي العُقُوبَةِ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فِي عَمَلِهِ] (١٣٢/٢) برقم: [٤٠٥]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع"
(٥٤٥/١) برقم: [٢٨٢٣].

مَالِكُ! مَنْ السَّفَلَةُ؟ قَالَ: مَنْ يَأْكُلُ بِدِينِهِ، يَقْتَاتُ فِي الدُّنْيَا بِالدِّينِ، قَالَ:
مِنْ سِفَلَةِ السَّفَلَةِ؟ قَالَ: مَنْ يُصْلِحُ دُنْيَا غَيْرِهِ بِفَسَادِ دِينِهِ.

التَّحذِيرُ الثَّانِي: لَا تَعْرِضْ آخِرَتَكَ لِلْبَيْعِ، هَذِهِ الْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ، هَذِهِ
الْآخِرَةُ الْغَالِيَةُ لَا تَبَاعُ بِمَا يَفْنَى وَيَبِيدُ، يَقُولُ الْحَيْبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،
يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ
دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١)، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ الدِّينَ مِنْ عِنْدِهِ؛ يَبِيعُ لَكَ
الدِّينَ فِي مُقَابِلِ دُنْيَا قَلِيلَةٍ.

تَجِدُ ذَلِكَ وَاضِحًا عِنْدَ مَنْ يَخْدَعُ النَّاسَ بِاسْمِ الدِّينِ، حَتَّى يُحْصَلَ
فُتَاتَ الدُّنْيَا، تَجِدُهُ رُبَّمَا قَارِنًا لِلْقُرْآنِ، أَوْ عَامِلًا بِالرُّقِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، أَوْ رُبَّمَا
سَمَّى مَحَلَّهُ التُّجَارِيَّ بِاسْمِ إِسْلَامِيٍّ وَيَلْبَسُ لِبَاسَ الدِّينِ لِيَكْسِبَ الدُّنْيَا،
بَلْ مَا عِنْدَهُ مَانِعٌ أَنْ يَبِيعَ الدِّينَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكْسِبَ الدُّنْيَا، هَذَا التَّحذِيرُ
الثَّانِي.

التَّحذِيرُ الثَّلَاثُ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا وَالدِّينُ فِي الْقَلْبِ فِي مَرْتَبَةٍ
وَاحِدَةٍ، لَا بُدَّ أَنْ تَزَاحِمَ الدُّنْيَا الْآخِرَةَ أَوْ تَزَاحِمَ الْآخِرَةَ الدُّنْيَا؛ لِذَا قَالَ
الْحَيْبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَحْمَدَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْحَتُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَطَاهُرِ الْفِتَنِ] (١١٠/١) برقم: [١١٨].

قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَبَ بِأَخْرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَبَ بِدُنْيَاهُ، فَاتْرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»^(١)، انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي يُحِبُّ الدُّنْيَا وَيُضِيعُ صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي يُحِبُّ السَّهْرَ فِي اللَّيْلِ وَمُتَابَعَةَ الْبَرَامِجِ الْمُحَبَّبَةِ إِلَيْهِ، لَا بُدَّ أَنْ يُضْرَبَ بِأَخْرَتِهِ فَلَا يَقُومَ لِيُصَلِّيَ الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، عِلْمًا بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللَّهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي جَمَاعَةٍ»^(٢).

يَسْأَلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا الْآنَ نَفْسَهُ هَلْ صَلَّى الْفَجْرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي جَمَاعَةٍ؟ فَإِذَا كَانَ الْجَوَابُ لَا، فَلْيَسْأَلْ نَفْسَهُ مَا السَّبَبُ؟ فَإِذَا بِالسَّبَبِ حُبُّ الدُّنْيَا الَّذِي أَسْهَرَهُ الْبَارِحَةَ فَضَيَّعَ عَلَيْهِ آخِرَتَهُ، لَا بُدَّ. هَذَا حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَبَ بِأَخْرَتِهِ»^(٣)، حُبُّهُ لِلْمَالِ دَفَعَهُ أَنْ يَأْكُلَ الرِّبَا، حُبُّهُ لِلشَّهْوَةِ دَفَعَهُ أَنْ يُفْرِغَهَا فِي الزَّنا، حُبُّهُ لِلْكَلامِ وَأَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ دَفَعَهُ أَنْ يَمَلَأَ مَجْلِسَهُ بِالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ أَضْرَبَ بِأَخْرَتِهِ، حُبُّهُ لِلْمَالِ رُبَّمَا ضَيَّعَهُ فَعَقَّ وَالِدِيهِ، تَقُولُ: يَا فُلَانُ! أَمَا تَمُرُّ عَلَى أَبِيكَ وَلَا تَمُرُّ عَلَى أُمَّكَ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الشَّهْرِ؟ فَيَقُولُ: مَشْغُولٌ، الدُّنْيَا أَخَذَتْني، صَدَقَ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٧٠/٣٢) برقم: [١٩٦٩٧]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ الْإِمْعَانَ فِي الدُّنْيَا يَضُرُّ فِي الْعُقُوبِ كَمَا أَنَّ الْإِمْعَانَ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ يَضُرُّ فِي فَضُولِ الدُّنْيَا] (٤٨٦/٢)، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٧٧١/١) برقم: [٥٣٤٠].

(٢) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٢٠٧/٧)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٩١/٤) برقم: [١٥٦٦].

(٣) سبق تخريجه.

أَخَذَتْهُ الدُّنْيَا فَأَضْرَّتْ بِأَخْرَتِهِ.

التَّحْذِيرُ الرَّابِعُ: لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا هَمَّكَ الْأَوَّلَ أَوْ هَمَّكَ الْأَوْحَدَ، لَا تَجْعَلْ لَهَا الْغَلْبَةَ فِي قَلْبِكَ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفَكِّرَ؛ فَاجْعَلْ هَمَّكَ الْأَوَّلَ الدِّينَ وَالْآخِرَةَ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ وَتَبِيعَ فَاجْعَلْ هَمَّكَ الْأَوَّلَ الْآخِرَةَ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْكِحَ فَاجْعَلْ هَمَّكَ الْأَوَّلَ الْآخِرَةَ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ تَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ تُقَدِّمَ خِدْمَةَ لِعَيْرِكَ تَبْتَسِمَ فِي وَجْهِ غَيْرِكَ؛ فَاجْعَلْ هَمَّكَ الْآخِرَةَ.

وَالسَّبَبُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١)، رَاغِمَةٌ أَي: أَنْفُهَا فِي الرُّغَامِ فِي التُّرَابِ.

وَاللَّهُ لَوْ امْتَلَأَتْ خَزَائِنُ الدُّنْيَا كُلُّهَا بِاسْمِهِ؛ فَقَرُّهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، حَيَاتُهُ لِلدُّنْيَا وَالذَّرْهَمِ يَشْقَى فِي جَمْعِهَا، وَيَشْقَى فِي حِفْظِهَا، وَيَشْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي حِسَابِهَا.

خَامِسُ هَذِهِ التَّحْذِيرَاتِ: لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا هِيَ الْغَايَةَ عِنْدَكَ، كُلُّ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٦٧/٣٥) برقم: [٢١٥٩٠]، وأخرجه الترمذي في "سننه" (٦٤٢/٤) برقم: [٢٤٦٥]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١١٠٩/٢) برقم: [٦٥٠٥].

التَّحْذِيرُ مِنَ الدُّنْيَا

حَرَكَه نَتَحَرَّكُهَا مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ وَصَلَ الْحَالَ بِنَا أَنَّنَا نَتَفَاجَأُ فِي اللَّيْلِ
 أَنَّنَا مَا دَعَيْنَا اللَّهَ لِلْآخِرَةِ، مَا دَعَيْنَا بِأَنْ يُوسِّعَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي قُبُورِنَا، مَا دَعُونَا
 أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُسَهِّلَ عَلَيْنَا الْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، مَا دَعُونَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعْطِينَا
 الْجَنَّةَ، نَتَفَاجَأُ أَنَّ الدُّعَاءَ كُلَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ أَنْ يُنَجِّحَ الْأَوْلَادَ، وَأَنْ
 يَشْفِيَ الْمَرِيضَ، وَأَنْ يَكْفِينَا جَارَ السُّوءِ، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا الْفِتْنَةَ، مَا فِيهِ شَيْءٌ
 لِلْآخِرَةِ، وَهَذِهِ مُصِيبَةٌ.

المَوْلَى سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ
 لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ
 وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

التَّحْذِيرُ السَّادِسُ وَأَخْتِمُ بِهِ: لَا تَعْتَرِّ بِالْمُتَنَعِّمِينَ مِنَ الْعُصَاةِ فِي
 الدُّنْيَا، وَلَا يَكُنْ ذَلِكَ شُبُهَةً عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْبَعْضَ يَقُولُ: فَلَانُ لَا يُصَلِّي
 وَالدُّنْيَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ، فَلَانُ ظَالِمٌ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَالدُّنْيَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ
 وَمَفْتُوحَةٌ عَلَىٰ أَوْلَادِهِ، بَلْ هَذِهِ الدُّنْيَا يَتَعَاقَبُهَا هُوَ وَأَوْلَادُهُ وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِ
 عَلَىٰ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي، لَا تَعْتَرِّ بِالْمُتَنَعِّمِينَ مِنَ الْعُصَاةِ فِي الدُّنْيَا،
 وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا؟
 هَذَا لَيْسَ دَلِيلَ مَحَبَّةِ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ آلِ

عِمْرَانَ: ﴿لَا يَغُرَّنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٧-١٩٩]، وَيَقُولُ الْحَقُّ ﷺ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وَيَقُولُ نَبِيْنَا ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ» (١)، فَلَا تَسْتَغْرِبُ.

بَلْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ - وَهُوَ آخِرُ مَا أَذْكَرُهُ وَأَرْجُو أَنْ يَبْقَى هَذَا الْحَدِيثُ فِي أَذْهَانِنَا جَمِيعًا نُزِيلُ بِهِ هَذِهِ الشُّبْهَةَ وَغَيْرَهَا مِنَ الشُّبْهِ، قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تَلَا ﷺ قَوْلَ الْمَوْلَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١٨٩/٦) برقم: [٣٦٧٢]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٠٣/٩) برقم: [٨٩٩٠]، وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (١١٩/١).

[٤٥-٤٦]، اسْتَدْرَاجٌ، هَذَا الَّذِي هُوَ فِيهِ اسْتَدْرَاجٌ لَا تَغْتَرَّ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، لَكِنْ لَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ. فَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا يَخَافُ اللَّهَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ، هَذَا بِإِيجَازٍ، مَا حَدَّرَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا، وَإِلَّا فَالتَّحْذِيرَاتُ كَثِيرَةٌ، نَسَأَلُ الْمَوْلَى ﷺ أَنْ يَشْمَلَنَا بِمَحَبَّتِهِ وَعَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ.

والحمد لله رب العالمين

٣

التَّوَكُّدُ إِلَى النَّاسِ

عباد الله ...

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَمَعَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوَدَّتِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِي تَوَادِّهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بِإِيمَانِهِمْ فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣]، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ حِينَمَا قَالَ: «إِنَّ الرَّحِمَ تَقَطَّعُ، وَإِنَّ النِّعْمَةَ تُكْفَرُ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَارَبَ بَيْنَ الْقُلُوبِ لَمْ يَزُجْهَا شَيْءٌ أَبَدًا - ثُمَّ قرأ ابنُ عَبَّاسٍ - ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]» (١).

عباد الله، هَذِهِ الْقُلُوبُ أَكْرَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ تِلْكَ الْقُلُوبُ الَّتِي تَأْلَفُ وَتُؤَلَّفُ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ» (٢).

وَرَحِمَ اللَّهُ مَيْمُونَ بْنَ مَهْرَانَ الَّذِي قَالَ: " التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ نِصْفُ

(١) أخرجه البيهقي في "القضاء والقدر" (١٧٦/١) برقم: [١٤٨].

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣٥٦/٤) برقم: [٤٤٢٢]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٣٥٦/١٠) برقم: [٧٦١٦]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٦٦/١) برقم: [١٢٢٦].

العقل"، نقرأ إعلاناتٍ لدوراتٍ كثيرةٍ ومدربينٍ كثيرٍ، وعناوينَ تحملها أغلفةُ الكتبِ في فنِّ اضطيادِ قلوبِ الآخرين، وكيفَ تكسبُ قلوبَ الآخرين، والوسائلُ ومفاتيحُ كسبِ قلوبِ الآخرين، كُتِبَ مِنَ الشَّرْقِ أَوْ مِنَ الْغَرْبِ، ودوراتُ هنا وهناك تُدرَّبُ موظَّفي الاستقبالِ والعلاقاتِ العامَّةِ على فنِّ التعاملِ مع الآخرين وكيفَ تصطادُ قلوبَهُم، ولكنَّ المؤسِّفَ ألاَّ يُدَوَّنَ في هذه الكتبِ أو في بعضها ولا يأتي على السنةِ بعضُ المدربينِ تلكَ الوسائلِ الشرعيَّةِ التي جاء بها الوحي لاضطيادِ قلوبِ الآخرين.

وهنا يبرزُ سؤالٌ: أفِي وَحِينَا وَشَرَعِنَا وَسَائِلُ مِنْ خِلَالِهَا يَتَوَصَّلُ
الْآخِرُ إِلَى قُلُوبِ الْآخَرِينَ؟ الإجابةُ: نعم، وإليكم بعضها:

الْوَسِيلَةُ الْأُولَى: إِنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الْمَقْرُونُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ يُكْسِبُكَ مَحَبَّةَ الْآخَرِينَ، سَتَقُولُ لِي: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ أَقُولُ: يَقُولُ الْحَقُّ **سُبْحَانَ اللَّهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ**

الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: قبولاً عند الآخرين، ثمَّ أَضِفْ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، هَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ الْحَوَارُ فِيهِ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا كَانَ الْحَوَارُ فِيهِ فِي السَّمَاءِ، جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي في

السَّمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوَضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ^(١)، أَيْنَمَا يَذْهَبُ فَهُوَ مَحْبُوبٌ عِنْدَ النَّاسِ: عِنْدَ الْكِبَارِ، وَعِنْدَ الصَّغَارِ، وَعِنْدَ الرِّجَالِ، وَعِنْدَ النِّسَاءِ مَحْبُوبٌ، الشَّرِيحَةُ الْكُبْرَى مِنَ النَّاسِ تُحِبُّهُ وَلَا عِبْرَةَ بِالْأَقْلِيَّةِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ شَرِيحَةً مِنَ النَّاسِ تَكْرَهُ كُلَّ شَيْءٍ، لَكِنَّ الْأَعْلَبَ الْأَعْمَّ فِي خَلْقِ اللَّهِ يُحِبُّونَهُ، أَتَدْرُونَ لِمَادَا؟ لِأَنَّ اللَّهَ أَحَبَّهُ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ إِلَّا مَنْ حَقَّقَ الْإِيمَانَ الْمَقْرُونِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَسِيْلَةٌ ثَانِيَّةٌ: الزُّهْدُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْكَ تَنَازَعَتْهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ؛ أَبْغَضُوكَ، وَإِذَا رَأَوْكَ مُعْرِضًا عَنْ دُنْيَاهُمْ؛ أَحْبَبُوكَ، هَذِهِ لَيْسَتْ فَلَْسَفَةً وَلَا نَظْرِيَّةً، هَذَا وَحْيِي جَاءَ فِي حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَاسْمَعُ مَطْلَبَ هَذَا الرَّجُلِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! دَلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمَلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، قَالَ: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَأَزْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(٢)، هَذَا وَحْيِي، إِذَا نَازَعَتْهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ؛ أَبْغَضُوكَ، إِذَا تَرَكْتَ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [كَلَامِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ، وَنَدَاءِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ] (١٤٢/٩) برقم: [٧٤٨٥]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَبَبَهُ لِعِبَادِهِ] (٢٠٣٠/٤) برقم: [٢٦٣٧]، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا] (١٣٧٣/٢) برقم: [٤١٠٢]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٩٣/٦) برقم: [٥٩٧٣]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" باب: [الزهد وقصر الأمل]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٢١/١) برقم: [٩٢٣].

أَحْبُوكَ، هَذِهِ قَاعِدَةٌ.

جَاءَ أَعْرَابِيٌّ وَوَقَفَ خَطِيْبًا فِي أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ!
مَنْ سَيِّدُ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قَالُوا: الْحَسَنُ، قَالَ: بِمِ سَادَهُمْ؟ قَالُوا: اِحْتَاَجُ
النَّاسُ إِلَيَّ عِلْمِهِ وَاسْتَعْنَى هُوَ عَن دُنْيَاهُمْ، هَذَا هُوَ السَّرُّ.
لِذَا قِيلَ فِي وَصْفِ الدُّنْيَا:

وَمَا هِيَ إِلَّا جِيْفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِدَابُهَا
فَإِنْ تَجَنَّبَهَا كُنْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا وَإِنْ تَجَنَّبَهَا نَازَعْتَ كِلَابُهَا

هَذَا هُوَ الْوَحْيِي: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَأَزْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي
النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(١)، كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَةَ.

ثَالِثًا: إِفْشَاءُ السَّلَامِ، يَعْنِي السَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ تَعْرِفُ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ؛
يُوضَعُ لَكَ الْقَبُولُ وَيُحِبُّكَ النَّاسُ، دَلَّ عَلَيَّ ذَلِكَ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي
جَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ يَقُولُ ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا
حَتَّى تَحَابُّوْا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ
بَيْنَكُمْ»^(٢)، يَعْنِي تُسَلِّمُ عَلَيَّ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ.

إِنَّ الثَّقَافَةَ الْمُظْلِمَةَ الْمَوْجُودَةَ عِنْدَ الْبَعْضِ الَّتِي تَقُولُ: أُسَلِّمُ عَلَيَّ

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الرَّهْدُ فِي الدُّنْيَا] (١٣٧٣/٢) برقم: [٤١٠٢]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٩٣/٦) برقم: [٥٩٧٢]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" باب: [الزهد وقصر الأمل]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٢١/١) برقم: [٩٢٣].

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها] (٧٤/١) برقم: [٥٤].

جَمَاعَتِي، وَأَسَلَّمُ عَلَى مَنْ أَعْرِفُهُ وَالْغَيْرِ لَا، هَذِهِ ثَقَافَةٌ بَائِدَةٌ لَا تَنْفَعُ، سَلِّمْ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ، وَإِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى خَاصَّتِهِ، يَتَأَكَّدُ أَنَّهُمْ جَمَاعَتُهُ أَمْ لَا، يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: تَصَافَحُوا يَذْهَبُ الْغُلُّ فَإِنَّ مِنَ السَّلَامِ الْمُصَافَحَةَ، وَالسَّلَامُ بَدْلُهُ يَفْتَحُ لَكَ قُلُوبَ الْآخَرِينَ، هَذَا الْإِمَامُ الزُّهْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الزُّهْرِيُّ أَعْطَاهُ الْخَلِيفَةُ مَالًا جَائِزَةً وَعَادَةُ السَّلَفِ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَالُ؛ أَنْفَقُوهُ، فَقَالَ لِابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ: يَا إِبْرَاهِيمُ! سَجِّلِ الْأَقْرَبَ وَالْأَحْبَابَ نُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ هَذَا الْمَالِ، فَبَدَأَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الزُّهْرِيُّ يُسَجِّلُ، نُعْطِي فُلَانًا وَنُعْطِي فُلَانًا وَنُعْطِي فُلَانًا، قَالَ: هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ؟ قَالَ: لَا أَذْكَرُ، قَالَ: تَذْكَرُ، قَالَ: لَا أَذْكَرُ، قَالَ: وَلَكِنِّي أَذْكَرُ رَجُلًا لَقِينِي فِي السُّوقِ قَبْلَ قَلِيلٍ فَسَلَّمَ عَلَيَّ سَلَامًا جَمِيلًا لَا أَعْرِفُهُ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا اكْتُبْ لَهُ عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ.

تأملوا يا عباد الله تأثر بسلامه ووصفه بالجمال فقال: فسلم علي تسليمًا جميلًا اكتب له عشرة دنانير.

رابعاً: الإحسان إلى الناس، وسيلة من وسائل اصطيد القلوب، قال عمرُ الفَارُوقُ رضي الله عنه لِسَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ وَكَانَ وَالِيًا عَلَى الشَّامِ: يَا سَعِيدُ! مَا لِأَهْلِ الشَّامِ يُحِبُّونَكَ؟ عُمَرُ يَتَفَقَّدُ الرَّعِيَّةَ وَيَتَفَقَّدُ الْوَلَاةَ، وَجَدَ هَذَا الْوَالِيَّ

التَّوَدُّدُ إِلَهُ النَّاسِ

سَعِيدَ بْنَ عَامِرٍ مَقْبُولًا مَحْبُوبًا، قَالَ: يَا سَعِيدُ! مَا لِأَهْلِ الشَّامِ يُحِبُّونَكَ؟
قَالَ: أَعَاوَنُهُمْ وَأُوَاسِيهِمْ، (أَكُونُ لَهُمْ عَوْنًا وَأُوَاسِيَهُمْ فِي أَحْزَانِهِمْ)، قَالَ:
بِهَذَا أَحْبُّوكَ.

أَحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
إِنَّ الْمُحْسِنَ يَتِمَكَّنُ مِنْ قُلُوبِ الْآخَرِينَ بِإِحْسَانِهِ وَبِإِعَاتِيَتِهِمْ.

وَأَخْتِمُ هَذِهِ الْوَسَائِلَ بِوَسِيلَةٍ خَامِسَةٍ أَخْبَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَرَوِيهِ
التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ السُّنَنِ يَقُولُ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ
أَخَاهُ، فَلْيُعَلِّمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ»^(١)، يَذْهَبُ إِلَيْهِ يَقُولُ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، وَهَذَا
قَلِيلُ الْيَوْمِ، بَلْ قَالَ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ، فَلْيَأْتِهِ فِي مَنْزِلِهِ،
فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ»^(٢)، وَهَذَا نَادِرٌ أَنْ يَأْتِيَهُ الرَّجُلُ إِلَى بَيْتِهِ، وَلَا يُمَارِسُ
هَذِهِ الْعَادَةَ إِلَّا مَنْ أَحْتَاَجَ إِلَى شَيْءٍ، فَيَقُولُ لَكَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ! وَأَنَا
مُحْتَاَجٌ إِلَى كَذَا وَكَذَا.

حَتَّى لَوْ أَنَّكَ ذَهَبْتَ وَأَنْتَ لَا تُرِيدُ شَيْئًا، فَقُلْتَ لِصَاحِبِكَ: إِنِّي
أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ وَسَكَتَ، قَالَ لَكَ: تَأْمُرُ بِشَيْءٍ، قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٠٨/٢٨) برقم: [١٧١٧١]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي إِغْلَامِ الْحُبِّ] (٥٩٩/٤) برقم: [٢٣٩٢]، وأخرجه النسائي في "سننه" باب: [إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ، هَلْ يُعَلِّمُهُ ذَلِكَ؟] (٨٧/٩) برقم: [٩٩٦٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١١٣/١) برقم: [٢٧٦].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٢٠/٣٥) برقم: [٢١٢٩٤]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١١٣/١) برقم: [٢٧٦].

أَخَاهُ، فَلْيَعْلَمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ» (١) فَإِنَّهُ أَبْقَى فِي الْأَلْفَةِ وَأَثْبَتُ فِي الْمَوَدَّةِ.

عباد الله ، هذا شيءٌ يَسِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِكَسْبِ قُلُوبِ الْآخَرِينَ، ذَكَرْتُهَا لِتَكُونَ لَنَا مِنْهَجًا، وَتَكُونَ لَنَا طَرِيقًا نَهْتَدِي بِهَا فِي وَقْتِ كَثُرَتْ فِيهِ الطَّرِيقُ وَكَثُرَتْ فِيهِ السُّبُلُ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

عباد الله ، بَعْضُ الْكَلَامِ يَكُونُ قَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ يَحْمِلُ مَعَانِي كَثِيرَةً، وَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقَلِيلَةِ فَوَاللَّهِ لَوْ تَدَبَّرَهَا الْمُؤْمِنُ لَوَجَدَ فِيهَا الْمَعَانِي الْكَثِيرَةَ، فَاسْمَعْ مَاذَا قَالَ ذُو الْأَصْبَعِ الْعِدَاوِي مِنْ حُكَمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ وَهُوَ يُوصِيهِ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ :

قَالَ: أَلِنْ جَانِبَكَ لِقَوْمِكَ يُحِبُّوكَ، وَتَوَاضَعْ لَهُمْ يَرْفَعُوكَ، وَابْسُطْ إِلَيْهِمْ وَجْهَكَ؛ يُطِيعُوكَ، وَلَا تَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ يُسَوِّدُوكَ -يَجْعَلُوكَ سَيِّدًا-، وَأَكْرِمْ صِغَارَهُمْ كَمَا تُكْرِمُ كِبَارَهُمْ يُكْرِمُكَ كِبَارَهُمْ وَيَكْبُرُ عَلَى مَوَدَّتِكَ صِغَارَهُمْ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) سبق تخريجه.

٤

صلاح الأسرة

عباد الله ...

إِنَّ صَلَاحَ الْأُسْرِ يُؤَدِّي إِلَى صَلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، وَصَلَاحِ الْمُجْتَمَعِ يُؤَدِّي إِلَى صَلَاحِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا صَلَحَتِ الْأُسْرُ وَكَثُرَ عَدَدُ الْأُسْرِ الصَّالِحَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ؛ غَلَبَ الصَّلَاحُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، ثُمَّ إِذَا صَلَحَتِ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتُ؛ صَلَحَتِ الْأُمَّةُ وَنَهَضَتْ، يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِلَبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

بَيِّنْ أَنْ هَذِهِ الرَّغْبَةُ فِي صَلَاحِ الْأُسْرِ هُنَاكَ مَنْ يُذَكِّي نَارَ الْعَدَاوَةِ فِي وَسْطِهَا، وَهُنَاكَ مَنْ يُؤَلِّبُ الْأَزْوَاجَ عَلَى الزَّوْجَاتِ وَالزَّوْجَاتِ عَلَى الْأَزْوَاجِ، حَتَّى صَوَّرَ لَنَا هَذَا الَّذِي يُذَكِّي هَذِهِ النَّارَ أَنَّ هُنَاكَ حَرْبًا مُسْتَعْرَةً بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، فَيَدْخُلُ الزَّوْجُ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِ الزَّوْجِيَّةِ وَهُوَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ غَالِبًا أَوْ مَغْلُوبًا، هَكَذَا يُقَالُ لِلزَّوْجِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ غَالِبًا أَوْ مَغْلُوبًا، إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَّصِرًا أَوْ مَهْزُومًا فَيَدْخُلُ بِهَذِهِ النِّظْرَةِ الضَّيْقَةَ .

وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ، هُنَاكَ مَنْ يَرُوجُ لِهَذِهِ الْأَفْكَارِ فِي رَأْسِهَا، أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ اسْمَعُوا مَاذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِوَاءِ كُنْتَ حَدِيثَ الزَّوْجِ أَوْ قَدِيمَهُ، فَإِنَّ هُنَاكَ مَنْ يَتَرَبَّصُّ بِكَ الدَّوَائِرَ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنْ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْرَلَةٌ

أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُذْنِبُهُ مِنْهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ " قَالَ الْأَعْمَشُ: أَرَاهُ قَالَ: «فَيْلْتَرِمْهُ»^(١)، هَكَذَا يَقُولُ الشَّيْطَانُ لِهَوْلَاءِ الْأَبَالِسَةِ الَّذِينَ يُبْثِنُهُمْ عَلَى شَكْلِ سَرَائِيَا، سَرِيَّةٌ هُنَا وَسَرِيَّةٌ هُنَاكَ، سَرِيَّةٌ تَقْتَحِمُ هَذَا الْمُجْتَمَعَ، وَسَرِيَّةٌ تَقْتَحِمُ هَذَا الْبَيْتَ بِقَصْدٍ « مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ ».

سَوَاءٌ كَانَ هَذَا شَيْطَانِ إِنْسٍ أَوْ شَيْطَانِ جِنٍّ، فَإِنَّ هُنَاكَ مَنْ يَعْمَلُ مِنْ بَنِي الْإِنْسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ عَلَى تَفْرِيقِ الْأَسْرِ وَإِذْكَاءِ نَارِ الْعِدَاوَةِ، وَتَصْوِيرِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ خَصْمَانِ تُصْبِحُ الْمَرْأَةُ وَيُصْبِحُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى شَرِيكِ حَيَاتِهِ عَلَى أَنَّهُ خَصْمٌ يَتَّصِرُ عَلَيْهِ أَوْ يَنْهَزِمُ مِنْ قِبَلِهِ، لِذَا كَثُرَ عَدَدُ حَالَاتِ الطَّلَاقِ عِنْدَنَا فِي الْمُجْتَمَعَ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ مُجْتَمَعَاتِ الْأُمَّةِ.
عبد الله ...

انظر يَمْنَةً وَيَسْرَةً قَلَّمَا تَجِدُ الْيَوْمَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ مُطَلَّقَةٌ، أَمَا كَانَتْ أَوْ بِنْتًا أَوْ أُخْتًا، وَهَكَذَا مَعْدَلِ الطَّلَاقِ وَنِسْبَةِ الطَّلَاقِ تَرْتَفِعُ عِنْدَنَا فِي الْمُجْتَمَعَ، وَقَدْ وَصَلَتْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَى خَطُوطِ حَمْرَاءِ خَطِيرَةٍ .
لِذَا تَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ فِي سِلْسِلَةِ الرَّسَائِلِ الزَّوْجِيَّةِ، لِأَتَحَدَّثَ مَعَكُمْ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَائِيَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِيبًا] (٢١٦٧/٤) برقم: [٢٨١٣].

الْيَوْمَ عَنْ أَسْبَابِ الْخِلَافِ الَّذِي يَحْدُثُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِنَا، وَسَأَرْكُزُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمُخَاطَبُ الْآنَ فَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ، وَيَأْتِي عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ: الْجَهْلُ بِحِكْمِ الزَّوْجِ، وَالنَّظْرَةُ الْخَاطِئَةُ لِمَفْهُومِ الزَّوْجِ، ذَكَرْتُ فِي خُطْبٍ سَابِقَةٍ عَدَدًا مِنَ الْحِكْمِ وَأَذْكَرُ بِبَعْضِهَا.

الزَّوْجُ مِنْ أَعْظَمِ الرُّوَابِطِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنِ جِنْسِهِ، سَمَّاهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: مَوْثِقًا غَلِيظًا قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا* وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١]، مَوْثِقٌ غَلِيظٌ بَيْنَ الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ وَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرَكَ هَذَا الْأَمْرُ.

عِبَادَ اللَّهِ ، جَعَلَ اللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الزَّوْجَ سَبِيًّا لِلْمُودَةِ وَالسَّكَنِ ، كَمَا قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، الْمَرْأَةُ تَسْكُنُ إِلَى الرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ يَسْكُنُ إِلَى الْمَرْأَةِ.

أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الزَّوْجِ هَدَفًا سَامِيًّا رَفِيعًا: وَهُوَ تَكْثِيرُ سَوَادِ الْأُمَّةِ فَقَالَ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَّةَ»^(١)، إِذَا هَذَا سَبَبُ الْجَهْلِ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٦٣/٢٠) برقم: [١٢٦١٣]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [النَّهْيُ عَنِ تَزْوِيجِ مَنْ لَمْ يَلِدْ مِنَ النِّسَاءِ] (٢٢/٢) برقم: [٢٠٥٠]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٦٦/١) برقم: [٢٩٣٦].

بِحَكْمِ الزَّوْجِ، وَالنَّظْرَةِ الْخَاطِئَةِ فِي مَفْهُومِهِ.

السَّبَبُ الْآخِرُ لِكَثْرَةِ الْخِلَافَاتِ الزَّوْجِيَّةِ: الْجَهْلُ بِفُنُونِ وَمَهَارَاتِ التَّفَاهُمِ، قُولُوا لِي: كَمْ هِيَ الدَّوْرَاتُ الَّتِي تُعْقَدُ فِي مُجْتَمَعَاتِنَا وَيَحْضُرُهَا الْأَزْوَاجُ فِي فَهْمِ فُنُونِ الزَّوْجِ، وَمَهَارَاتِ إِدَارَةِ الْخِلَافِ الْأَسْرِيِّ كَمْ؟ اسْأَلْ نَفْسَكَ كَمْ دَوْرَةٌ حَضَرَتْ؟

كُنَّا قَدِيمًا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْفُنُونَ فِي مَجَالِسِنَا، إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ: الْمَجَالِسُ مَدَارِسُ، وَالْآنَ الْمَجَالِسُ انْحَصَرَتْ وَكَادَتْ تَخْتَفِي إِلَّا قَلِيلًا عِنْدَ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، فَتَجِدُ الرَّجُلَ لَا يَفْهَمُ كَيْفَ يُدِيرُ الْخِلَافَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَرْأَتِهِ: " إِذَا رَأَيْتِنِي غَاضِبًا فَرُدِّينِي وَإِذَا رَأَيْتِكِ غَضْبَاءً رَدِّدُنكِ وَإِلَّا لَمْ نَصْطَحِبْ "، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسِيرَ بِنَا الْحَيَاةُ، إِذَا اسْتَدَّتْ ثَوْرَةُ الْغَضَبِ عِنْدِي رُدِّينِي هَكَذَا مِنَ الْبِدَايَةِ يَضْعُونَ صُورَ التَّفَاهُمِ، وَإِذَا رَأَيْتِكِ غَضْبِي رَدِّدُنكِ وَإِلَّا لَمْ نَصْطَحِبْ.

دَفَعَ أَحَدُ الْأَبَاءِ ابْنَتَهُ إِلَى زَوْجِهَا ثُمَّ قَالَ لَهَا: يَا بِنْتِي! كُونِي لَهُ أُمَّةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا، هَذِهِ لُغَةُ التَّفَاهُمِ أَرَادَهَا اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنْ تَشِيْعَ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ.

وَمِنْ لُغَةِ التَّفَاهُمِ: إِذَا حَصَلَ الْخِلَافُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَحْتَكِمَ إِلَّا إِلَى شَرْعِ اللَّهِ، بَعْضُ الْأَزْوَاجِ يَقُولُ: لَا تُدْخِلِ الدِّينَ، تُرِيدُ أَنْ تُصْلِحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

زَوْجَتِهِ وَالْمَرْأَةُ تَقُولُ لِرِزْوَجِهَا: تَعَالَ نَحْتَكِمِ إِلَى الشَّرْعِ وَيَقُولُ: لَا نُدْخِلُ
الدِّينَ فِي خِلَافَاتِنَا الْأَسْرِيَةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

تَقُولُ الْمَرْأَةُ: يَكُونُ أَحْيَانًا بَعْضُ أَسْبَابِ الْخِلَافِ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَرَى
عَلَى زَوْجِهَا مُنْكَرًا عَظِيمًا هِيَ تَنَامُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ يَقْضِي لَيْلَهُ الطَّوِيلَ
يُدَاعِبُ لَوْحَةَ الْمَفَاتِيحِ فِي جِهَازِهِ الْمَحْمُولِ يَنْظُرُ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَتَمُرُّ
السَّاعَةُ وَالسَّاعَاتُ تَقُولُ: يَا فُلَانُ! هَذَا حَرَامٌ، أَوْ يَقْضِي وَقْتًا طَوِيلًا فِي
الْعَرَبْدَةِ وَالْمُجُونِ وَالْعَهْرِ، تَقُولُ: هَذَا مَا يَجُوزُ هَذَا حَرَامٌ، تَتْرَكُنِي أَنَا
لَوْحِدِي وَأَبْنَائِي قَالَ: لَا تَقُولِي حَرَامٌ وَلَا حَلَالٌ الدِّينُ مَا لَهُ عِلَاقَةٌ بِحَيَاتِنَا
الزَّوْجِيَّةِ، مَا يَجُوزُ هَذَا الْقَوْلُ، هَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ وَسَبَبُ رَيْئِسٍ فِي مَسْأَلَةِ
الْخِلَافَاتِ الزَّوْجِيَّةِ.

مِنَ الْأَسْبَابِ ثَالِثًا: الْاسْتِمَاعُ إِلَى النَّصَائِحِ الْمُغْرَضَةِ، هُنَاكَ مَنْ
يَنْصَحُ لِكِنَّةٍ يَفْضَحُ، هُنَاكَ مَنْ يَنْصَحُ لِكِنَّةٍ نَصَائِحُهُ كَالسَّهَامِ الْقَاتِلَةِ، يَدْخُلُ
أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ مَرَّةً عَلَى أَهْلِهِ، أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ عَابِدٌ زَاهِدٌ فَقِيهٌ
سَمَّاهُ أَهْلُ التَّرَاجِمِ: رِيحَانَةُ الشَّامِ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ مِنَ الْيَمَنِ، قَالَ عَنْهُ
الدَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: سَيِّدُ التَّابِعِينَ، لَهُ عَادَةٌ إِذَا دَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ يُكَبِّرُ عِنْدَ

البَابِ فَتُكَبِّرُ امْرَأَتَهُ بِتَكْبِيرِهِ، فَإِذَا دَخَلَ الدَّارَ هَلَلَّ فَهَلَلَتْ امْرَأَتُهُ بِتَهْلِيلِهِ، ثُمَّ جَاءَتْ وَنَزَعَتْ عَنْهُ عِبَاءَتَهُ وَخَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى خَلَعَتْ حِذَاءَهُ، ثُمَّ قَدَّمَتْ لَهُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ.

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ يَدْخُلُ عَلَيْهَا فَيَقِفُ بِالْبَابِ فِيهِلُّ؛ فَلَا تُهَلُّ وَرَأَاهُ، يُكَبِّرُ فَلَا تُكَبِّرُ، يَنْتَظِرُ أَنْ تَنْزِعَ ثِيَابَهُ فَمَا جَاءَتْهُ، فَالْتَفَتَ إِلَى مَوْضِعِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا وَإِنَّمَا وَجَدَهَا وَفِي يَدِهَا عُوْدٌ تَنَكَّتُ بِهِ الْأَرْضَ، قَالَ: مَا لَكَ يَا فُلَانَةُ! قَالَتْ: النَّاسُ فِي خَيْرٍ وَالنَّاسُ فِي عِزٍّ وَالنَّاسُ فِي غِنَى عِنْدَهُمْ وَعِنْدَهُمْ، وَأَنْتَ أَبُو مُسْلِمٍ لَيْسَ وَرَاءَكَ شَيْءٌ، فَعَلِمَ أَنَّهَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ فَأَفْسَدَهَا، فَاتَّجَهَ إِلَى الْقِبْلَةِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مَنْ أَفْسَدَ عَلَيَّ أَهْلِي فَأَعْمِ بَصَرَهُ، فَعَمِيَّتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي زَارَتْهَا وَنَصَحَتْهَا بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ، وَأَدْرَكَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أَنَّهَا قَدْ أُصِيبَتْ بِدَعْوَةِ أَبِي مُسْلِمٍ فَجَاءَتْهُ تَتَرَضَّاهُ وَتَقُولُ: وَاللَّهِ! لَا أَعُوْدُ، فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٥

الزَّوْجِ سَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ

عباد الله ...

فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ كُلِّ عَامٍ تَكْثُرُ عُقُودُ الزَّوْجِ اسْتِعْدَادًا لِلِإِجَازَةِ
الصَّيْفِيَّةِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الزَّوْاجُ.

فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْخُطَبِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ هَذَا الْعَقْدَ،
وَهَذَا الْمَوْثِقَ الْغَلِيظَ، وَهَذِهِ الْمَوْسَسَةَ الْعَظِيمَةَ، وَهَذِهِ الْمَسِيرَةَ الَّتِي
يَحْيَاهَا الْإِنْسَانُ مَتَى مَا قَالَ: زَوْجَتِكَ، أَوْ قَالَ: قَبِلْتُ الزَّوْاجَ مِنْ ابْنَتِكَ
فَلَانَةَ عَلَيَّ سَنَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

عباد الله ، أَمَرَ اللَّهُ ﷻ بِالزَّوْاجِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ،
وَأَمَرَ بِذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ، فَنَحْنُ نَقْرَأُ جَمِيعًا قَوْلَ الْمَوْلَى ﷻ أَمْرًا الْمُؤْمِنِينَ:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُ الْمَوْلَى ﷻ مُخَاطِبًا الْأَوْلِيَاءَ بِتَزْوِيجِ الْأَوْلَادِ:
﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامِي مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وَالنَّبِيُّ ﷺ حَفِظَ عَنْهُ خِطَابٌ خَاصٌّ لِلشَّبَابِ: « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ،
مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَىٰ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ

يَسْتَطِيعُ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» (١).

وَهُنَا يَأْمُرُ النَّبِيُّ ﷺ الشَّبَابَ أَنْ يَعْفُوا أَنْفُسَهُمْ بِهَذِهِ الْمُؤَسَّسَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ الزَّوْاجُ.

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ يَقُولُ ﷺ: «النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي، فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

انظُرْ إِلَى هَذَا الْخِطَابِ الْعَظِيمِ: «النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي، فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي، وَتَزَوَّجُوا، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ، وَمَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ» (٢).

وَمَعَ هَذِهِ النُّصُوصِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَّا أَنَّنَا نَجِدُ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ هَذِهِ السُّنَّةِ؛ إِمَّا مُتَرَدِّدًا، أَوْ مُسَوِّفًا، أَوْ مُعْرِضًا، فَهِيَ تَارَةٌ يَقُولُ: أَتَزَوَّجُ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ، ثُمَّ يَقُولُ: فِي الْعَامِ الَّذِي يَلِيهِ، فَإِذَا بِالْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالسِّنِينَ تَمُرُّ عَلَيْهِ.

فَبِالْأَمْسِ كَانَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ، وَالْآنَ هُوَ يُنَاهِزُ الْأَرْبَعِينَ، وَرَبَّمَا جَاوَرَهَا زِيَادَةً أَوْ نُقْصَانًا، وَلَا يَزَالُ يُسَوِّفُ يَقُولُ: فِي الْعَامِ الْقَادِمِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَاءَةَ فَلْيُصِّمْ) (٣/٧) برقم: [٥٠٦٦]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: اسْتِحْبَابُ النِّكَاحِ لِمَنْ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مَوْلَاهُ، وَاسْتِخَالَ مِنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤْنِ بِالصَّوْمِ) (١٠١٨/٢) برقم: [١٤٠٠]، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِي فَضْلِ النِّكَاحِ) (٥٩٢/١) برقم: [١٨٤٦]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٤٩٧/٥) برقم: [٢٣٨٣]، وَاللَّفْظُ لِابْنِ مَاجَةَ.

أَتَزَوَّجُ.

وَرُبَّمَا وَضَعَ لَهُ مِنَ الْمَعَايِيرِ وَالشَّرُوطِ فِي الزَّوْجَةِ الَّتِي يَبْحَثُ عَنْهَا مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَوَفَّرَ فِي امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ الْيَوْمَ يَقُولُ: أُرِيدُهَا أَنُثِي فَحَسْبُ.

هُؤُلَاءِ الشَّبَابُ رُبَّمَا خَفِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحِكْمَةُ مِنَ الزَّوْجِ، وَهُنَا أُذَكِّرُ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِهَذِهِ الْحِكْمِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا الْعَقْدِ الْوَثِيقِ:

أَوَّلُ هَذِهِ الْحِكْمِ: الْاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ الْقَائِلِ: ﴿فَانكحُوا﴾، وَ: ﴿وَانكحُوا﴾، وَالْاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا سَمِعْتُمْ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ، فَأَوَّلُ الْحِكْمِ: الْاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَلِأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَتَانِي هَذِهِ الْحِكْمِ: تَحْصِيلُ الْأَجْرِ وَاسْتِكْمَالِ الدِّينِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَزَوَّجَ؛ حَصَلَ الْأَجُورَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَزَوَّجَ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الْإِيمَانِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي النِّصْفِ الْبَاقِي» (١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ،

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٣٢/٧) برقم: [٧٦٤٧]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٥٩/٢) برقم: [٦١٤٨]، واللفظ للطبراني.

كَانَ لَهُ أَجْرٌ» (١).

وَتَالِثُ هَذِهِ الْحِكْمِ: إِخْمَادُ نَارِ الْفِتْنَةِ، فَالرَّجُلُ بِفِطْرَتِهِ مَفْتُونٌ بِالْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ بِفِطْرَتِهَا مَفْتُونَةٌ بِالرَّجُلِ، الرَّجُلُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ تَحْتَاجُ إِلَى الرَّجُلِ إِلَّا شَوَاذِ بَنِي آدَمَ، وَإِلَّا الْأَصْلُ أَنَّ هَذِهِ الْحَاجَةَ مَوْجُودَةٌ عِنْدَ الرَّجُلِ، وَمَوْجُودَةٌ عِنْدَ الْمَرْأَةِ، وَلَا يُطْفِئُ هَذِهِ الْفِتْنَةَ وَلَا يُلَبِّي هَذِهِ الْحَاجَةَ إِلَّا هَذَا الزَّوْاجُ الشَّرْعِيُّ، لَوْ مَارَسَ الرَّجُلُ الزَّنا، وَمَارَسَتِ الْمَرْأَةُ الْبِغَاءَ؛ لَا تَفِي، وَلَا تُحَقِّقُ، وَلَا تُخَمِدُ نَارَ الْفِتْنَةِ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ لَا يُخَمِدُ نَارَ فِتْنَةِ الشَّهْوَةِ، وَحَاجَةَ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ، وَحَاجَةَ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ إِلَّا هَذَا الْعَقْدُ الشَّرْعِيُّ.

لِذَا، يَقُولُ ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً، فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ» (٢). إِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً، وَتَحَرَّكَتْ شَهْوَتُهُ، فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ.

وَرَابِعُ هَذِهِ الْحِكْمِ: حُصُولُ السَّكَنِ:

مَنْ مَنَّا لَا يَبْحَثُ عَنِ السَّكَنِ، وَإِيقَافِ حَالِهِ الْاضْطِرَابِ فِي النَّفْسِ!؟

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: بيان أن اسم الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ) (٦٩٧/٢) برقم: [١٠٠٦].

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: نَذْبِ مَنْ رَأَى امْرَأَةً فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَتَهُ أَوْ جَارِيَتَهُ فَيُؤَاقِعَهَا)

(١٠٢١/٢) برقم: [١٤٠٣].



إِنَّ الزَّوْجَ سَبَبٌ لِحُصُولِ السَّكَنِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ فِي سُورَةِ الرُّومِ، :
 ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ
 مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢١].

خَامِسُ هَذِهِ الْحِكْمِ: تَحْسِينُ الْوَضْعِ الْاِقْتِصَادِيِّ:
 نَعَمْ، هَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْمَوْلَى ﷻ فِي سُورَةِ النُّورِ، يَقُولُ:
 ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا
 فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

يقول ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «الْتَمِسُوا الْغِنَى فِي النِّكَاحِ».
 بَلْ هُنَاكَ مَا يَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ صَرَاخَةً، وَهُوَ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:
 «ثَلَاثَةٌ حَقُّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي
 يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَا»^(١).

حَدَّدِ النِّيَّةَ، وَوَجَّهَهَا، وَاجْعَلْهَا صَحِيحَةً، تُرِيدُ إِعْفَاةَ نَفْسِكَ،
 وَإِعْفَاةَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُعِينُكَ.

إِذَا، نَحْنُ أَمَامَ نُصُوصٍ عَظِيمَةٍ تَأْمُرُ بِالزَّوْجِ، وَتُحَرِّكُ هُوَلَاءِ
 الشَّبَابِ.

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِي الْمُجَاهِدِ وَالنَّاكِحِ وَالْمُكَاتِبِ وَعَوْنِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ) (١٨٤/٤) برقم: [١٦٥٥]، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (باب: فَضْلُ رَوْحَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (٢٧٨/٤) برقم: [٤٣١٣]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٨٥/١) برقم: [٣٠٤٦]، وَاللَّفْظُ لِلتَّرْمِذِيِّ.

قَدْ يَكُونُ الشَّابُّ مُقْتَدِرًا مَالِيًّا وَبَدَنِيًّا، فَمَاذَا يَنْتَظِرُ؟

أيها الشباب إذا عزمتم على الزواج فأحسنوا الاختيار، وَلَا تَنكِحُوا إِلَّا الْأَكْفَاءَ، وَلَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ كُفُوًّا إِلَّا بِالدِّينِ وَالْخُلُقِ، هَذَا مَعْيَارُ الْكَفَاءَةِ: دِينٌ، وَخُلُقٌ:

جَاءَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: إِنَّ لِي بُنِيَّةً، وَإِنَّهَا تُخَطَبُ، فَمَنْ أَزْوَجُهَا؟ قَالَ: «زَوْجُهَا مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ، إِنَّ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمَهَا».

وَهَذَا هُوَ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا آتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَرُزُّوهُ، إِلَّا تَفَعَّلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» (١).

لَا بُدَّ مِنَ الدِّينِ مَقْرُونًا بِالْخُلُقِ، مَا يَصْلُحُ دِينٌ بِدُونِ خُلُقٍ، يَقُولُ لَكَ: فُلَانٌ مُلْتَزِمٌ، وَلَكِنْ لَا أَخْلَاقَ لَهُ، فُلَانٌ دِينٌ، وَلَكِنْ لَا أَخْلَاقَ لَهُ؛ اِتْرُكْهُ، أَوْ يُقَالُ: فُلَانٌ خَلُوقٌ، وَلَكِنْ لَا دِينَ لَهُ؛ اِتْرُكْهُ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَفَّرَ فِيهِ هَذَا الْمَعْيَارُ الْمَهْمُّ مِنْ مَعَايِيرِ الْكَفَاءَةِ: الدِّينُ، وَالْخُلُقُ.

ويقول نبينا ﷺ: «تَنْكِحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا،

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: الأَكْفَاءُ) (٦٣٢/١) برقم: [١٩٦٧]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ فَرُزُّوهُ) (٣٨٦/٣) برقم: [١٠٨٤]، وَحَسَنَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ» (٩٢٩/٢) برقم: [٣٠٩٠]، وَاللَّفْظُ لابن ماجه.

وَلِدَيْنَهَا، فَظَفَرَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ» (١).

عباد الله ، قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ لِبَنِيهِ : أَحْسَنْتُ إِلَيْكُمْ صِغَارًا وَكِبَارًا، وَقَبَّلَ أَنْ تُوَلَّدُوا.

قَالُوا: أَحْسَنْتَ إِلَيْنَا صِغَارًا وَكِبَارًا، وَقَبَّلَ أَنْ نُوَلَّدَ، كَيْفَ قَبَّلَ أَنْ نُوَلَّدَ أَحْسَنْتَ إِلَيْنَا؟

قَالَ: اخْتَرْتُ لَكُمْ مِنَ الْأُمَّهَاتِ مَنْ لَا تُسَبُّونَ بِهَا، مِنَ الْبِدَايَةِ اخْتَرْتُ لِأَبْنَائِكَ الْأُمَّ الصَّالِحَةَ الَّتِي لَا يُسَبُّونَ بِهَا، لِهَذَا أَنْشَدَ الرَّيَاشِيُّ قَائِلًا:

وَأَوَّلُ إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ تَخْيِيرِي لِمَا جَدَّةُ الْأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا

وَهَذَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ يَقُولُ عَنْ رَجُلٍ لَمَّا قِيلَ لَهُ: تَزَوَّجْ.

قَالَ: لَا أَتَزَوَّجُ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى وُلْدِي مِنْهَا.

قَالُوا: كَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى وُلْدِكَ مِنْهَا وَلَمَّا تَتَزَوَّجْ بِهَا بَعْدُ؟

قَالَ: أَنْظُرُ إِلَى أَبِيهَا وَأُمِّهَا، فَإِنَّهَا تُجْرِبُ بِأَحَدِهِمَا، وَهَذَا مِصْدَاقُ

حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ، وَانكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وَانكِحُوا

إِلَيْهِمْ» (٢)، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ.

عبد الله ، اخْتَرِ الْمُحَضَّنَ الطَّيِّبَ لِهَذِهِ النُّطْفَةِ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الأكفَاءِ فِي الدِّينِ) (٧/٧) برقم: [٥٠٩٠]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب اسْتِحْبَابِ نِكَاحِ ذَاتِ الدِّينِ) (١٠٨٦/٢) برقم: [١٤٦٦]، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: الأكفَاءِ) (٦٣٣/١) برقم: [١٩٦٨]، وأخرجه الدارقطني في «سننه» (باب: المَهْرِ) (٤٥٨/٤) برقم: [٣٧٨٨]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٦٤/١) برقم: [٢٩٢٢]، واللفظ لابن ماجه.

جاءت امرأةً إلى النبي ﷺ ، وعائشةُ جالسةٌ فقالت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل تَغْتَسِلُ الْمَرْأَةُ إِذَا احْتَلَمَتْ وَأَبْصَرَتِ الْمَاءَ؟
فَقَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: تَرَبَّتْ يَدَاكِ وَأَلَّتْ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعِيهَا، وَهَلْ يَكُونُ الشَّبَهُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، إِذَا عَلَا مَاؤُهَا مَاءَ الرَّجُلِ، أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَهَا أَشْبَهَ أَعْمَامَهُ» (١).

إِذَا، اخْتَرِ الْأُمَّ الَّتِي لَا يُسَبُّ وَلَا يَعِيرُ الْأَوْلَادُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: وَجُوبِ الْغُسْلِ عَلَى الْمَرْأَةِ بِخُرُوجِ الْمَنِيِّ مِنْهَا) (٢٥١/١) برقم: [٣١٤].



٦

رسالة خاصة



عبد الله ...

أوصيك أن تشاور، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا شَاوَرَ؛ غَنِمَ، وَعَقْلَانِ أَفْضَلُ مِنْ عَقْلٍ، وَمَشُورَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ أَفْضَلُ مِنْ مَشُورَةٍ وَاحِدَةٍ، وَتَحْقِيقًا لِأَمْرِ الْمَوْلَى **ﷺ**: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:

.[١٥٩]

وَلَا تُشَاوِرْ إِلَّا ثِقَةً يَحْفَظُ لَكَ السِّرَّ، وَأَنْتَ إِذَا اسْتَشِرْتَ كُنْ مُؤْتَمِنًا، فَإِنَّ النَّبِيَّ **ﷺ** يَقُولُ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ» (١).

وَأَنْصَحْ فِي مَشُورَتِكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ **ﷺ** قَالَ: «إِذَا اسْتَنْصَحَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَنْصَحْ لَهُ» (٢).

وَأَوْصِيكَ أَنْ تَسْتَخِيرَ الْمَوْلَى **ﷺ**، فَكَمْ هُمُ الَّذِينَ يُدْرِكُونَ وَيَعْلَمُونَ فِقَةَ صَلَاةِ الاسْتِخَارَةِ.

عبد الله... هَلْ هُنَاكَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَسْتَخِيرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ فِي هَذَا الْمَشْرُوعِ الْعَظِيمِ وَهُوَ الزَّوْاجُ.

فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» يَقُولُ جَابِرٌ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ** يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٣/٣٧) برقم: [٢٢٣٥٩]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ)

(٢) برقم: [٣٧٤٥]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٣٦/٢) برقم: [٦٦٩٩]، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: هَلْ يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ بَعِيرٌ أَجْرًا، وَهَلْ يُعِينُهُ [ص:٧٢] أَوْ يَنْصَحُهُ) (٧٢/٣)

في سِلْسَلَةِ الرَّسَائِلِ الزَّوْجِيَّةِ يَتَوَاصَلُ حَدِيثُنَا، كُنْتُ قَدْ تَحَدَّثْتُ فِي
الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي عَنْ ثَلَاثِ رَسَائِلَ: أَحْسِنِ الْاِخْتِيَارَ، وَاسْتَشِرْ، وَعَلَيْكَ
بِالاسْتِخَارَةِ.

وَحَدِيثُنَا فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ يَتَنَاوَلُ رَسَالَتَيْنِ:

الأولى: لَا تَتَخَلَّ عَنْ قَوَامَتِكَ.

الثانية: وَفِّ بَعْدَكَ، وَوَعْدِكَ، وَأَمَانَتِكَ.

أَمَّا الرَّسَالَةُ الْأُولَى: فَيَا عَبْدِ اللَّهِ، لَا تَتَخَلَّ عَنْ قَوَامَتِكَ،

حِينَمَا نُوْجِهَ هَذِهِ الرَّسَائِلَ فَإِنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ إِحْسَانَ الرَّجُلِ إِلَى زَوْجَتِهِ
هُوَ مَعْيَارٌ مِنْ مَعَايِيرِ الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي وَضَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ حِينَمَا قَالَ كَمَا جَاءَ
عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ: «خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» (١).

قَدْ تَمَسُّ هَذِهِ الرَّسَائِلُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَمْثَلَةٍ وَاقَعَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ،
فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: جَزَمًا أَنَا الْمَقْصُودُ فَتَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَيُرُدُّهَا.

بَعْضُ النَّاسِ عِنْدَهُ فَرَطٌ فِي الْحَسَاسِيَّةِ، فَإِذَا سَمِعَ خَطِيبًا، أَوْ وَاغِظًا،
أَوْ مُتَكَلِّمًا، أَوْ قَرَأَ مَقَالًا فِي جَرِيدَةٍ؛ ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ، فَيُرُدُّ النَّصِيحَةَ،
وَيُرُدُّ هَذِهِ الرَّسَالَةَ، وَلِكِنِّي أُرِيحُهُ أَقُولُ: نَعَمْ، أَنْتَ الْمَقْصُودُ، كُلُّ مَنْ

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: حُسْنُ مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ) (٦٣٦/١) برقم: [١٩٧٧]، وأخرجه الترمذي في «سننه»
(باب: فِي فَضْلِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (٧٠٩/٥) برقم: [٣٨٩٥]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ»
(٩٧١/٢) برقم: [٣٢٥٢]، وَاللَّفْظُ لِابْنِ مَاجَةَ.

حَضَرَ لِهَذِهِ الْخُطْبَةِ فِي هَذَا الْجَامِعِ فَهُوَ الْمَقْصُودُ .

فَحِينَمَا كَتَبْتُ هَذِهِ السَّلْسِلَةَ، وَهَذِهِ الْخُطْبَ، قَصَدْتُ بِهَا نَفْسِي
وَإِخْوَانِي، لَعَلَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُنْقِذَنَا، وَيُصْلِحَ أحوَالَنَا بِمِثْلِ هَذِهِ الرَّسَالَةِ .

أَقُولُ: لَا تَتَخَلَّ عَنْ قَوَامَتِكَ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ مِنْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَنْتَ
الْقِيَمَ، فَلَا تَتَخَلَّ عَنْ هَذِهِ الْقَوَامَةِ، فَإِذَا تَخَلَّى الرَّجُلُ عَنْ قَوَامَتِهِ؛ ضَاعَ
الْبَيْتُ، وَصَارَ هَذَا الْمَرْكَبُ إِلَى الْإِتِّجَاهِ الْخَاطِئِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ:

﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا
أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

«قَوَّامُونَ» جَمْعُ «قَوَّامٍ»، أَيُّ: الْمُبَالِغَةُ فِي الْقِيَامِ، يَعْنِي هُوَ الَّذِي
يَتَعَبُ بِسَبَبِ طُولِ الْقِيَامِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْعَى بِسَبَبِ طُولِ الْقِيَامِ، وَهُوَ
الَّذِي يَجْتَهِدُ بِسَبَبِ أَنَّهُ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى أَهْلِهِ .

وَالْمَرْأَةُ يَنْبَغِي أَنْ تَفْرَحَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا تَعْتَرِضَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ
الْآيَةَ تَقُولُ لِلْمَرْأَةِ: الرَّاحَةُ وَالسَّكَنُ لَكَ، وَالتَّعَبُ وَالنَّصَبُ لِلرَّجُلِ؛ لِأَنَّهُ
هُوَ الْقَوَّامُ .

عباد الله ... لِمَاذَا صَارَتِ الْقَوَّامَةُ عِنْدَ الرَّجُلِ؟

لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ، وَالْمَرْأَةُ فَرْعٌ عَنْهُ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وَهُوَ الْقَائِلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾

[الزمر: ٦].

فَالْمَرْأَةُ فَرْعٌ مِنَ الرَّجُلِ، أَي: خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ
 الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ
 الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ
 تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»^(١).

فَالْمَرْأَةُ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، فَهِيَ لَهُ فَرْعٌ، وَهُوَ لَهَا أَصْلٌ،
 فَصَارَتْ الْقَوَامَةُ لَهُ.

وَنَبِينًا ﷺ جَعَلَ الْمَسْئُولِيَّةَ التَّامَّةَ عَلَى الرَّجُلِ، فَقَالَ ﷺ: «وَالرَّجُلُ
 فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٢).

يَعْنِي: هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةُ لَيْسَتْ مَسْئُولِيَّةَ تَشْرِيفٍ وَفَخْرٍ وَاعْتِرَارٍ
 وَاعْتِدَادٍ بِالنَّفْسِ يَنْظُرُ فِيهَا الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ عَلَى سَبِيلِ الْاِحْتِقَارِ، لَا، بَلْ
 هَذِهِ مَسْئُولِيَّةٌ سَيَسْأَلُ عَنْهَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

جَلَسَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بِشَابٍّ رَأَوْا مِنْهُ
 جَلْدًا، وَنَشَاطًا، وَسَعِيًّا، فَقَالَ الصَّحَابَةُ: لَيْتَهُ كَانَ فِي سَبِيلِ اللهِ (يَعْنِي لَيْتَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: خَلَقَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَدُرِّيَّتِهِ) (١٣٣/٤) برقم: [٣٣٣١]،
 وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ) (١٠٩١/٢) برقم: [١٤٦٨]، واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الْعَبْدُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ) (١٥٠/٣) برقم: [٢٥٥٨]، وأخرجه
 مسلم في «صحيحه» (باب: فَضِيلَةُ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةُ الْجَائِرِ، وَالْحَثُّ عَلَى الرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالنَّهْيُ عَنْ إِدْخَالِ
 الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ) (١٤٥٩/٣) برقم: [١٨٢٩]، واللفظ للبخاري.

هَذَا النَّشَاطُ وَالْجَدُّ وَالسَّعْيُ لَيْتَهُ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبِيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعْمَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١).

إِنَّكَ لَتَسْتَعْرِبُ أَنْ تَرَى بَعْضَ الرِّجَالِ قَدْ تَرَكُوا هَذِهِ الْقَوَامَةَ لِلْمَرْأَةِ: فَالْمَرْأَةُ (أَي: الزَّوْجَةُ) هِيَ الَّتِي تَقِفُ فِي طَوَائِرِ دَفْعِ فَوَاتِيرِ الْكَهْرَبَاءِ، وَالرَّجُلُ إِمَّا فِي الْبَيْتِ، أَوْ عَلَى الْمَقْهَى.

وَالْمَرْأَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَقْبِلُ النَّجَارَ يُصْلِحُ شَيْئًا دَاخِلَ الْبَيْتِ، وَالرَّجُلُ يُتَابِعُ مُبَارَاةً.

وَالْمَرْأَةُ هِيَ الَّتِي تُرْتَبُ مَوَاعِيدَ الْعِيَادَةِ لِلْأَوْلَادِ، وَالرَّجُلُ فِي شَأْنِهِ.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَقْبِلُ الزَّرَّاعَ فِي الْبَيْتِ تَقِفُ عِنْدَهُ تَقُولُ: ازْرَعْ لَنَا كَذَا وَكَذَا.

وَالْمَرْأَةُ هِيَ الَّتِي تَذْهَبُ تُسَجِّلُ السِّيَّارَةَ، وَتُؤَمِّنُ عَلَى السِّيَّارَةِ، وَتُصْلِحُ السِّيَّارَةَ.

غَرِيبٌ! أَيْنَ الرَّجُلُ وَالْقَوَامَةُ فِي يَدِكَ؟

هَلْ تَعْلَمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ السُّوْيَةَ السَّلِيمَةَ الْفِطْرَةَ لَا تَسْعَدُ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٤٨/٢) برقم: [٩٤٠]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠١/١) برقم: [١٤٣٧]، واللفظ للطبراني.

أَبَدًا إِلَّا إِذَا رَأَتْ مِنْ زَوْجِهَا حَقِيقَةَ الْقَوَامَةِ، حَتَّى أَنْ بَعْضَ النِّسَاءِ رُبَّمَا كَذَبْنَ وَادَّعَيْنَ وَسَطَ النِّسَاءِ أَنْ زَوْجَهَا قِيمٌ فِي الْبَيْتِ، وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَفْرَحُ بِذَلِكَ، لَا يُفْرِحُ الْمَرْأَةُ إِلَّا إِذَا رَأَتْ مِنَ الرَّجُلِ الْقَوَامَةَ، وَهَذَا مَوْضُوعٌ طَوِيلٌ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنبِئَ عَلَى مَا يَلِي:

حِينَمَا تَكُونُ الْقَوَامَةُ بِيَدِكَ لَا يَغْنِي أَنْ يَتَحَوَّلَ الرَّجُلُ إِلَى ظَالِمٍ، فَيَحْتَقِرَ الْمَرْأَةَ، يَتَحَوَّلَ إِلَى ظَالِمٍ فَيَظْلِمُ الْمَرْأَةَ بِضَرْبِهَا، أَوْ أَخْذِ مَالِهَا، وَكَمْ يَتَأَلَّمُ أَحَدُنَا وَهُوَ يَرَى الرَّجُلَ يَتَسَلَّطُ عَلَى الْمَرْأَةِ بِالضَّرْبِ.

إِنَّ مِنْ رِقَّةِ الدِّينِ، وَذَهَابِ الْمَرْوَةِ: أَنْ يَسْتَغْلِلَ الرَّجُلُ هَذِهِ الْقَوَامَةَ فَيَأْخُذُ مِنْ مَالِ زَوْجَتِهِ ظُلْمًا، يَأْخُذُ الرَّاتِبَ كُلَّهُ؛ إِمَّا بِالْقُوَّةِ، وَإِمَّا بِالْحِيلَةِ، أَوْ يَأْخُذُ مِيرَاثَهَا، أَوْ رُبَّمَا أَخَذَ ذَهَبَهَا.

وَهَذَا أَقُولُ لَهُ: يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ،

فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

إِذَا، رِسَالَتِي لَكَ: لَا تَتَخَلَّ عَنْ قَوَامَتِكَ، كُنْ أَنْتَ السَّيِّدُ وَالْقِيَمُ، وَلَكِنْ

تَذَكَّرْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحْرِجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةَ»^(٢).

وَالرَّسَالَةُ الثَّانِيَّةُ: أَوْفِ بِعَهْدِكَ، وَوَعْدِكَ، وَأَمَانَتِكَ:

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: وَعِيدِ مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٌ بِالنَّارِ) (١٢٢/١) برقم: [١٣٧].

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٦/١٥) برقم: [٩٦٦٦]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: حَقُّ الْيَتِيمِ) (٢١٣/٢) برقم: [٣٦٧٨]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٨٠/١) برقم: [٢٤٤٣]، واللفظ لأحمد.

أَذْكُرُكَ أَيُّهَا الزَّوْجُ، وَأَذْكُرُكَ أَيُّهَا الْمُقْبِلُ عَلَى الزَّوْاجِ، أَذْكُرُكَ بِأَمْرِ رَبِّمَا أَنْكَ نَسِيَّتَهُ، دَعْنِي أَذْكُرُكَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي قُلْتَهَا يَوْمَ عَقَدْتَ عَلَى زَوْجَتِكَ قَائِلًا: قَبِلْتُ الزَّوْاجَ وَالنِّكَاحَ مِنْ ابْنَتِكَ فَلِأَنَّهُ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ، إِنَّكَ عَاهَدْتَ اللَّهَ ﷻ، ثُمَّ عَاهَدْتَ وَلِيِّ الْمَرْأَةِ، ثُمَّ الْمَرْأَةَ بِحُضُورِ الشُّهُودِ فِي وَسَطِ ذِكْرِ فِيهِ اللَّهُ، وَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

تَذَكَّرُ أَنَّكَ قُلْتَ: وَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ، لَا تَتَخَلَّ عَنِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي قَطَعْتَهُ عَلَى نَفْسِكَ، هَذَا الْمَوْثِقُ الْغَلِيظُ إِنْ رَأَيْتَ مَا تَكْرَهُ؛ كُنْ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ: «إِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمَهَا».

إِنْ صَارَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِالنِّسْبَةِ لَكَ حَبِيبَةً وَجَدْتَ مِنْكَ مَا يَسُرُّ بِهِ الْخَاطِرُ، وَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهَا مَا تَكْرَهُ؛ لَا تُوَقِّعْ عَلَيْهَا ظُلْمًا، اللَّهُ ﷻ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٨].

كُنْ رَاعِيًا عَلَى هَذِهِ الْأَمَانَةِ، وَعَلَى هَذَا الْعَهْدِ، دَائِمًا اسْتَحْضِرْ أَنَّكَ

قُلْتَ: وَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ.

أَخْتِمُ لَكُمْ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَبْدِ بَنِ الصَّامِتِ عِنْدَ أَحْمَدَ يَقُولُ ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، اضْمَنُوا لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أُؤْتِمْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ» (١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٧/٣٧) برقم: [٢٢٧٥٦]، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: الصَّدَقِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، ذَكَرَ الْبَيَانَ بِأَنَّ الصَّدَقَ سَبَبٌ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ) (٥٠٦/١) برقم: [٢٧١]، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢٣٤/١) برقم: [١٠١٣]، وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ.

٧

ترفق قبل أن تُطلق

عباد الله ...

مَا مِنْ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا إِلَّا وَيَحْدُثُ فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَالِدِ، وَالْوَالِدِ وَالْوَالِدِ، بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجِهِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا، فَلَا تَخْلُو الْبُيُوتُ مِنْ هَذِهِ الْخِلَافَاتِ، وَلَا تَخْلُو الْبُيُوتُ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ، فَمَنْ أَرَادَ بَيْتًا مِثَالِيًّا لَا خِلَافَ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الْمُسْتَحِيلَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْخِلَافَاتِ حَدَثَتْ فِي أَزْكَى الْبُيُوتِ وَأَشْرَفِهَا.

انظُرْ إِلَى الْبَيْتِ الْأَوَّلِ: بَيْتُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدُبُّ الْخِلَافُ فِيهِ بَيْنَ الْأَخِ وَأَخِيهِ، فَإِذَا بِهِذَا الْأَخِ وَهُوَ قَابِيلُ يَقْتُلُ هَابِيلَ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

وَهَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَيْتِهِ يَحْدُثُ الْخِلَافُ، وَهُوَ بَيْتُ نَبِيِّ مُرْسَلٍ يَحْدُثُ فِيهِ الْخِلَافُ، فَهَا هُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

وَهَذَا نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَأَشْرَفُهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَحْصُلُ الْخِلَافُ فِي بَيْتِهِ، وَمِنْ صُورِ هَذَا الْخِلَافِ، وَالْخِلَافُ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْصُلُ، فَإِذَا بِنِسَائِهِ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ يُطَالِبْنَهُ بِزِيَادَةِ فِي النِّفَقَةِ

وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ، فَيَهْجُرُهُنَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ آيَاتٍ تَتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرِّحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:

. [٢٩-٢٨]

وَمَا مِنْ خِلَافٍ إِلَّا وَلَهُ حُلُولٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِلْحَلِّ الْأَنْسَبِ، وَيَبْقَى الْحَلُّ الْأَخِيرُ وَالْحَلُّ الْأَنْكِيُّ هُوَ الطَّلَاقُ، جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ حَلًّا إِذَا عَدِمَتِ الْحُلُولُ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الزَّوْجَانِ أَنْ يَسِيرَا بِهِمَا السَّفِينَةَ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مَخْرَجًا وَهُوَ الطَّلَاقُ، فَتَأْتِي هَذِهِ الرَّسَالَةُ ضَمَّنَ خُطْبَانَا فِي رَسَائِلِنَا الزَّوْجِيَّةِ بِعنوان: "تَرْفَقْ قَبْلَ أَنْ تُطَلِّقَ".

عبدالله : إِذَا لَمْ تَجِدْ حَلًّا لِلْخِلَافِ الَّذِي دَبَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَهْلِكَ، وَابْتَيْتَ إِلَّا أَنْ تُطَلِّقَ فَتَرْفَقْ قَبْلَ أَنْ تُطَلِّقَ هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي لَكَ، وَجَعَلْتُهَا عَلَيَّ هَيْئَةً رَسَائِلَ.

الرَّسَالَةُ الْأُولَى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

[النساء: ١٩]، يَحْصُلُ فِي نَفُوسِنَا كَرَاهِيَةٌ لِبَعْضِ الزَّوَايَا فِي زَوْجَاتِنَا، فَمَنْ أَرَادَ زَوْجَةً مَعْصُومَةً مِثَالِيَّةً فَلَنْ يَجِدَ، فَمَا مِنْ امْرَأَةٍ إِلَّا وَفِيهَا شَيْءٌ يَكْرَهُهُ الزَّوْجُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَاهَا، حَادَّةٌ فِي طِبَاعِهَا، أَوْ قُلْ مِثْلَ ذَلِكَ.

قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وَالْمَعْرُوفُ غَيْرُ الْوِدَادِ، الْوِدَادُ هُوَ الْحُبُّ الْمُتَبَادُلُ، أَمَّا الْمَعْرُوفُ: فَهُوَ الْإِحْسَانُ وَإِنْ كَانَ لَا يُحِبُّ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، قَدْ يَصْبِرُ الزَّوْجُ عَلَى خُلُقٍ حَادٍ وَطَبَعَ سَيِّئٍ فِي زَوْجَتِهِ، فَإِذَا سَأَلْتَهُ لِمَاذَا تَصْبِرُ؟ قَالَ: أَنْتَظِرُ الْأَجْرَ ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

لِذَا قَالَ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرُهُ»^(١)، إِذَا رَكَزْتَ عَلَى هَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَالطَّبَاعِ الرَّدِيئَةِ فِي زَوْجَتِكَ؛ فَلَا تَنْسَ أَنَّ لَهَا مَحَاسِنَ، إِنْ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينَا هَذَا الْأَدَبَ الرَّفِيعَ «لَا يَفْرَكُ»، أَي: لَا يُبْغِضُ بُغْضًا مُطْلَقًا «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

إِذَا الرَّسَالَةُ الْأُولَى: اصْبِرْ عَلَى مَا تَكْرَهُ، فَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَكَ فِي ذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا، تُرْزَقُ مِنْهَا بِالْأَوْلَادِ الْبَرَّةِ، تُعْفُ نَفْسَكَ عَنِ الْحَرَامِ، يَأْتِيكَ مِنَ الْأَجُورِ وَالْحَسَنَاتِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي تَكْرَهُهُ فِيهَا، مُجَرَّدُ اصْبِرْ وَاحْتَسِبِ الْأَجْرَ.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ] [١٠٩١/٢] برقم: [١٤٦٩].

الرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ: تَعَرَّفَ عَلَى طِبَاعِ الْمَرْأَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الرَّجُلَ وَجَبَلَهُ عَلَى طِبَاعٍ، وَخَلَقَ الْمَرْأَةَ وَجَبَلَهَا عَلَى طِبَاعٍ .

تَقُولُ أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ تَقُولُ: مَرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي نِسْوَةٍ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، وَقَالَ: «إِيَّاكُنَّ وَكُفَرَ الْمُنْعَمِينَ» قَالَتْ: وَمَا كُفَرَ الْمُنْعَمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " لَعَلَّ إِحْدَاكُنَّ يَطُولُ أَيَّمَتُهَا أَوْ تَعْنُسُ عَنْ أَبْوَيْهَا، ثُمَّ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهَا زَوْجًا ثُمَّ يَرْزُقُهَا مِنْهُ وَلَدًا فَتَغْضَبُ الْغَضْبَةَ فَتَكْفُرُ بِهَا فَتَقُولُ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»^(١)، أَيَّمَتُهَا يَعْنِي مَا تَزَوَّجَتْ أَوْ طَلَّقَتْ وَأَنْتَظَرْتِ،

هَذِهِ طَبِيعَةٌ فِي الْمَرْأَةِ تُحْسِنُ إِلَيْهَا السَّنَةَ تَلُو السَّنَةَ عَشْرَ سِنِينَ، عَشْرِينَ سَنَةً فِي طَبِيعَتِهَا إِذَا غَضِبَتْ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ. وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: «وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»^(٢)، تَبْدُلُ لَهَا مَالَكَ، تَبْدُلُ لَهَا مَاءَ عَيْنِكَ، فَتَقُولُ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ، لَا تَغْضَبْ، لَا تَسْتَعْرِبْ، الْحَدِيثُ يَقُولُ لَكَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! هَذَا هُوَ خُلُقُ الْمَرْأَةِ، فَتَكَيْفَ مَعَ هَذَا الْخُلُقِ.

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٤٢/٤٥) برقم: [٢٧٥٦١]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٦٤/٢٤) برقم: [٤١٨]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٦٦/٢) برقم: [٨٢٣].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٤٢/٤٥) برقم: [٢٧٥٦١]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٦٤/٢٤) برقم: [٤١٨]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٦٦/٢) برقم: [٨٢٣].

لَذَا يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسْرَتُهُ، وَإِنْ تَرَكَتُهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» (١)، تَعَرَّفَ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لَا تَسْتَعْرِبُ إِذَا وَجَدْتَ فِي أَهْلِكَ هَذِهِ الطَّبَاعَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا عَلَى هَذِهِ الطَّبِيعَةِ.

الرَّسَالَةُ الثَّلَاثَةُ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَلِّقَ فَلَا تَلْعَبُ بِالطَّلَاقِ، إِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةِ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِلَفْظَةِ الطَّلَاقِ، يُجَادِلُ أَحَدُ إِخْوَانِهِ فَيَقُولُ: عَلَيَّ الطَّلَاقُ أَنْ هَذَا الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا، يَخْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَيَقُولُ: امْرَأَتِي طَالِقٌ مِنِّي بِالثَّلَاثِ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا حَقًّا، يَضَعُ عَلَى رَقَبَةِ زَوْجَتِهِ سَيْفَ الطَّلَاقِ فَيَقُولُ لَهَا: إِنْ خَرَجْتَ مِنَ الْبَيْتِ أَنْتِ طَالِقٌ، وَإِنْ جِئْتُ فَوَجَدْتُكَ فِي الْبَيْتِ أَنْتِ طَالِقٌ، وَإِنْ دَخَلَ أَحَدُ إِخْوَانِكَ فِي الْبَيْتِ فَأَنْتِ طَالِقٌ، إِنْ خَرَجْتَ الْخَادِمَةُ مِنَ الْبَيْتِ فَأَنْتِ طَالِقٌ، إِنْ اشْتَرَيْتِ كَذَا فَأَنْتِ طَالِقٌ؛ هَذَا لَعِبٌ بِكِتَابِ اللَّهِ .

يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ لُبَيْدٍ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ النَّسَائِيِّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "غَايَةِ الْمَرَامِ" يَقُولُ: أَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الْوَصَاةُ بِالنِّسَاءِ] (٢٦/٧) برقم: [٥١٨٥]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ] (١٠٩١/٢) برقم: [١٤٦٨].

ترفق قبل أن تطلق

جَمِيعًا فَقَامَ ﷺ غَضَبَانَا فَقَالَ: «أَيْلَعَبُ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ» (١).

الرِّسَالَةُ الرَّابِعَةُ: خُذْ بِالْخَطَوَاتِ الَّتِي أَعْطَاكَ اللَّهُ إِيَّاهَا قَبْلَ أَنْ تُطَلَّقَ،

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي

الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا كَبِيرًا* وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ

أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا*﴾ [النساء:

٣٤-٣٥]، هَذِهِ خَطَوَاتٌ مُتَدَرِّجَةٌ مِنْ أَجْلِ أَنْ نُوَخِّرَ إِيقَاعَ الطَّلَاقِ.

الرِّسَالَةُ الْخَامِسَةُ: إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ فَلْيَجْعَلْهَا طَلْقَةً وَاحِدَةً،

يَقُولُ لَهُ الْقَاضِي: يَا بُنَيَّ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَلَّقَ، فَطَلِّقْ طَلْقَةً وَاحِدَةً لَعَلَّكَ

تَرُدُّهَا، تَشْتَاقُ إِلَى أَوْلَادِكَ، يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرٌ، يَا بُنَيَّ اجْعَلْهَا طَلْقَةً

وَاحِدَةً، فَيَقُولُ: لَا لَا، أُطَلِّقُهَا بِالثَّلَاثِ.

الرِّسَالَةُ السَّادِسَةُ: إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ طَلَاقًا رَاجِعِيًّا فَلَا يُخْرِجُهَا

مِنْ بَيْتِهَا حَتَّى تَكْمَلَ الْعِدَّةَ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ

فَطَلَّقْتُمُوهُنَّ لِأَعْدَتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ

بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]، فَمَا تَخْرُجُ

الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِهَا بَلْ تَظْهَرُ بِزِينَتِهَا أَمَامَ طَلِيقِهَا فِي الْبَيْتِ، تَلْبَسُ أَمَامَهُ وَتَخْرُجُ

(١) أخرجه النسائي في "سننه" باب: [الثلاث المَجْمُوعَةُ وَمَا فِيهِ مِنَ التَّغْلِيظِ] (١٤٢/٦) برقم: [٣٤٠١]، وضعفه الألباني

في "مشكاة المصابيح" (٩٨٠/٢) برقم: [٣٢٩٢].

بِزَيْنَتِهَا أَمَامَ طَلِيقِهَا فِي الْبَيْتِ إِذَا كَانَ الطَّلَاقُ رَجْعِيًّا لَعَلَّه أَنْ يَرَا جِعَهَا.

قَالَ اللَّهُ ﷻ بَعْدَهَا بِآيَاتٍ: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

[الطلاق: ١]، لَعَلَّهُ يُرْجِعُهَا عَلَيَّ ذِمَّتِهِ.

الرِّسَالَةُ السَّابِعَةُ: إِذَا وَقَعَ الطَّلَاقُ وَبَانَ الْمَرْأَةُ وَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا؛
فَإِنْ أَخْلَقَ الْمُسْلِمُ تَدْعُوهُ إِلَى أَلَّا يَذْكَرَ طَلِيقَتَهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، إِذَا طَلَّقَتْ فَلَا
تَذْكَرُ طَلِيقَتَكَ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَاللَّهُ ﷻ يَقُولُ عَنِ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّاقَةِ الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ
بِهَا زَوْجُهَا: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

إِذَا هَذِهِ رِسَالَةٌ أَوْ جَزُئُهَا لَكَ إِجَازًا شَدِيدًا، تَرَفَّقْ قَبْلَ أَنْ تُطَلِّقَ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٨

وقفات مع حديث السبعة

عباد الله ...

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ يَجِدُ أَنَّهَا مَعَ قَلَّةِ الْكَلِمَاتِ الْوَارِدَةِ فِيهَا وَقَصْرِ الْمَبْنَى لَهَا، إِلَّا أَنَّهَا تَحْمِلُ فِي طَيِّبَاتِهَا الْمَعَانِيَ الْكَثِيرَةَ، وَإِنَّا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْخُطَبِ الْمَتَّبَعَةِ سَنَسْلُطُ الضُّوءَ عَلَى أَحَدِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، حَدِيثٌ مَشْهُورٌ تَدَاوَلَهُ الْأَلْسُنُ وَيَطْرُقُ الْأَسْمَاعَ كَثِيرًا نُفِرْدُ لَهُ هَذِهِ الْخُطَبَ سَائِلِينَ الْمَوْلَى ﷺ لَنَا وَلَكُمْ السَّدَادَ وَالرَّشَادَ.

الْحَدِيثُ هُوَ حَدِيثُ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَنْعَمُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ فِي ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، يَحْتَاجُ إِلَى وَقَفَاتٍ وَتَأَمُّلَاتٍ، وَإِنِّي أَقْدِمُ لِهَذَا الْحَدِيثِ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ بِمُقَدِّمَةٍ، وَبَيْنَ يَدَيْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ أُسْرِدُ هَذَا الْحَدِيثَ الْعَظِيمَ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وَسَنَجْعَلُ كُلَّ شَطْرٍ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ فِي خُطْبَةٍ مُفْصَّلَةٍ، وَسَنَبْدَأُ فِي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [فَضْلُ مَنْ تَرَكَ الْفَوَاحِشَ] (١٦٣/٨) برقم: [٦٨٠٦]، وأخرجه

مسلم في "صحيحه" باب: [فَضْلُ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ] (٧١٥/٢) برقم: [١٠٣١].

خُطْبَةُ الْأُسْبُوعِ الْقَادِمِ الْحَدِيثَ عَنِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ .
وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ فَهَذِهِ بَعْضُ الْوَقَفَاتِ الْيَسِيرَةِ الْمُخْتَصِرَةِ بَيْنَ
يَدَيِ الْحَدِيثِ :-

الأولى: إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَجِدُ أَنَّهُ اسْتَوْعَبَ جَمِيعَ شَرَائِحِ
الْمُجْتَمَعِ، وَجَمِيعَ أَطْرَافِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْمَسْئُولِ وَمَنْ فِي حُكْمِهِ، إِلَى
الْعَابِدِ الزَّاهِدِ فِي الْمَسْجِدِ، إِلَى الشَّابِّ الَّذِي يَتَعَرَّضُ إِلَى الْفِتَنِ، إِلَى تِلْكَ
الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى فِي الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، إِلَى الْجُودِ وَالْكَرَمِ، إِلَى الذِّكْرِ
وَالْتَسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ، جَمَعَ هَذَا الْحَدِيثُ أَطْرَافَ الْمُجْتَمَعِ، وَلَمْ
يَتْرُكْ طَرَفًا إِلَّا وَتَنَاوَلَهُ .

الثاني: إِنَّ النَّاطِرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعَةَ وَغَيْرَهُمْ
مَا نَالُوا هَذِهِ الْمَكَانَةَ إِلَّا حِينَمَا اسْتَشَعَرُوا رِقَابَةَ اللَّهِ، وَأَقَامُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا
الْمَقَامَ الرَّفِيعَ يُرَاوِحُونَ بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، فَأَعْطَاهُمُ الْمَوْلَى بِعَمَلِهِمْ
هَذِهِ الْمَكَانَةَ الْعَظِيمَةَ .

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: يَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعَةَ بَيْنَهُمْ قَاسِمٌ
مُشْتَرِكٌ: وَهُوَ مُخَالَفَةُ الْهَوَى، فَحِينَمَا خَالَفُوا أَهْوَاءَهُمْ وَمَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ
أَنْفُسُهُمْ؛ نَالُوا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ .

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي كِتَابِهِ "رَوْضَةُ الْمُحِبِّينَ": إِذَا تَأَمَّلْتَ

السَّبْعَةَ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ تَجِدُهُمْ أَنَّهُمْ نَالُوا ذَلِكَ بِمُخَالَفَةِ الْهَوَى.

إِنَّ الْمُتَأَمَّلَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: يَجِدُ أَنَّ قَاعِدَةَ الْجَزَاءِ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ مُتَحَقِّقَةٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَهَؤُلَاءِ السَّبْعَةُ حِينَمَا خَافُوا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا؛ أَمَّنَّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْفِرْعَ الْأَكْبَرِ.

جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنِينَ، إِذَا أَمَّنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

هَلْ نَحْتَاجُ إِلَى الظِّلِّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، هَلْ هَؤُلَاءِ الْمَحْشُورُونَ عَلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ يَحْتَاجُونَ إِلَى الظِّلِّ؟ إِذَا كُنَّا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَبْحَثُ عَنْ الظِّلِّ لِأَنْفُسِنَا، فَكَيْفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! حِينَمَا تَدْنُو الشَّمْسُ، لَيْسَتْ إِضَاءَةٌ حَارَّةً، شَمْسٌ تَدْنُو مِنْ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، تَقْتَرِبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَحْشُورِينَ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُذِنَتْ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ» (٢)، يَقُولُ سُلَيْمٌ أَحَدُ رُوَاةِ الْحَدِيثِ: لَا أَذْرِي أَيَّ

(١) أخرجه ابن المبارك في "الزهدي" (٥٠/١) برقم: [١٥٧]، وأخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٢٧٠/١)، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٩٨/٢) برقم: [٤٣٢٨].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٣٥/٣٩) برقم: [٢٣٨١٣]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الْقَدْرِ الَّذِي تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] (٣٢٥/١٦) برقم: [٧٣٣٠]، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" (٣٤٨/١٠) برقم: [٧٢٨٦].

الميلين يعني أمسافة الأرض أم الميل الذي تكحل به العين، يقول صلى الله عليه وسلم:
«فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم».

تصهرهم الشمس ينصهرون ويبدأ العرق يتصبب، فيذهب هذا العرق في الأرض فتشبع الأرض، فيبدأ منسوب هذا العرق يرتفع، قال صلى الله عليه وسلم:
«فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه إلى عقبه ومنهم من يأخذه إلى ركبته ومنهم من يأخذه إلى حقويه ومنهم من يلجمه إجمًا»^(١)، إذا الأمة تحتاج إلى الظل، ولكن هذا الظل لا تدخل فيه الواسطات في الدنيا، ولا يمكن أن يشتري ويباع، وإنما هي الأعمال الصالحة.

هؤلاء السبعة يتنعمون في هذا الظل، والناس هناك محشورون يعرفون في العرق، وهؤلاء في مامن وظل وأي ظل! إنه ظل العرش. عباد الله لقد جاءت أحاديث كثيرة غير هذا الحديث تبين أن هناك أعمالاً أخرى غير الأعمال المذكورة في حديث السبعة لها فضل الاستظلال بظل العرش منها ما جاء عند الترمذي من حديث أبي هريرة يقول صلى الله عليه وسلم:
«من أنظر معسراً، أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٣٥/٣٩) برقم: [٢٣٨١٣]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذكر القدر الذي تدنو الشمس من الناس يوم القيامة] (٣٢٥/١٦) برقم: [٧٣٣٠]، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" (٣٤٨/١٠) برقم: [٧٢٨٦].

لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» (١)

يَقُولُ: أَخْرَنِي إِلَى الشَّهْرِ الْقَادِمِ، هُوَ لَيْسَ بِمَمَاطِلٍ وَلَا يَلْعَبُ عَلَيْكَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ أَمْوَالَكَ، مَا عِنْدَهُ مَا يَدْفَعُ لَكَ قَالَ: أَخْرَنِي إِلَى الشَّهْرِ الْقَادِمِ «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ لَهُ، أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» (٢)، هَذَا يُضَافُ إِلَى السَّبْعَةِ.

وَالَّذِينَ أَقَامُوا عِلَاقَاتِهِمْ بِالْآخِرِينَ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ: جَاءَ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ» (٣)، بَلِ الْمُنْفِقُونَ كُلَّمَا كَانَتْ نَفَقَاتُهُمْ وَصَدَقَاتُهُمْ أَكْثَرَ؛ عَظُمَ ظِلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِذَا يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يَفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» (٤).

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ وَالرَّفْقِ بِهِ] (٥٩١/٣) برقم: [١٣٠٦]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢٧٠/١) برقم: [٨٧٩]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٥٣١/١٣) برقم: [١٠٧٣٥]، وأخرجه مسلم مختصراً في صحيحه "باب: حَدِيثُ جَابِرِ الطَّوِيلِ وَقِصَّةِ أَبِي الْيَسْرِ" (٢٣٠١/٤) برقم: [٣٠٠٦]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٨٧٧/٢) برقم: [٢٩٠٣].

(٢) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ وَالرَّفْقِ بِهِ] (٥٩١/٣) برقم: [١٣٠٦]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢٧٠/١) برقم: [٨٧٩]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٥٣١/١٣) برقم: [١٠٧٣٥]، وأخرجه مسلم مختصراً في صحيحه "باب: حَدِيثُ جَابِرِ الطَّوِيلِ وَقِصَّةِ أَبِي الْيَسْرِ" (٢٣٠١/٤) برقم: [٣٠٠٦]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٨٧٧/٢) برقم: [٢٩٠٣].

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٩٩/٣٦) برقم: [٢٢٠٨٠]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨١/٢٠) برقم: [١٥٤]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٩٦/٢) برقم: [٤٣١٨].

(٤) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٦٨/٢٨) برقم: [١٧٣٣٢]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ إِطْفَاءِ الصَّدَقَةِ غَضَبِ الرَّبِّ جَلًّا وَعَلَا] (١٠٤/٨) برقم: [٣٣١٠]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٨٠/١٧) برقم: [٧٧١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٨٣٠/٢) برقم: [٤٥٠٥].

وَإِنَّ مِنَ الْوَقَفَاتِ الَّتِي تَبَعْتُ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي مَطْلَعِ هَذَا الْحَدِيثِ:
 ذَاكَ التَّسَاوُلَ الَّذِي يَقُولُ: وَهَلْ يَسَعُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ هُوَ لَاءِ حَتَّىٰ يَكُونُوا
 فِي ظِلِّهِ؟ أَقُولُ: أَنْتَ عَنِ مَاذَا تَتَكَلَّمُ! عَنِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ
 بِيَدِهِ، عَنِ هَذَا الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرَكَ حَجْمُهُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ
 فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ كَمَا عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ
رضي الله عنه: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ
 مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعَ مِائَةِ عَامٍ»^(١)، أَي: يُعْطِينَا وَصْفًا
 يَسِيرًا عَنْ مَلَكٍ وَاحِدٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ
 مَسِيرَةٌ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ فَكَيْفَ بَقِيَّةَ هَذَا الْمَخْلُوقِ فَكَيْفَ بِالَّذِي يَحْمِلُهُ!
 فَعَرْشُ الرَّحْمَنِ عَظِيمٌ.

وَآخِرُ هَذِهِ الْوَقَفَاتِ: يَقُولُ رضي الله عنه: «سَبْعَةٌ»، وَالسَّبْعَةُ هَذِهِ قَدْ كَثُرَ
 إِيرَادُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ رضي الله عنه، فَالسَّمَاوَاتُ سَبْعٌ، وَالْأَرْضِينَ
 سَبْعٌ، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ سَبْعٌ، وَبَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعٌ، وَتَرْمِي الْجِمَارَ
 بِسَبْعِ جِمَرَاتٍ، وَ «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ»^(٢)،
 يَعْنِي بِالصَّلَاةِ، وَالْمُسْلِمُ فِي صَلَاتِهِ يَسْجُدُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ «أُمِرْتُ أَنْ

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في الْجَهْمِيَّةِ] (٢٣٢/٤) برقم: [٤٧٢٧]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٥٩٦/٣) برقم: [٥٧٢٨].

(٢) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [مَتَى يُؤْمَرُ الْغُلَامُ بِالصَّلَاةِ] (١٣٣/١) برقم: [٤٩٥]، وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٨١/١) برقم: [٥٧٢].

أَسْجُدَ عَلَيَّ سَبْعَةَ أَعْظَمٍ»^(١)، وَالْغُلَامُ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيْقَتِهِ تُذْبِحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ
وَيُسَمَّى فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، شَأْنُ السَّبْعَةِ
عَظِيمٌ.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ: جَاءَ عَثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ إِلَى النَّبِيِّ
ﷺ، قَالَ: جِئْتُ أَشْكُو وَجَعًا فِي جَسَدِي، قَالَ ﷺ: «اجْعَلْ يَدَكَ الْيَمْنَى
عَلَيْهِ، وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، وَأُحَازِرُ، سَبْعَ
مَرَّاتٍ، فَقُلْتُ ذَلِكَ، فَشَفَانِي اللَّهُ»^(٢).

وَجَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَعُوذُ مَرِيضًا لَمْ يَخْضُرْ أَجْلُهُ، فَيَقُولُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ
اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ، إِلَّا عُوْفِي»^(٣).

هَذِهِ مُقَدِّمَةٌ يَسِيرَةٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ الَّذِي سَنَشْرَعُ - بِإِذْنِ الْمَوْلَى
ﷺ - فِي بَيَانِ مَا احْتَوَاهُ مِنَ الدَّرَرِ وَالْمَوَاقِفِ فِي خُطْبِنَا الْقَادِمَةِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [لَا يَكْفُفُ شَعْرًا] (١٦٣/١) برقم: [٨١٥]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [أَعْضَاءُ السُّجُودِ، وَالنَّهْيُ عَنْ كَفِّ الشَّعْرِ وَالتُّوْبِ وَعَقْصِ الرَّأْسِ فِي الصَّلَاةِ] (٣٥٤/١) برقم: [٤٩٠].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (١٩٦/٢٦) برقم: [١٦٢٦٨]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [مَا عَوَّذَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا عَوَّذَ بِهِ] (١١٦٣/٢) برقم: [٣٥٢٢]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [كَيْفَ الرُّقَى] (١١/٤) برقم: [٣٨٩١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٠٣/١) برقم: [٨١٧].

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٠/٤) برقم: [٢١٣٧]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [الدُّعَاءُ لِلْمَرِيضِ عِنْدَ الْعِيَادَةِ] (١٨٧/٣) برقم: [٣١٠٦]، وأخرجه الترمذي في "سننه" (٤١٠/٤) برقم: [٢٠٨٣]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٤٨٩/١) برقم: [١٥٥٣].

٩

شرح حديث السبحة
الإمام العادل

عباد الله ...

شَرَعْنَا فِي بَيَانِ بَعْضِ التَّائِمَاتِ فِي حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وَبَيْنَا مُقَدِّمَاتٍ بَيْنَ يَدَيْ الْحَدِيثِ.

وَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ فِي الصَّنْفِ الْأَوَّلِ الَّذِي يَحْظَى بِهِذَا الظِّلِّ حَسَبِ تَرْتِيبِ الْحَدِيثِ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، حَدِيثُنَا عَنِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِذَا الظِّلِّ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ هُنَاكَ ارْتِبَاطًا بَيْنَ الْإِمَامِ وَالرَّعِيَّةِ فَإِنْ صَلَحَ الْإِمَامُ؛ صَلَحَتِ الرَّعِيَّةُ، إِنْ عَدَلَ وَاسْتَقَامَ الْإِمَامُ؛ عَدَلَتْ وَاسْتَقَامَتِ الرَّعِيَّةُ، وَإِنْ مَالَ وَجَارَ الْإِمَامُ؛ مَالَتْ وَجَارَتِ الرَّعِيَّةُ، هَكَذَا قَرَّرَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ.

فَانظُرْ إِلَى اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَهُوَ يُخَاطِبُ هَارُونَ الرَّشِيدَ مَاذَا يَقُولُ؟ يَقُولُ: مِنْ رَأْسِ الْعَيْنِ يَأْتِي الْكَدْرُ، فَإِنْ صَفَتِ الْعَيْنُ صَفَتِ السَّوَاقِي، إِنْ كَانَتِ الْعَيْنُ مُلَوَّنَةً يعلوها الكدر؛ تلوئت السواقي وتكدرت، فإن نقت العين و صفت؛ نقت السواقي و صفت، هذا تقرير مبسوط في كتاب الله، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِمَامِ؛ فَإِنَّا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَلَا يَكُونُ عَادِلًا إِلَّا إِذَا اتَّبَعَ أَمْرَ اللَّهِ، وَوَضَعَ الْأُمُورَ فِي نِصَابِهَا مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، يَقُولُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي "الْفَتْحِ": وَالْعَادِلُ الَّذِي يَتَّبِعُ أَمْرَ اللَّهِ، وَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، حَتَّى

يَكُونُ عَادِلًا؛ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ مُتَّبِعًا، وَحِينَمَا تَحَدَّثُ عَنِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، فَأَوَّلُ مَا يُخَاطَبُ بِهِ الْحُكَّامُ وَالسَّلَاطِينُ وَالْأَمْرَاءُ وَالْمُلُوكُ، وَيَلْتَحِقُ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ.

يَقُولُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَالْمُرَادُ بِهِ صَاحِبُ الْوِلَايَةِ الْعُظْمَى، وَيَلْتَحِقُ بِهِ كُلُّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَعَدَلَ فِيهَا.

السَّبِيلُ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ: أَنْ تَكُونَ عَادِلًا، سَوَاءً كُنْتَ حَاكِمًا أَوْ مَحْكُومًا، رَئِيسًا فِي دَائِرَةٍ، رَاعِيًا فِي بَيْتِكَ، تَحْتِكَ رَعِيَّةٌ، وَالسَّبِيلُ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ عَادِلًا عَدْلًا فِي أَحْكَامِكَ وَأَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ:-

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الْإِنْتِصَارُ عَلَى الْهَوَى، لِأَنَّ الْهَوَى وَإِتِّبَاعَ الْهَوَى هُوَ الْعَدُوُّ الْأَوَّلُ لِلْعَدْلِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَادِلًا وَهُوَ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ، وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، فِي أَيِّ مَكَانٍ، فِي أَيِّ مَوْقِعٍ أَنْتَ فِيهِ، حَتَّىٰ وَإِنْ كُنْتَ رَاعِيًا عَلَىٰ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ عَادِلًا عَدْلًا؛ فَانْتَصِرْ عَلَىٰ هَوَىٰ نَفْسِكَ، وَلَا تَكُنْ تَابِعًا

لَهُوَ أَكْ، فَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ انْتَصَرَ عَلَى الْهَوَى وَالنَّفْسِ؛ كَانَ أَقْرَبَ لِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ، هَذَا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَادِلًا عَدْلًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ؛ فَلْيَحَقِّقِ التَّقْوَى فِي نَفْسِهِ، فَمَنْ كَانَ لِلَّهِ تَقِيًّا؛ كَانَ أَقْرَبَ لِتَحْقِيقِ التَّقْوَى، قَدْ تَكُونُ عَادِلًا وَلَكِنْ لَا تَكُونُ عَدْلًا، إِذْ لَا يَكُونُ عَدْلًا إِلَّا مَنْ كَانَ تَقِيًّا.

قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وَالْأَمْرُ الثَّلَاثُ: بَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ عَلَى نَفْسِي وَأَنْ أَجْعَلَ هَوَايَ تَابِعًا لِمَا جَاءَ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بَعْدَ أَنْ أَحَقَّقَ التَّقْوَى، أَتَطَّلَعُ إِلَىٰ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُقْسِطِينَ الْعَادِلِينَ، فَإِنَّ هَذَا يُحْفَظُ النَّفْسَ لِلْعَدْلِ، وَاللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا ذَكَرَ الْفَضْلَ الْمُتَرْتَّبَ عَلَى الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ؛ ذَكَرَهُ لِتَحْفَظَ هَذِهِ النُّفُوسُ وَيُحْفَظَ هَذِهِ النُّفُوسَ، يَقُولُ الْحَقُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، فَاللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَعَلَ لَكَ هَذَا الْفَضْلَ لِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّكَ.

وَلَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ يُقَرِّبُكَ إِلَيْهِ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ

حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»^(١)، إِذَا وَجَدَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ الْعَالِيَةَ وَقَدْ تَطَلَّعَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهَا؛ كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْعَدْلِ، وَلِيَتَذَكَّرَ مَنْ خَالَفَ هَذَا الْأَمْرَ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: «صِنْفَانِ مِنَ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُمَا شَفَاعَتِي: إِمَامٌ ظُلْمٌ، وَكُلُّ غَالٍ مَارِقٍ»^(٢)، إِذَا تَذَكَّرَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ؛ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَتَشَجَّعُ إِلَى الْعَدْلِ.

عبد الله ... إِنَّكَ تَعْجَبُ مِمَّنْ يَنْتَقِدُ السُّلْطَانَ فِي جَوْرِهِ وَمِئِلِهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى جَوْرِ نَفْسِهِ وَمِئِلِهِ، لَا يَعْدِلُ بَيْنَ أَبْنَائِهِ، لَا يَعْدِلُ بَيْنَ مَرءٍ وَسِيبِهِ وَهُمْ أَقْلُ رَعِيَّةٍ مِنْ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ .

شَيْئَانِ يُمَيِّزَانِ الْإِمَامَ الْعَادِلَ، مَيِّزَتَانِ رَيْسِيَّتَانِ فِي الْإِمَامِ الْعَادِلِ:-
الأولى: أَنَّهُ لَا يَكُونُ عَادِلًا حَتَّىٰ يُعْلِيَّ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَأَهْلِهَا،

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فَضِيلَةُ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةُ الْجَائِرِ، وَالْحَتُّ عَلَى الرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالنُّهْيُ عَنْ إِدْحَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ] (١٤٥٨/٣) برقم: [١٨٢٧].

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٨١/٨) برقم: [٨٠٧٩]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٠٨/٢) برقم: [٣٧٩٧].

وَيَقْمَعُ الشُّرْكَ وَأَهْلَهُ، لَيْسَ عَدْلًا أَنْ يُحَارِبَ التَّوْحِيدَ وَأَهْلَهُ، وَأَنْ يُعَظَّمَ الشُّرْكَ وَأَهْلَهُ هَذَا لَيْسَ عَدْلًا، الْعَدْلُ هُوَ إِقَامَةُ التَّوْحِيدِ، وَإِعْزَازُ أَهْلِهِ وَرَفْعَتُهُمْ، وَقَمْعُ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ.

اسْمَعُوا هَاتَيْنِ الْمُقُولَتَيْنِ الْعَجِيبَتَيْنِ لِإِمَامٍ عَادِلٍ إِذَا ذُكِرَ الْعَدْلُ؛ ذُكِرَ وَهُوَ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: «لَوْلَا سُنَّةُ أُخِيهَا أَوْ بَدْعَةٌ أُمِّيَّتْهَا لَمْ أَبَالِ أَلَّا أُبْقَى فِي الدُّنْيَا فَوَاقًا». وَالْفَوَاقُ هُوَ الزَّمَنُ الْيَسِيرُ مَا بَيْنَ الْحَلَبَةِ وَالْأُخْرَى، هَذَا الَّذِي حَبَّبَهُ فِي الْبَقَاءِ.

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «فَلَوْ كَانَ كُلُّ بَدْعَةٍ يُمِيتُهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ، وَكُلُّ سُنَّةٍ يُنْعِشُهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ بِيَضْعَةٍ مِنْ لَحْمِي حَتَّى يَأْتِيَ آخِرُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِي كَانَ فِي اللَّهِ يَسِيرًا». لَوْ قُطِعَ لَحْمُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي سَبِيلِ إِحْيَاءِ السُّنَّةِ وَإِمَاتَةِ الْبَدْعَةِ حَتَّى يَأْتِيَ آخِرُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ؛ كَانَ فِي اللَّهِ يَسِيرًا، هَذَا هُوَ الْعَدْلُ، هَذَا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُمَيِّزُ الْإِمَامَ الْعَادِلَ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي - وَأَخْتِمُ بِهِ - وَمِمَّا يُمَيِّزُ الْأَئِمَّةَ الْعُدُولَ: أَنَّهُمْ لَا يَحْتَجِبُونَ مِنَ الرَّعِيَّةِ، لَا يَضَعُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَعِيَّتِهِمْ الْمَتَارِيسَ وَالْحَوَاجِزَ، فَبَعْضُ مُدْرَائِ الْمَكَاتِبِ أَشَدُّ مِنْ الْمَتَارِيسِ وَالْحَوَاجِزِ، وَمَنْ وَضَعَ هَذِهِ الْمَتَارِيسَ وَالْحَوَاجِزَ فِي وُجُوهِ الْمُحْتَاجِينَ؛ أَغْلَقَ اللَّهُ دُونَهُ بَابَ السَّمَاءِ، فَإِذَا احْتَجَّ فُلَانٌ يَجِدُ بَابًا يُفْتَحُ لَهُ.

قَالَ نَبِيْنَا ﷺ فِي حَدِيثِ عَمْرٍو بْنِ مُرَّةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي سُنَنِهِ:
 « مَا مِنْ إِمَامٍ أَوْ وَاٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ، وَالْمَسْكَنَةِ،
 إِلَّا أَغْلَقَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، دُونَ حَاجَتِهِ، وَخَلَّتِهِ، وَمَسْكَنَتِهِ » (١)، هُوَ
 سَيِّئَاتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ يَحْتَاجُ إِلَى اللهِ، سَيَجِدُ الْأَبْوَابَ مَوْصَدَةً، وَسَيَجِدُ ذَاتَ
 الْمَتَارِيسِ بَلْ أَشَدَّ فِي وَجْهِهِ، فَهَذَا مَا يُمَيِّزُ الْإِمَامَ الْعَادِلَ، يُحْيِي السُّنَّةَ،
 يُمِيتُ الْبِدْعَةَ وَلَا يَحْتَجِبُ مِنْ رَعِيَّتِهِ.

وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ: أَنَّنَا
 مُخَاطَبُونَ جَمِيعًا بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ، فَبَعْضُ ثِقَافَتِنَا الْخَاطِئَةُ تَقُولُ: إِذَا
 سَمِعْتَ الْخَطِيبَ يَتَكَلَّمُ فِي مَوْضُوعٍ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَقْصِدُكَ وَيَقْصِدُ
 غَيْرَكَ، وَالْوَاقِعُ: أَنَّنِي أَقْصِدُ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ.

فَإِذَا سَمِعْتَ مَوْعِظَةً، تَوَجَّهْهَا، تَنْبِيْهَا؛ فَاعْلَمْ أَنَّكَ أَنْتَ الْمُخَاطَبُ بِهَا
 حَتَّى تَرْتَفِعَ وَتَنْتَهِيَ، فَكُلُّنَا مَسْئُورٌ إِذَا مَالَ وَجَارَ، فِي أَيِّ مَكَانٍ يَشْغَلُهُ،
 عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِّيِّ يَقُولُ ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ
 يَسْتَرِعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ
 الْجَنَّةَ »، هَذَا لِي وَلَكَ، لَا يَنْصَرِفُ ذِهْنُكَ حِينَ تَسْمَعُ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَى
 شَخْصٍ غَيْرِكَ، ضَعِ أَنْتَ نَفْسَكَ فِي وَاجِهَةِ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَنْتَ مُخَاطَبٌ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٦٥/٢٩) برقم: [١٨٠٣٣]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي إِمَامِ الرَّعِيَّةِ]

[٦١١/٣] برقم: [١٣٣٢]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٩٩٢/٢) برقم: [٥٦٨٥].

بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَنَا كَذَلِكَ.

«مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرِعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١) بَلْ يَقُولُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ عَشْرَةَ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا، لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ»^(٢)، إِذَا الْأَمْرُ عَظِيمٌ، وَهَذَا الْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَلَكِنَّا اتَّفَقْنَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْوَقَفَاتُ تَأْمَلَاتٍ فِي «حَدِيثِ السَّبْعَةِ».

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [اِسْتِحْقَاقِ الْوَالِيِ الْغَاشِّ لِرَعِيَّتِهِ النَّارَ] [١٣٥/١] برقم: [١٤٢].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٥٢/١٥) برقم: [٩٥٧٣]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢١٦/٦) برقم:

[٦٢٣٥]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٩٩٣/٢) برقم: [٥٦٩١].

١٠

شرح حديث السبحة
أن يحب المرء لأحبه إلا لله



عباد الله ...

حدثنا في هذه الخطبة عن الرَّجُلَيْنِ الَّذَيْنِ تَحَابَّآ فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، هَذِهِ الْعِبَادَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُهَا إِلَّا النُّفُوسُ الْقَوِيَّةُ الْأَبِيَّةُ أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، فِي زَمَنِ طَغَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ الْمَادِيَّةُ، حَتَّى أَصْبَحَتْ الْعَلَاقَاتُ مَبْنِيَّةً عَلَى الْمَصَالِحِ، مَاذَا عِنْدَكَ حَتَّى أُحِبَّكَ؟ مَا هُوَ عَمَلُكَ، مَنْصِبُكَ، جَاهُكَ، مَاذَا تَمْلِكُ مِنَ الصَّلَاحِيَّاتِ حَتَّى أُقْرِبَكَ إِلَى قَلْبِي؟

فَإِذَا عُدِمَتْ هَذِهِ الصَّلَاحِيَّاتُ وَالْأَمْوَالُ وَالْجَاهُ وَالْمَنَاصِبُ؛ فَأَنْتَ لَسْتَ لِي بِحَبِيبٍ، لَمَّا طَغَتْ الْحَيَاةُ الْمَادِيَّةُ عَلَى النَّاسِ كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ، وَمَعَ الْأَسْفِ الشَّدِيدِ لَا بُدَّ أَنْ نَقُولَهَا صَرِيحَةً: هَذِهِ هِيَ السِّمَّةُ الْغَالِبَةُ الْيَوْمَ عَلَى حَالِ النَّاسِ، أَنَّ عِلَاقَتَهُمْ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمَصَالِحِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

لِذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ الْعَظِيمَةُ: أَنْ يَحْظِيَ الْمُحِبُّ لِأَخِيهِ حُبًّا فِي اللَّهِ بِهِذِهِ الْمَرْتَبَةِ أَنْ يَكُونَ فِي ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، عِبَادَةٌ لَيْسَتْ بِالسَّهْلَةِ حَتَّى يَتَصَوَّرَ الْبَعْضُ أَنَّهُ قَدْ أَقَامَهَا حَقَّ الْقِيَامِ، لِذَا سَنَسْمَعُ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَسَائِلَ رُبَّمَا يَحْتَقِرُّ أَحَدُنَا نَفْسَهُ وَهُوَ يَسْمَعُ ذَلِكَ.

جاء في حديث البراء بن عازب، قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «أي عرى الإسلام أوثق؟»، قالوا: الصلاة، قال: «حسنة، وما هي بها؟» قالوا: الزكاة، قال: «حسنة، وما هي بها؟» قالوا: صيام رمضان. قال: «حسن، وما هو به؟» قالوا: الحج، قال: «حسن، وما هو به؟» قالوا: الجهاد، قال: «حسن، وما هو به؟» قال: «إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله»^(١)، العروة الحلقة والإسلام عبارة عن حلقات أخذ بعضها بحجز بعض يشكلون هذه السلسلة الضخمة، أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وهذه هي المنة العظيمة التي امتنّها الله ﷻ على النبي ﷺ وأصحابه، فقال: ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

إنها عبادة تسري في هذه الأجساد مسرى الروح، فإن الأجساد لا قيمة لها بغير هذه الروح، لذا قال ﷺ في حديث عائشة عند البخاري: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٢)، إن الحب في الله يثمر ثمرات على أرض الواقع، ويثمر

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٨٨/٣٠) برقم: [١٨٥٢٤]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣٧٦) برقم: [٢٥٣٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٩٧/١) برقم: [٢٥٣٣].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الأرواح جنود مجنّدة] (١٣٣/٤) برقم: [٣٣٣٦]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الأرواح جنود مجنّدة] (٢٠٣١/٤) برقم: [٢٦٣٨].

شرح حديث السبحة أن يحب المرء لايحبه إلا لله

١٠٣

ثَمَرَاتٍ فِي الْآخِرَةِ، إِنَّ مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ؛ أَحَبَّهُ اللَّهُ، إِنَّهَا ثَمَرَةٌ عَظِيمَةٌ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ حَدِيثِ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ يَقُولُ: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ»، لَا لِمَصَالِحٍ أُخْرَى؛ لِأَنَّكَ فِي الْمَنْصِبِ الْفُلَانِيَّ فَنَحْنُ نُحِبُّكَ، فَإِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ هَذَا الْمَنْصِبِ فَلَا نَصْلُكَ وَلَا نُحِبُّكَ وَلَا نَزُورُكَ، هَذَا وَقَعَ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَمِيلُونَ مَعَ هَذَا الْمُؤَشِّرِ أَيْنَ مَالٍ، وَالْمُؤَشِّرُ مَعَ الْأَسْفِ الشَّدِيدِ هُوَ هَذَا الْمَالُ وَالْمَصَالِحُ.

لِذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»، وَقَالَ ﷺ: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(١)، هَذِهِ ثَمَرَةٌ فِي الدُّنْيَا مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَثَمَرَةٌ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ.

عباد الله إن من ثمار الحب في الله أن يجد الإنسان طعم الإيمان، الإيمان له طعم، الإيمان له حلاوة، هل تلذذت بالإيمان؟ هل وجدت طعم الإيمان يوماً؟

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبِّ الْمَرْءَ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٩٩/٣٦) برقم: [٢٢٠٨٠]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨١/٢٠) برقم: [١٥٤]،

وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٩٦/٢) برقم: [٤٣١٨].

شرح حديث السبعة أن يحب المرء لايحبه إلا لله



١٠٤

لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (١) ، فَقَطُ، مَا يَأْتِي بَعْدَ سَنَةٍ أَوْ سَتَيْنِ وَيَقُولُ:
لَيْتَنِي مَا أَحْبَبْتُ فَلَانًا، أَعْطَيْتُهُ وَفَعَلْتُ لَهُ لَكِنِّي كُنْتُ أَبْذُلُ ذَلِكَ فِي أَرْضِ
سَبِيحَةٍ، نَقُولُ: تَعَالَى، أَنْتَ كُنْتَ تُعْطِي وَتَبْذُلُ لِلَّهِ أَوْ لِلْمُقَابِلِ، إِذَا كَانَ لِلَّهِ
يَبْقَى؛ لِذَا قَالَ: « وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » (٢).

وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ مِعْيَارُ التَّفَاضُلِ عِنْدَ اللَّهِ، جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ عِنْدَ
ابْنِ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
إِلَّا كَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ » (٣)، كَمَا قِيلَ:

النَّاسُ شَتَّى إِذَا مَا أَنْتَ ذُقْتَهُمْ لَا يَسْتَوُونَ كَمَا لَا يَسْتَوِي الشَّجَرُ
هَذَا لَهُ ثَمْرٌ حُلُوٌّ مَذَاقُهُ وَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ طَعْمٌ وَلَا ثَمْرٌ
بَعْضُ النَّاسِ هَكَذَا كَالشَّجَرِ لَا يَسْتَوُونَ، هَذَا لَهُ ثَمْرٌ حُلُوٌّ مَذَاقُهُ
وَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ طَعْمٌ وَلَا ثَمْرٌ، يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَأْنِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ العَظِيمَةِ: «إِنَّ
مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ، قِيلَ: مَنْ هُمْ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٣١/١٦) برقم: [١٠٧٣٨]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٣٢٦/١١) برقم: [٨٦٠٢]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٧٨/٢) برقم: [٦٢٨٧].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ مِنْ
الإِيمَانِ] (١٣/١) برقم: [٢١]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بَيَانَ خِصَالٍ مَنِ اتَّصَفَ بِهِنَّ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ]
(٦٦/١) برقم: [٤٣].

(٣) أخرجه البزار في "مسنده" (٢٩٠/١٣) برقم: [٦٨٦٩]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ مَنْ
كَانَ أَحَبَّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ أَفْضَلَ] (٣٢٥/٢) برقم: [٥٦٦]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٩٢/٣) برقم:
[٢٨٩٩]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٩٧٩/٢) برقم: [٥٥٨٩].

لَعَنَّا نَحِبُهُمْ؟، قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا انْتِسَابٍ،
وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا
يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] «(١)» ،

عباد الله ... تَأَمَّلُوا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي عَلَيْهَا نُورُ الرَّسَالَةِ
يَقُولُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ أَرَى الْأَخَ مِنْ
إِخْوَانِي فَأَسْأَلُ اللَّهَ لَهُ الْجَنَّةَ وَأَبْخُلُ عَلَيْهِ بِالدُّنْيَا "، كَلَامٌ رَائِعٌ، يَسْأَلُنِي شَيْئًا
مِنَ الدُّنْيَا أَبْخُلُ عَلَيْهِ بِهِ وَأَسْأَلُ لَهُ الْجَنَّةَ، قَالَ: " فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيلَ
لِي: لَوْ كَانَتْ الْجَنَّةُ بِيَدِكَ لَكُنْتَ بِهَا أَبْخَلَ وَأَبْخَلَ وَأَبْخَلَ "، نَحْنُ نَدْعُو
اللَّهَ بِالْجَنَّةِ لِإِخْوَانِنَا لِأَنَّهَا لَا نَمْلِكُهَا، وَلَوْ مَلَكْنَاهَا لَبَخَلْنَا بِهَا عَلَيْهِمْ لِأَنَّهَا
قَدْ بَخَلْنَا عَلَيْهِمْ بِمَا هُوَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ.

يَقُولُ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْعَالِمُ النَّحْرِيُّ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: " لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا
جُمِعَتْ حَتَّى تَكُونَ فِي مِقْدَارِ لُقْمَةٍ فَأَخَذَهَا امْرُؤٌ مُسْلِمٌ فَوَضَعَهَا فِي فَمِ
أَخِيهِ؛ لَمَا كَانَ مُسْرِفًا "، هَذَا فِي الْبَدْلِ وَالْعَطَاءِ لِلْإِخْوَانِ، يَقُولُ عُمَرُ
الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " ثَلَاثٌ يُصَفِّينَ لَكَ وَدَّ أَخِيكَ: أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِ إِذَا لَقَيْتَهُ
أَوَّلًا، وَأَنْ تُوَسَّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ ".

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في الرهن] (٢٨٨/٣) برقم: [٣٥٢٧]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى"
(١٢٤/١٠) برقم: [١١١٧٢]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [] (٣٣٢/٢) برقم: [٥٧٣]، وصححه الألباني في
"التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" (٥٤/٢) برقم: [٥٧٢].

نعم يا عباد الله إن من تصفية القلوب للإخوان: أن توسع لهم في المجلس لا أن تزاحمهم عليه، فكيف بالذي يزاحم إخوانه على الدنيا، بل يفترى على إخوانه من أجل الدنيا، بل يضع المتاريس ويحفر الخنادق في وجه إخوانه من أجل الدنيا.

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: " والله، إني لأدعو لسبعين من إخواني في سُجودي أسميهم بأسمائهم"، انظر الإخاء، سبعين أخاً من إخوانه يدعو لهم في السجود يسميهم بأسمائهم اللهم أعط فلاناً كذا وأعط فلاناً كذا وفلاناً كذا يدعو لهذا بالمغفرة، ويدعو لهذا بالولد الصالح، ويدعو لهذا بصلاح ذريته، ويدعو لهذا أن يجد له زوجة، يسميهم بأسمائهم لأنه قد بلغه حديث النبي صلى الله عليه وسلم حديث أم كرز الكعبية التي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «إن دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب، عند رأسه ملك يؤمن على دعائه، كلما دعا له بخير، قال: آمين، ولك بمثل» (١).

أختم هذه الكلمات بحدث لأحد علماء السلف يقول: "أنه قضى حاجة كبيرة لإخوانه فجاءه هذا الأخ بهديّة فقال: ما هذا؟ قال: هذا في مقابل المعروف الذي أسديته إليّ، قال: خذ مالك عافاك الله -اسمع الرسالة- إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوصاً

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٤٠/٤٥) برقم: [٢٧٥٥٩]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [فضل دعاء الحاج]

(٩٦٦/٢) برقم: [٢٨٩٥]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٦٣٧/١) برقم: [٣٣٧٧].

شرح حديث السبحة أن يحب المرء لايحبه إلا الله



لِلصَّلَاةِ وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا وَعُدَّهُ فِي الْمَوْتَى "، هَذَا لَا يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ لَكَ
أَخًا إِذَا لَمْ يَجْتَهِدْ فِي قَضَاءِ حَاجَتِكَ الَّتِي سَأَلْتَ.

والحمد لله رب العالمين

١١

شرح حديث السبحة
وَرَجُلٌ كَفَعَتْهُ امْرَأَةٌ

عباد الله...

يَتَوَاصَلُ حَدِيثُنَا فِي شَرْحِ حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ إِلَى الرَّجُلِ الْعَفِيفِ الَّذِي عَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ، عَنِ الْخَنَا وَالْفُجُورِ، وَاسْتَحْضَرَ رِقَابَةَ الْمَوْلَى سُبْحَانَ اللَّهِ، فَتَحَرَّكَ الْوَاعِظُ فِي نَفْسِهِ مِمَّا حَدَاهُ أَنْ يَعِظَ غَيْرَهُ فَقَالَ لِمَنْ دَعَاهُ لِلْحَرَامِ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، رِسَالَةٌ لِكُلِّ مَنْ تَحَرَّكَتْ فِي نَفْسِهِ الشَّهْوَةُ وَتَعَرَّضَ لِلْفِتْنَةِ أَنْ يَقُولَ فِي نَفْسِهِ وَيُسْمِعَ مَنْ دَعَاهُ إِلَى الْفَاحِشَةِ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، إِنَّهُ الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ خَوْفُ الطَّاهِرِينَ خَوْفُ الْعَفِيفِينَ .

وَ حَدِيثِي فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ ، أَذْكَرُ فِيهِ صُورًا مُشْرِقَةً لِمَنْ تَعَرَّضُوا لِلْفِتْنَةِ وَوَقَعَتْ الْفِتْنَةُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَفِي طَرِيقِهِمْ، فَإِذَا بِهِمْ يُعْلِنُونَهَا أَنَّهُمْ يَخَافُونَ اللَّهَ، نَمَازِجُ مُشْرِقَةٌ فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ تُظْهِرُ لَنَا تِلْكَ الصَّفْحَةَ الْبَيْضَاءَ وَالْوُجُوهَ الْبَيْضَاءَ فِي تَارِيخِ أُمَّتِنَا؛ لِنُرْسِلَ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ رِسَالَةً: أَنَّ الطُّهْرَ وَالْعَفَافَ مُمَكِّنٌ، وَأَنَّ هُنَاكَ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِمْ فَاسَلُكَ سَبِيلَهُمْ، فَاللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ يَقُولُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وَلِنُرْسِلَ رِسَالَةً ثَالِثَةً: أَنَّ إِشَاعَةَ أَخْبَارِ الصَّالِحِينَ مَطْلُوبَةٌ فِي الْمُجْتَمَعِ عَلَى خِلَافِ إِشَاعَةِ أَخْبَارِ الْمُفْسِدِينَ الْفَاسِقِينَ، فَإِنَّهَا تَلَوُّثُ الْأَسْمَاعِ، وَتُمْرِضُ الْقُلُوبَ، فَحَرِيٌّ بِالْوَعَاظِ وَالْخُطَبَاءِ بَيْنَ فِتْرَةٍ وَأُخْرَى

أَنْ يُذَكِّرُوا بِهِ الصُّورَ الْمَشْرِقَةَ؛ لِتَحْفَظَ النُّفُوسَ وَتَحَمَّسَ، وَنَجْعَلَ لِلآخِرِينَ قُدُوتٍ فِي الْمُجْتَمَعِ، خُذُوا هَذِهِ الصُّورَ الْمَشْرِقَةَ: -

يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَلَاثُ بَثَلَاثٍ، عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ يُودَّبُ الْبَطَّالِينَ، السَّرِيُّ ابْنُ دِينَارٍ يَحْدُو عَلَى طَرِيقِ الْعِقَّةِ، صَاحِبُ الْقَيْدِ عَفَافٌ بِامْتِيَازٍ، الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ وَعَظُّ الْعَفَافِ، أَبُو بَكْرٍ الْمَسْكِينِي الطَّاهِرُ الْعَفِيفُ، هَذِهِ سِتُّ عَنَاوِينَ أَذْكَرُ أَحْبَارَهُمْ بِإِيجَازٍ.

أَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ وَمَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيَذْكَرُ مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، إِذْ يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي فُتِنَتْ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي ﴾، مَاذَا فَعَلْتَ وَمَاذَا فَعَلَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَعَ عَنْهَا كُلَّ الْأَلْقَابِ، الْجَاهِ، الْمُلْكَ، السُّلْطَانَ، الْأَمْوَالَ، الْجَمَالَ، الْحَسَبَ، النَّسَبَ، تَنَازَلَتْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ حِينَمَا صَيَّرَتْ نَفْسَهَا أَسِيرَةً لِشَهْوَتِهَا، فَسَمَّاها «الَّتِي»، سَلَبَ عَنْهَا كُلَّ ذَلِكَ فِي مُقَابِلِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ الْمُفْرِطَةِ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي ﴾، دُونَ أَنْ يُذْكَرَ أَيُّ شَيْءٍ مِنْ أَلْقَابِهَا ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٢٣]، هَذَا وَاحِدٌ.

﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: ٢٣]، فَبَرَزَتِ الْعِقَّةُ،

اسْمَعُوا فَإِنَّا نَعِيشُ فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ، قَابَلَ الثَّلَاثَ بَثَلَاثٍ ﴿ قَالَ مَعَاذَ

اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٢٣]،

أَيُّ: لَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ، امْرَأَةٌ مَفْتُونَةٌ وَأَبْوَابٌ مَغْلَقَةٌ وَأَجْسَادٌ مُطَّرَحَةٌ، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، أَلَجَأٌ وَأَحْتَمِي بِاللَّهِ ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، هَذَا الْعَزِيزُ الَّذِي قَالَ: أَكْرَمِي مَثْوَاهُ، أَقَابِلُ إِحْسَانَهُ بِإِحْسَانٍ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وَعَظْنَا وَوَعَطَ نَفْسَهُ، هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْرَزَ الْعَفَافُ، وَسُورَةُ يُوسُفَ حَرِيٌّ بِكُلِّ رَجُلٍ وَلَا أَقُولُ: بِكُلِّ شَابٍّ؛ لِأَنَّنا ابْتَلَيْنَا بِكِبَارِ سِنٍّ جَاءَتْهُمْ هَذِهِ الْمَرَاهِقَةُ الْمُتَأَخَّرَةُ حَتَّى خَرَجُوا عَنْ دَائِرَةِ الْمُرُوءَةِ وَالْعَقْلِ، وَجَرَوْا وَرَاءَ تِلْكَ الْفِتَنِ.

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: صُورَةُ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، ذَاكَ الْعَابِدُ الزَّاهِدُ الشَّابُّ الْوَرَعُ الَّذِي اتَّخَذَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَكَانًا لَهُ يُجَاوِرُ فِيهِ، قِصَّتُهُ: أَنَّ امْرَأَةً بِمَكَّةَ أُعْطِيَتْ مِنَ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ مَا أُعْطِيَتْ، فَإِذَا بِهَا تَقَفُ يَوْمًا أَمَامَ الْمِرَاةِ، وَبَيْنَ الْمِرَاةِ وَالْمِرَاةِ تَزَاوُجٌ، فَنَظَرَتْ إِلَى وَجْهِهَا الْحَسَنِ وَنَظَرَتْ إِلَى مَفَاتِيحِهَا، فَالْتَفَتَتْ عَلَى زَوْجِهَا فَقَالَتْ لَهُ فِي كِبَرِيَاءٍ وَغُرُورٍ: أَتَظُنُّ أَنْ يَرَى أَحَدٌ هَذَا الْوَجْهَ وَلَا يُفْتَنُّ بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ لَوْ رَأَى مَا افْتِنَّ، قَالَتْ: ائْتِنِّي لِي لِأَفْتِنَهُ، قَالَ: قَدْ أَذِنْتُ لَكَ.

فَخَرَجَتْ لَهُ فِي كَامِلِ زِينَتِهَا وَتَعَنَّجِهَا، فَوَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، قَالَتْ: إِنَّ لِي حَاجَةً فَتَنِّحْنِي بِهَا، فَأَسْفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا فَإِذَا هُوَ

كَفَلَقَةَ الْقَمَرِ، قَالَ: اسْتَرِي يَا أُمَّةَ اللَّهِ! قَالَتْ: إِنِّي قَدْ فُتِنْتُ بِكَ وَشَغِفْتُ بِكَ فَاقْضِ حَاجَتِي، قَالَ: يَا أُمَّةَ اللَّهِ! إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ إِنْ صَدَقْتَنِي نَظَرْتُ فِي أَمْرِكَ، قَالَتْ: اسْأَلْ أَصْدُقَكَ، اسْمَعِ الْوَعْظَ الْآنَ، قَالَ: أَيَسْرُكَ إِذَا أَتَاكَ مَلِكُ الْمَوْتِ؛ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: صَدَقْتِ، قَالَ: أَخْبِرِينِي إِذَا أُدْخِلْتِ فِي قَبْرِكَ وَجَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ أَيَسْرُكَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: إِذَا أُخْرِجْتِ مِنْ قَبْرِكَ وَتَطَايَرَتِ الصُّحُفُ فَلَا تَدْرِينَ تَأْخُذِينَ كِتَابَكَ بِيَمِينِكَ أَمْ بِشِمَالِكَ أَيَسْرُكَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: إِذَا مَرَّ بِكَ عَلَى الصِّرَاطِ فَلَا تَدْرِينَ تَنْجِينَ أَوْ لَا تَنْجِينَ أَيَسْرُكَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: إِذَا وُضِعَتْ الْمَوَازِينُ وَلَا تَدْرِينَ أَيَخِفُّ مِيزَانُكَ أَمْ يَثْقُلُ أَيَسْرُكَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: إِذَا أُوقِفْتَ بَيْنَ يَدَيْ الْجَبَّارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيَسْرُكَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ حَاجَتَكَ؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: فَاتَّقِي اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ.

فَرَجَعَتْ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي خَرَجَتْ بِهِ، دَخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا فَقَالَ: مَاذَا صَنَعْتَ وَمَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ قَالَتْ: أَنْتَ بَطَّالٌ وَنَحْنُ بَطَّالُونَ، فَأَقْبَلْتَ عَلَيَّ عِبَادَةَ رَبِّهَا تَصُومُ فِي النَّهَارِ وَتَقُومُ فِي اللَّيْلِ، وَزَوْجُهَا يُرَدِّدُ: مَا لِي وَلِعَبِيدِ ابْنِ عُمَيْرٍ، لَقَدْ أَفْسَدَ عَلَيَّ زَوْجَتِي، كَأَنْتَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عَرُوسًا فَصَيَّرَهَا

رَاهِبَةً.

هِيَ نَمَازِجٌ مُشْرِقَةٌ، لَا تَظُنُّ أَنَّكَ أَيُّهَا الْعَفِيفُ الطَّاهِرُ شَاذٌ فِي
الْمُجْتَمَعِ لَا، هُنَاكَ قُدُواتٌ سَبَقُوكَ فِي الطُّهْرِ وَالْعَفَافِ.

السُّرِيُّ بْنُ دِينَارٍ يَحْدُو عَلَى طَرِيقِ الْعِفَّةِ، ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ
أَنَّ السُّرِيَّ بْنَ دِينَارٍ هَذَا الشَّابَّ الْعَابِدَ الْوَرَعَ مَرَّ بِطَرِيقٍ فِي دَرْبِ مِصْرَ
وَكَانَتْ هُنَاكَ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ تَفَنَّتْ فِي فِتْنَةِ الرِّجَالِ، فَعَلِمَتْ بِأَنَّ السُّرِيَّ بْنَ
دِينَارٍ يَمُرُّ بِدَرْبِ مِصْرَ فَأَعْتَرَضَتْهُ فَوَعَطَهَا فَرَغَبَتْهُ قَائِلَةً: هَلْ لَكَ بِفَرَاشٍ
وَطِيٍّ وَعَيْشٍ رَخِيٍّ، فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

وَكَمْ ذِي مَعَاصٍ نَالَ مِنْهُنَّ لَذَّةً ومات فخلأها فذاق الدَّوَاهِيَا
تَصَرَّمَ لَذَاتُ الْمَعَاصِي وَتَنْقِضِي وَتَبَقَى تَبَاعَاتُ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَا
فَوَا سَوَاتَا وَاللَّهِ رَاءٍ وَسَامِعٌ لِعَبْدٍ بَعَيْنِ اللَّهِ يَغْشَى الْمَعَاصِيَا
فَوَلَّتْ وَهِيَ تَذْكُرُ اللَّهَ.

فِي الْأُمَّةِ هَكَذَا، كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: مَنْ أَرْضَى الْجَوَارِحَ
بِاللَّذَاتِ؛ فَقَدْ غَرَسَ لِنَفْسِهِ شَجَرَ النَّدَامَاتِ، وَكَمَا قَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ -
رَحِمَهُ اللَّهُ-: مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الشَّهَوَاتِ فُخُوحٌ فَهُوَ لَعَابٌ.

وَهَذِهِ قِصَّةٌ رَابِعَةٌ مُؤَثِّرَةٌ وَلَهَا وَقِعٌ نَعِيشُهُ الْيَوْمَ، إِنَّهَا قِصَّةُ صَاحِبِ
الْقَيْدِ الَّذِي نَالَ مَرْتَبَةَ الْعَفَافِ بِامْتِيَازٍ، صَاحِبِ الْقَيْدِ شَابٌّ مِنْ شَبَابِ

الآنصارِ عاشَ في زمنِ ابْتليَ فيهِ بِامْرَأَةٍ عاشِقَةٍ مُتِيمةٍ مُغرَمَةٍ، وَهِيَ مَعَ هَذَا العِشْقِ مُتَزَوِّجَةٌ، فَأَرْسَلَتْ لِهَذَا الشَّابِّ: إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ حُبِّي وَاشْتِيَاقِي فَأَقْدِمْ عَلَيَّ وَتَزَوَّجْنِي، فَقَالَ لَمَّا قَرَأَ رِسَالَتَهَا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَأَرْسَلَ لَهَا أَيْبَاتًا:

إِنَّ الحَرَامَ سَبِيلٌ لَسْتُ أَسْأَلُكَ
وَلَا أَمْرٌ بِهِ مَا عِشْتُ فِي النَّاسِ
فَابْعِي العَفَافَ فَإِنِّي غَيْرُ مُتَّبِعٍ
مَا تَشْتَهِينَ فَكُونِي مِنْهُ فِي يَاسٍ
إِنِّي سَأَحْفَظُ فِيكُمْ مَنْ يَصُونُكُمْ
فَلَا تَكُونِي أَخَا جَهْلٍ وَوَسْوَاسٍ
فلما قرأتِ الرِّسالةَ أَرْسَلَتْ لَهُ أَيْبَاتٍ:

دَعُ عَنْكَ هَذَا الَّذِي أَصْبَحْتَ تَذْكُرُهُ
وَصِرْ إِلَيَّ حَاجَتِي يَا أَيُّهَا القَاسِي
دَعُ التَّشُّكَّ إِنِّي لَسْتُ نَاسِكَةً
وَلَيْسَ يَدْخُلُ مَا أَبْدَيْتَ فِي رَأْسِي
هِيَ مُصَمِّمَةٌ عَلَيَّ الفَاحِشَةَ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِمَّا أَنْ تَزُورَنِي أَوْ أَزُورَكَ،
هَكَذَا بَعْضُ الشَّبَابِ ابْتَلِي، وَأَنَا عَلَيَّ يَقِينٌ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الشَّبَابِ الآنَ مَنْ
يَقُولُ: نَعَمْ وَاللَّهِ! إِنِّي مُبْتَلَى، تَقُولُ: إِمَّا أَنْ تَزُورَنِي أَوْ أَزُورَكَ، فَأَرْسَلَ
إِلَيْهَا يَعْظُمُهَا وَيَذْكُرُهَا وَيُخَوِّفُهَا بِاللَّهِ مَا خَافَتْ وَلَا اتَّعَظَتْ.

ذَهَبَتْ إِلَى امْرَأَةٍ فِي حَيْثُهَا تَعْمَلُ بِالسَّحْرِ، فَعَمِلَتْ لَهَا رَغَائِبَ وَتَمَائِمَ
تَمِيلُ قَلْبَ هَذَا الشَّابِّ إِلَيْهَا، وَبِالفِعْلِ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ وَهَذَا الشَّابُّ
التَّقِيُّ النَّقِيُّ المُصَلِّي الصَّائِمُ يَجْلِسُ مَعَ وَالِدِهِ فِي البَيْتِ فَإِذَا بِهِ يَضْطَرِبُ

وَالسَّحْرُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، فَيَقُومُ مُسْرِعًا يُصَلِّي يَبْكِي يَقْرَأُ فِي حَالِهِ اضْطِرَابٍ،
وَأَبُوهُ يَقُولُ: مَا لَكَ يَا بُنَيَّ؟ يَقَطْعُ صَلَاتَهُ وَيَقُولُ: يَا أَبِي أَدْرِكْنِي بِقَيْدٍ،
يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ الْفِتْنَةَ، قَالَ: أَخْبِرْنِي بِقِصَّتِكَ، قَالَ: يَا أَبِي أَدْرِكْنِي بِقَيْدٍ،
فَرَبَطَهُ بِقَيْدٍ فَأَحْكَمَ الرِّبَاطَ، قَالَ: إِنَّ قِصَّتِي كَذَا وَكَذَا، ابْتُلَيْتُ بِي فَلَانَةٌ
وَتُرِيدُنِي عَنْ نَفْسِي، وَيَبْدُو أَنَّهَا عَمِلَتْ سِحْرًا أَثَّرَ فِي عَقْلِي وَفِي قَلْبِي،
فَرَبَطَهُ وَالِدُهُ وَأَدْخَلَهُ فِي غُرْفَةٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَبَدَأَ هَذَا الشَّابُّ يَتَلَبَّطُ فِي
مَكَانِهِ وَيَخُورُ كَمَا يَخُورُ الثَّورُ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَإِذَا
بِهَذَا الصَّوْتِ وَهَذِهِ الْحَرَكَةَ تَتَوَقَّفُ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ وَالِدُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ،
عَفَافٌ بِامْتِيَازٍ.

هَكَذَا صُورٌ مُشْرِقَةٌ فِي الْمُجْتَمَعِ يَنْبَغِي أَنْ تُدْرَسَ، وَبَقِيَتْ خَامِسَةٌ
وَسَادِسَةٌ وَعَشْرَاتٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ تَحْتَاجُ أَنْ نُبْرِزَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ
لِتَقْتَدِي هَذِهِ النُّفُوسُ الطَّاهِرَةُ بِهَا وَلَا يَسَعُ الْمَجَالُ لِأَذْكَرِ جَمِيعَ مَا جِئْتُ
رَاغِبًا فِي ذِكْرِهِ فَأَخْتِمُ بِهِذِهِ الْقِصَّةَ:-

أَبُو بَكْرٍ الْمَسْكِيُّ رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ، يَتَاجَرُ وَيَمُرُّ بِالْبُيُوتِ، يَعْزُضُ
بِضَاعَتَهُ فَفُتِنَتْ بِهِ صَاحِبَةُ بَيْتٍ مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتَاتِ، فَقَالَتْ لَهُ: أَدْخِلْ
بِضَاعَتَكَ نَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي سَعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ، فَانْخَدَعَ بِهَذَا الْعَرِضِ فَدَخَلَ
عَلَيْهَا يَعْزُضُ بِضَاعَتَهُ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ دُونَ الْبِضَاعَةِ حَتَّى أَبَدَتْ مَا فِي

رَأْسَهَا قَائِلَةً: إِنِّي قَدْ شُغِفْتُ بِكَ وَأَدْعُوكَ إِلَيَّ مُوَاقِعَتِي، قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ! إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَبَدَأَ يُذَكِّرُهَا بِاللَّهِ وَرَقَابَةَ اللَّهِ، قَالَتْ: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ صَرَخْتُ بِكَ وَفَضَّحْتُكَ، فَاحْتَالَ عَلَيْهَا قَالَ: إِنِّي امْرُؤٌ أَعْمَلُ مُنْذُ الصَّبَاحِ فَأَحْتَاجُ أَنْ أَعْتَسِلَ وَأَتَطَهَّرَ فَدَلَّيْنِي عَلَى بَيْتِ الرَّاحَةِ يَعْنِي مَكَانَ قِضَاءِ الْحَاجَةِ، فَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ وَهِيَ مُسْتَأْنَسَةٌ لِهَذَا الرُّضُوحِ، فَدَخَلَ بَيْتَ الرَّاحَةِ وَبَدَأَ يَأْخُذُ مِنَ الْقَدْرِ وَمِنْ قِضَاءِ الْحَاجَةِ وَمِنْ الْبُرَازِ يُلَطِّخُ بِهِ وَجْهَهُ، يُلَطِّخُ بِهِ شَعْرَهُ، وَيُلَطِّخُ بِهِ سَائِرَ جَسَدِهِ حَتَّى تَقْدَرَ جَمِيعَ بَدَنِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْقَدِرَةِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ اسْتَقْدَرَتْهُ فَطَرَدَتْهُ مِنْ بَيْتِهَا فَسَلِمَ وَصَانَ نَفْسَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ .

فلما ذهب إلى بيته اغتسل ونام، فإذا بهاتف يأتيه في المنام: يا أبا بكر! إنك قد فعلت ما لم يفعله غيرك، يا أبا بكر! لأطيبنك في الدنيا والآخرة، فأصبح أبو بكر فإذا بجسده تعلوه رائحة المسك، يوماً، يومين سنة عشر سنواتٍ عشرين سنةً، بقيت معه هذه الرائحة حتى عرف بأبي بكر المسكبي ومات وهذه الرائحة معه ونسأل الله أن يتبعه إلى الآخرة، هكذا صور العفاف.

لذا لا بُدَّ أَنْ نَحْذَرَ هَذِهِ الْفِتَنِ، وَنَتَعَبَّ وَنَجْهَدَ فِي تَرْبِيَةِ ذَوَاتِنَا وَتَحْصِينِهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ مُنْتَشِرَةٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

١٢

حديث السبحة
رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا

عباد الله ...

إِنَّ الْمَالَ مَالُ اللَّهِ اسْتَخْلَفَ عِبَادَهُ فِيهِ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، فَمَنْ جَمَعَهَا مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَاسْتَثْمَرَهَا فِي حَلَالٍ وَأَنْفَقَهَا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ؛ فَهُوَ الْعَيْشُ السَّعِيدُ، وَأَمَّا مَنْ تَنَكَّبَ الْجَادَّةَ وَجَمَعَهَا مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَاسْتَثْمَرَهَا فِيمَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُ سَقْرًا وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقْرٌ.

وَ حَدِيثُنَا فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ اسْتِكْمَالًا لِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ، حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي تَصَدَّقَ بِبِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ.

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَكَوْنِهَا مِمَّا يُسْتَظَلُّ بِهَا فِي ظِلِّ الْعَرْشِ قَدْ تَوَاتَرَتْ فِيهَا النُّصُوصُ، فَفِي صَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ يَقُولُ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: « كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ - أَوْ قَالَ: يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ » (١)، وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢).

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٦٨/٢٨) برقم: [١٧٣٣٢]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٨٠/١٧) برقم: [٧٧١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٨٣٠/٢) برقم: [٤٥٠٥].

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٥١/٣٧) برقم: [٢٢٥٥٩]، وأخرجه الدارمي في "سننه" باب: [فِيمَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا] برقم: [١٦٨٧/٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١١١٩/٢) برقم: [٦٥٧٤]، واللفظ لأحمد.

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الصَّدَقَةِ حَدِيثٌ يَطُولُ، وَقَدْ جَاءَتِ النُّصُوصُ
الكثيرةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنَّ حَسْبِي وَإِيَّاكُمْ هَذِهِ
المزايَا الَّتِي اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا الصَّدَقَاتِ، وَالمُتَّصِدِّقِينَ، فَاسْمَعُوا إِلَيَّ هَذِهِ
المَسَائِلِ السَّبْعِ:-

المسألة الأولى: أَنَّ الصَّدَقَةَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ، جَاءَ فِي
مُسْتَدْرَكِ الحَاكِمِ أَنَّ عُمَرَ الفَارُوقَ رضي الله عنه قَالَ: ذُكِرَ لِي أَنَّ الأَعْمَالَ تَبَاهَى
وَكُلُّ عَمَلٍ يَقُولُ: أَنَا أَفْضَلُ مِنْكَ أَيُّهَا العَمَلُ، فَتَقُولُ الصَّدَقَةُ: أَنَا أَفْضَلُكُمْ.
وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى
اللَّهِ؟ قَالَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى
اللَّهِ سُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ»^(١)، وَكَيْفَ يُسَرُّ هَذَا المُسْلِمُ إِلَّا بِالإِحْسَانِ
إِلَيْهِ بِمَنْفَعَةٍ، بِمَعْرُوفٍ وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَلَا يَنْحَصِرُ ذَهْنُكَ بِذَلِكَ
المَفْهُومِ الخَاطِئِ أَنَّ الصَّدَقَةَ يُقْصَدُ بِهَا دَفْعُ المَالِ فَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ
ثَانِيًا: وَقَدْ مَيَّزَ اللَّهُ الصَّدَقَةَ وَالمُتَّصِدِّقِينَ بِأَنَّهَا تَقِي مِنَ البَلَايَا
وَالكُرُوبِ، وَتُعَالِجُ كُلَّ مُبْتَلَى مَكْرُوبٍ فَهِيَ تَدْفَعُ وَتَرْفَعُ، تَدْفَعُ البَلَاءَ
قَبْلَ نَزْوِهِ، فَإِذَا وَقَعَ البَلَاءُ رَفَعَتْهُ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ مَا جَاءَ

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٣٩/٦) برقم: [٦٠٢٦]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٥٧٤/٢)

برقم: [٩٠٥].

عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ الشُّوْءِ، وَصَدَقَةُ السَّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ » (١).

صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ، مَنِ اعْتَادَ أَنْ يَصْنَعَ الْمَعْرُوفَ، تَقِي مَصَارِعَ الشُّوْءِ، تَكُونُ وَقَايَةً لِهَذَا الْمُتَصَدِّقِ، وَكَذَلِكَ هِيَ تَرْفَعُ الْبَلَاءَ عَنِ الْمُبْتَلَى الْمَكْرُوبِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ يَقُولُ صلى الله عليه وسلم: « دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ » (٢)، دَاوُوا هَؤُلَاءِ الْمَرْضَى، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْمَرَضُ مَرَضًا حَسِيًّا كُسُورٌ وَجُرُوحٌ وَآلَمٌ، أَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَمْرَاضُ أَمْرَاضًا مَعْنَوِيَّةً مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ وَالْهَوَى، دَاوُوهَا بِالصَّدَقَةِ، « دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ».

يَأْتِي رَجُلٌ لِابْنِ الْمُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللهُ- يَشْتَكِي أَنَّهُ قَدْ عَجَزَ عَنْ عِلَاجِ قُرْحَةٍ خَرَجَتْ فِي رُكْبَتِهِ حَاوَلَ أَنْ يُعَالِجَهَا وَيَتَطَبَّبَ مِنْ أَجْلِهَا فَعَجَزَ الطَّبُّ عَنْ ذَلِكَ، فَأَرْشَدَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ إِلَى هَذَا الدَّوَاءِ إِلَى الصَّدَقَةِ قَالَ: أَحْفَرُ بِنْرًا فِي مَكَانٍ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى الْمَاءِ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْبَعَ هُنَاكَ مَاءٌ، وَيَمْسِكَ الدَّمَ عَنْ رُكْبَتِكَ، قَالَ: فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَبَرِيَ بِإِذْنِ اللهِ.

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٦١/٨) برقم: [٨٠١٤]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧٠٨/٢) برقم: [٣٧٩٧]، واللفظ للطبراني.

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢٨/١٠) برقم: [١٠١٩٦]، وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٨٧/٧) برقم: [٣٤٩٢]، وأخرجه الديلمي (١٤٠/٢)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٦٣٤/١) برقم: [٣٣٥٨]، واللفظ للطبراني.

وَالْحَاكِمُ الْمُحَدَّثُ الْعَالِمُ صَاحِبُ الْمُسْتَدْرَكِ يُتَلَى فِي وَجْهِهِ
بِقُرُوحٍ، فَيِيحُثُّ عَنْ عِلَاجٍ وَيَسْأَلُ غَيْرَهُ الدُّعَاءَ مِنَ الصَّالِحِينَ فَيُرْشِدُ إِلَى
أَنْ يَضَعَ سِقَايَةَ بَابِ بَيْتِهِ، فَإِذَا بِهِ يَضَعُ سِقَايَةَ يَمَلُؤُهَا فِي كُلِّ صَبَاحٍ عِنْدَ
بَابِ دَارِهِ يَشْرَبُ مِنْهَا النَّاسُ، فَمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُسْبُوعٌ حَتَّى تَعَالَجَ وَجْهُهُ وَعَادَ
كَأَحْسَنِ مَا كَانَ، « دَاوُوا مَرَضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ».

مِيزَةٌ ثَالِثَةٌ: أَنَّ الصَّدَقَةَ أَجْرُهَا عَظِيمٌ وَثَوَابُهَا مُضَاعَفٌ، قَالَ الْحَقُّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ
لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، وَقَالَ الْحَقُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ
مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وَقَالَ
الْحَقُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ
كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي
هُرَيْرَةَ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا
أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرَبُّو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى

تَكُونُ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلَةٌ»^(١)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْوَالَ الرَّبَوِيَّةَ لَا يُتَصَدَّقُ بِهَا، وَالسَّرَاقُ الَّذِينَ يَسْرِقُونَ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ لَا تُقْبَلُ صَدَقَاتُهُمْ، الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَخْدَعُونَ النَّاسَ وَيَجْمَعُونَ الْأَمْوَالَ ثُمَّ يَتَصَدَّقُونَ بِهَا؛ صَدَقَتُهُمْ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِمْ.

مِيزَةٌ رَابِعَةٌ مِنْ مَزَايَا الْمُتَصَدِّقِينَ وَالصَّدَقَاتِ: أَنَّهَا تُطْفِئُ نَارَ الْخَطِيئَاتِ، أَصْحَابُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي كُلَّمَا أَنْفَقُوا؛ كَانَ هَذَا الْإِنْفَاقُ وَالْبَذْلُ وَالْعَطَاءُ إِطْفَاءً لِنَارِ مَعَاصِيهِمْ، أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ الْحَقِّ ﷻ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥]، يَقُولُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عِكْرِمَةَ وَرَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ "الزُّهُدِ" وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يَقُولُ: « تَصَدَّقُوا وَلَوْ بِتَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الْجَائِعِ وَتُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ »^(٢).

تَحَدَّثْتُ قَبْلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى النَّفْسِ وَالْإِحْسَانِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ لِقَوْلِهِ: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٣]] [(١٠٨/٢) برقم: ١٤١٠]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَّتِهَا] [(٧٠٢/٢) برقم: ١٠١٤]، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه ابن المبارك في "الزهد والرفائق" باب: [الصَّدَقَةُ] [(٥٦٨/١) برقم: ٢٩٥١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" [(٥٦٨/١) برقم: ٢٩٥١].

عَلَى الْأَمْوَاتِ فِي قُبُورِهِمْ، فَجَاءَنِي هُنَا رَجُلٌ وَقَالَ: أَنْتَ تَقُولُ: تَصَدَّقُوا، وَلَا نَجِدُ مَا نُنْفِقُهُ، نَحْنُ لَا نَجِدُ إِلَّا مَا نُنْفِقُهُ عَلَى أَوْلَادِنَا وَأَنْفُسِنَا، إِنْ كَانَ عِنْدَنَا صَدَقَةٌ فَأَوْلَادُنَا أَوْلَىٰ بِهَا، قُلْتُ لَهُ: أَنْتَ تُدَخِّنُ، قَالَ: وَمَا عِلَاقَةُ هَذَا بِهَذَا؟ قُلْتُ لَهُ: أَنْتَ تُدَخِّنُ؟ قَالَ: وَكَيْفَ عَرَفْتَ! قُلْتُ لَهُ: الْكِتَابُ يُقْرَأُ مِنْ عِنْوَانِهِ رَائِحَتِكَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ مُدَخِّنٌ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: كَمْ تَصْرِفُ عَلَى دُخَانِكَ، قَالَ: قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِينَ دِينَارًا يَزِيدُ أَوْ يَقِلُّ فِي الشَّهْرِ، قُلْتُ: وَأَنْتَ تَشْتَرِي هَذَا الدُّخَانَ وَتَصْرِفُ عَلَيْهِ فِي عَامِكَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، أَيْنَ نَفْسِكَ أَلَمْ تَقُلْ لَكَ: أَوْلَادُكَ أَوْلَىٰ؟

كَمْ سَيَصْرِفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ هَذَا، بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَضَعُ هَذِهِ الْأَمْوَالَ فِي الْحَرَامِ.

يُحَدِّثُنِي أَحَدُ الْإِخْوَةِ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: الشَّارِعُ مُزْدَحِمٌ، السِّيَّارَاتُ مَا تَتَحَرَّكُ، قُلْتُ: حَادِثٌ؟ قَالَ: لَا، السَّاعَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ تَفْتَحُ حَوَانِيْتُ الْخَمْرِ وَيَأْتِي النَّاسُ يَشْتَرُونَ مِنَ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، وَيَجْتَمِعُ هَؤُلَاءِ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَأْخُذُ يَتَزَوَّدُونَ لِرَمَضَانَ، نَاسٌ يَتَزَوَّدُونَ بِالتَّقْوَىٰ وَنَاسٌ يَتَزَوَّدُونَ بِالْمَعْصِيَةِ، إِذَا حَدَّثْتَهُ عَنِ الصَّدَقَةِ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ، يَضَعُهَا فِي خَمْرِ، يَضَعُهَا فِي دُخَانٍ، يَضَعُهَا فِي سَهَرٍ، يَضَعُهَا فِي أَشْرَاطِ إِبَاحِيَّةٍ، يَضَعُهَا فِي أَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ لَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ.

وَنَبِينًا ﷺ يَقُولُ: «إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرَبُّو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلَهُ»، يَبْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ بِتَمْرَةٍ وَيُضِيعُ نَفْسَهُ بِزُجَاجَاتِ الْخَمْرِ. مِنَ الْمَزَايَا الَّتِي مَيَّزَ اللَّهُ بِهَا الصَّدَقَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ: أَنَّهَا تَقِي الْعَبْدَ مِنَ النَّارِ، جَاءَ فِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشَامَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (١).

مِيزَةُ سَادِسَةٌ: أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ بِالصَّدَقَةِ يُدْرِكُ أَجْرَ الْعَامِلِ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِعَمَلِهِ، وَهَذَا بَابُ فَرَطٍ فِيهِ الْكَثِيرُ، يَقُولُ ﷺ فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدِ الْجُهَيْنِيِّ: «مَنْ فَطَرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا» (٢)، كَانَ هَذَا الصَّائِمُ غَنِيًّا أَوْ كَانَ فَقِيرًا، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ] (١٤٨/٩) برقم: [٧٥١٢]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْحَثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ] (٧٠٣/٢) برقم: [١٠١٦]، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي فَضْلِ مَنْ فَطَرَ صَائِمًا] (١٦٢/٣) برقم: [٨٠٧]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٥٧/٥) برقم: [٥٢٧٥]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٩٥/٢) برقم: [٦٤١٢]، واللفظ للترمذي.

غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ، فَقَدْ غَزَا»^(١)،
فَمَنْ تَصَدَّقَ عَلَى بَعْضِ الْعَمَالِ الَّذِينَ فِي عَمَلِهِمْ كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمْ.
فَهَذَا يَتَصَدَّقُ يَكْفُلُ دَاعِيَةً يَعْمَلُ يَدْفَعُ لَهُ فِي الشَّهْرِ مِائَةً وَخَمْسِينَ
دِينَارًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، فَثَوَابُهُ يُتَحَصَّلُ مِثْلَ أَجْرِ فَاعِلِهِ، وَآخِرُ دَفْعِ أَمْوَالًا
لِقَنَاةٍ فَضَائِيَّةٍ تَدْعُو إِلَى اللَّهِ لِأَحْيَاءِ بَرْنَامَجٍ، فَكُلُّ مَا يَأْتِي مِنْ خَيْرٍ مِنْ تِلْقَاءِ
هَذَا الْبَرْنَامَجِ فِي ثَوَابِهِ، وَثَالِثٌ كَفَلَ مُدْرِّسًا، وَرَابِعٌ دَفَعَ لِطَالِبٍ يَتَعَلَّمُ
الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ.

الْمِيزَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الصَّدَقَةَ تُدَّخَرُ وَتَبْقَى وَمَا نَأْكُلُ وَمَا نَلْبَسُ بِغَيْرِ
احْتِسَابٍ هُوَ الَّذِي يَذْهَبُ، جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أُمِّنَا
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً قَالَتْ عَائِشَةُ: فَوَزَعْنَا لَحْمَهَا وَأَبْقَيْنَا
الْكَتِفَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بِهِ يُقْبَلُ ﷺ وَيَقُولُ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»^(٢)، أَي:
مِنَ الشَّاةِ، فَتَرُدُّ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا فَيَقُولُ ﷺ:

«بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»^(٣)، الْبَاقِي هُوَ الْمُتَصَدَّقُ بِهِ، هَكَذَا فَهَمَ وَأَفْهَمَ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فُضِّلَ إِعَانَةُ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِرُكُوبٍ وَغَيْرِهِ، وَخِلَافَتِهِ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ] (١٥٠٦/٣) برقم: [١٨٩٥].

(٢) أخرجه الترمذي في "سننه" (٦٤٤/٤) برقم: [٢٤٧٠]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٩٧/٦) برقم: [٢٥٤٤]، واللفظ للترمذي.

(٣) أخرجه الترمذي في "سننه" (٦٤٤/٤) برقم: [٢٤٧٠]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٩٧/٦) برقم: [٢٥٤٤]، واللفظ للترمذي.

مَنْ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إِنَّ الصَّدَقَةَ تُمَسِكُ بِرِمَامِ الْقُلُوبِ، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ
فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ
مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالَ النَّاسِ قَاطِبَةً
إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَانُ
أَحْسِنُ إِذَا كَانَ إِمْكَانٌ وَمَقْدِرَةٌ
فَلَنْ يَدُومَ عَلَى الْإِنْسَانِ إِمْكَانُ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

١٣

حديث السبعة
وَرَجُلٌ ذَكَرَ
اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ

عباد الله ...

لا يزال حديثنا عن أَصْنَافِ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ بِظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى قَوْلِهِ ﷺ : « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ »^(١)، إِنَّ الذُّكْرَ عِبَادَةً مِنَ الْعِبَادَاتِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَا مِنْ عِبَادَةٍ إِلَّا وَلَهَا حَدٌّ مَعْلُومٌ تَنْتَهِي بِهِ، وَأَجَلٌ تَنْقُضِي عِنْدَهُ إِلَّا عِبَادَةَ الذُّكْرِ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ فِيهَا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٢٤].

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي كَلِمَاتٍ رَائِعَةٍ رَاقِيَةٍ: " إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضْ عَلَيَّ عِبَادَةَ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ عُدْرٍ، غَيْرِ الذُّكْرِ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ " ، فَقَالَ ﷻ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ١٠٣]، الصَّلَاةُ لِذِكْرِي أُقِيمَتْ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤] .

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: " تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ: فِي الصَّلَاةِ، وَفِي الذُّكْرِ، وَفِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ وَجَدْتُمْ وَإِلَّا فاعلموا أَنَّ الْبَابَ مُغْلَقٌ " ، لَنْ نَجِدَ الْحَلَاوَةَ فِي قِيلٍ وَقَالَ، سَنَجِدُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [فُضِّلَ مَنْ تَرَكَ الْفَوَاحِشَ] (١٦٣/٨) برقم: [٦٨٠٦]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فُضِّلَ إِخْفَاءُ الصَّدَقَةِ] (٧١٥/٢) برقم: [١٠٣١].

الحلاوة في ذكر الله؛ لذا جاءت نصوص الكتاب والسنة مشجعة للعبد لا على ذكر الله فحسب بل على الإكثار من ذكر الله، يُمَرُّ صلى الله عليه وسلم يوماً والحديث في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة: يُمَرُّ على جبل في طريق مكة يقال له: جُمدان، فيقول صلى الله عليه وسلم: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»^(١)، الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ هُمُ السَّابِقُونَ لغيرهم لمزية الذكر.

لذا لما جاء معاذُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم والحديث في صحيح ابن حبان قال: يا رسول الله! أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانِكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ»^(٢)، يَعْنِي لَا يَفْتُرُ هَذَا اللِّسَانَ عَنِ الذِّكْرِ فَيَظُلُّ مَبْلُولًا بِذِكْرِ اللهِ، وَيُوصِي صلى الله عليه وسلم أبا سعيد الخدري بوصايا جامعة مانعة فيقول له كما جاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْحَثُّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى] (٢٠٦٢/٤) برقم: [٢٦٧٦].

(٢) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ نَفْسِ الْمَرْءِ عَنْ دَارِهِ الْمَيِّتِ وَالْعَشَاءِ لِلشَّيْطَانِ بِذِكْرِهِ رَبَّهُ عِنْدَ دُخُولِهِ وَإِتْدَائِهِ] [١٠٠/٣] برقم: [٨١٩]، وأخرجه الطبراني في "الدعاء" باب: [مَا جَاءَ فِي فَضْلِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ] [٥١٩/١] برقم: [١٨٥٢]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" [٥٧/٢] برقم: [٥١٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" [٩٥/١] برقم: [١٦١].

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" [٢٩٨/١٨] برقم: [١١٧٤]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" [٤٩٨/١] برقم: [٢٥٤١].

إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ؛ أَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ» (١)، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ، فَالذِّكْرُ حِرْزٌ لَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، قَبْلَ أَنْ يَبْتَلِيكَ الشَّيْطَانُ اجْعَلْ نَفْسَكَ فِي هَذَا الْحِصْنِ هَذِهِ الْوِقَايَةَ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الْعِلَاجِ، يَذْكُرُ اللَّهُ عَلَى طَعَامِهِ فَيَحْتَرِزُ مِنَ الشَّيْطَانِ، يَذْكُرُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ يَفْرَغَ مِنْ طَعَامِهِ فَيَحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِهِ وَعِنْدَ دُخُولِهِ، عِنْدَ إِيْتَانِ أَهْلِهِ، عِنْدَ لِبْسِ ثَوْبِهِ.

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ لَنَا فِي كُلِّ حَرَكَةٍ ذِكْرًا لِيُحْرِزَ الْعَبْدَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

إِنَّ الذِّكْرَ مُدْخَرٌ، إِنَّ الذِّكْرَ لَهُ فَضَائِلٌ، إِنَّ الذِّكْرَ لَهُ ثَمَرَاتٌ، وَلَسْتُ هُنَا ذَاكِرًا لِتِلْكَ الثَّمَرَاتِ وَمُكْثَرًا مِنْهَا، وَلَكِنَّ حَسْبِي بِثَلَاثَةِ أَمْثَلَةٍ تُبَيِّنُ أَنَّ ذِكْرَكَ لِلَّهِ مُدْخَرٌ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ، أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا بَخَلَتْ نَفْسَهُ بِالْمَالِ وَضَعْفَتْ عَنِ الْجِهَادِ، وَضَعْفَتْ قُوَاهُ عَنِ الْقِيَامِ؛ فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٣٦/٢٩) برقم: [١٧٨٠٠]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي مَثَلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ] (١٤٨/٥) برقم: [٢٨٦٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٥٦/١) برقم: [١٧٢٥].

قَالَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يُبَيِّنُ لَنَا هَذَا التَّنَوُّعَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَاتِ، يُبَيِّنُ لَنَا هَذِهِ الرَّحْمَةَ يَقُولُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «فَمَنْ ضَنَّ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَخَافَ الْعَدُوَّ أَنْ يُجَاهِدَهُ، وَهَابَ اللَّيْلَ أَنْ يُكَابِدَهُ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(١)، إِنَّ هَذَا الذِّكْرَ مُدْخِرٌ لَكَ، مَا تَسْتَطِيعُ تُنْفِقُ الْأَمْوَالَ وَلَا تَقُومُ اللَّيْلَ وَلَا أَنْ تُقَابِلَ الْأَعْدَاءَ؛ عَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ.

جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو يغرس غرساً، فقال: «يا أبا هريرة، ما الذي تغرس؟» قلت: غراساً لي، قال: «ألا أدلك على غراسٍ خيرٍ لك من هذا؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «قل: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، يُغْرَسُ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجْرَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٢)، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمْ ضَيَعْنَا مِنْ هَذَا الْغِرَاسِ الْمُبَارَكِ سُبْحَانَ اللَّهِ تُغْرَسُ لَكَ شَجْرَةٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ تُغْرَسُ شَجْرَةٌ، اللَّهُ أَكْبَرُ تُغْرَسُ شَجْرَةٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُغْرَسُ لَكَ شَجْرَةٌ، إِنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْآخِذُونَ لِهَذِهِ الْأَفْضَالِ الْمُتَمَلِّسُونَ لِهَذِهِ الرَّحِمَاتِ.

أَمَا تَرَى إِلَى حَالِنَا كَيْفَ إِذَا سَلَّمَ إِمَامُنَا فِي الصَّلَاةِ نَتَسَابِقُ الْبَابَ،

(١) أخرجه البيهقي في "القضاء والقدر" (٢٦٤/١) برقم: [٣٦٥]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١١٩/٢) برقم: [٥٩٩]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٩٠/٢) برقم: [٦٣٧٣].

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [فَضْلُ التَّسْبِيحِ] (١٢٥١/٢) برقم: [٣٨٠٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" برقم: [٢٦١٣] (٥١٠/١).

حديث السبعة وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ

﴿١٣٧﴾

وَنَسِيَ أَنْ هُنَاكَ ذِكْرًا بَعْدَ الصَّلَاةِ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَنَا، يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَبَحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ: تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١)، كَمْ ضَيَعْنَا، كَمْ ضَيَعَ الْمُضَيِّعُ الَّذِي إِذَا سَلَّمَ الْإِمَامُ انْصَرَفَ وَخَرَجَ وَيَجْلِسُ عِنْدَ الْبَابِ يَحْكِي مَاذَا قَالَ فَلَانُ وَمَاذَا فَعَلَ هُنَاكَ وَسَاعَةً كَامِلَةً يَحْكِي عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ، وَهَذَا الذُّكْرُ الَّذِي تُغْفَرُ بِهِ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَإِنْ بَلَغَتْ زَبَدَ الْبَحْرِ يَتْرُكُهُ وَيَخْرُجُ.

إِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَيِّدَ الذَّاكِرِينَ، كَانَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْيَانِهِ كَمَا قَالَتْ أُمُّنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ يَقُولُ ابْنُ عُمَرَ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٢)، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. فَإِذَا أَعْرَضَ الْعِبَادُ عَن ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ اللَّهَ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [اسْتِجَابَةُ الذُّكْرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَبَيَانُ صِفَتِهِ] (٤١٨/١) برقم: [٥٩٧].

(٢) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [فِي الْإِسْتِغْفَارِ] (٨٥/٢) برقم: [١٥١٦]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا يَقُولُ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ] (٤٩٤/٥) برقم: [٣٤٣٤]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" باب: [الاستغفار] (١٧٢/٩) برقم: [١٠٢١٩]، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (٢٤٨/٥).

حديث السبعة وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ

بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا يَذْكُرُ اللَّهَ سُبْحَانَ اللَّهِ ،
وَنَحْنُ نَقْرَأُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَ اللَّهِ : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا عَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] ، وَيَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ : « مَا تَسْتَقِلُّ الشَّمْسُ فَيَبْقَى شَيْءٌ
مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا سَبَّحَ اللَّهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَأَعْيَابِ بَنِي آدَمَ » (١) ،
هَؤُلَاءِ قَلِيلُو الْفِطْنَةِ الَّذِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَلَا يُسَبِّحُونَهُ .

خِتَامًا يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ : « خِيَارُكُمْ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ، ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » (٢) ،
اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ اسْتَوْدَعَ فِي الْخَلْقِ أَشْخَاصًا إِذَا رَأَيْتَهُمْ ذَكَرْتَ اللَّهَ ، وَهَنَّاكَ خَلْقٌ
مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَوَّذْتَ بِاللَّهِ .

عباد الله ... إِنْ الذِّكْرَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَثِيرًا وَأَنْ يَكُونَ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ
حَتَّى يُؤَثَّرَ عَلَى الْجَوَارِحِ فَتَفِيضُ الْعَيْنُ بِالدَّمْعِ ، قَالَ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَرَجُلٌ
ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ » (٣) ، فَهَلْ جَرَّبَتْ هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَنْ تَكُونَ
فِي مَجْلِسٍ خَالِيًا لَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ تَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَفِيضَ عَيْنُكَ بِالدَّمْعِ مَا
مَعَكَ أَحَدٌ ، هَلْ لَكَ وَرْدٌ تَجْلِسُ فِيهِ تَذْكُرُ اللَّهَ ؟

(١) أخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة" برقم: [١٤٦] ، وأبو نعيم في "الحلية" (١١١/٦) ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٩٨٠/٢) برقم: [٥٥٩٦] .

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ] (١٣٧٩/٢) برقم: [٤١١٩] ، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٧٧/٩) برقم: [٦٢٨٢] ، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٤٢٣/١) برقم: [٢٨٧١] .

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [فَضْلُ مَنْ تَرَكَ الْفَوَاحِشَ] (١٦٣/٨) برقم: [٦٨٠٦] ، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فَضْلُ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ] (٧١٥/٢) برقم: [١٠٣١] .

حديث السبعة وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ

﴿١٣٩﴾

هَا هُوَ رَمَضَانُ مُقْبِلٌ عَلَيْنَا فَلْيَكُنْ فِي بَرْنَامِجِكَ الْعَمَلِيَّ سَاعَةً كَامِلَةً
تَجْلِسُ تَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُ
أَكْبَرُ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، بَرْنَامِجٌ كَمَا أَنَّ لَكَ بَرْنَامِجًا تَتَدَارَسُ فِيهِ الْقُرْآنَ وَهُوَ
مِنْ أَعْلَى الذِّكْرِ، فَاجْلِسْ وَاجْعَلْ لَكَ وَرْدًا تَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ ، قَالَ تَعَالَى :
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وَيَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].
ختامًا مَا أَجْمَلَ ذَاكَ الْحَدِيثَ الَّذِي جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ
حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي قَالَ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ
بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْحَرَسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] (١٧٥/٤) برقم: [١٦٣٩]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٢٣٢/٢) برقم: [٧٧٥]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١١٢٥/٢) برقم: [٣٨٢٩].

١٤

فِرَاعُ الْإِفْرَاعَاتِ

عباد الله ...

عنوان هذه الخطبة : غراء الإِغْرَاءَاتُ، الإِغْرَاءَاتُ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِالْغِرَاءِ الَّذِي إِذَا التَّصَقْتُ بِهِ أَوْ التَّصَقَ بِكَ؛ فَالْفِكَأُ مِنْهُ صَعْبٌ، جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ كَمَا هُوَ فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيْلَ إِلَى الْجَنَّةِ»، فَقَالَ: «انظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَارْجِعْ» فَقَالَ: «وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ» فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ» فَقَالَ: «وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» قَالَ: «اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَى النَّارِ، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَانظُرْ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَارْجِعْ» فَقَالَ: «وَعِزَّتِكَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ» فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَارْجِعْ» فَقَالَ: «وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»^(١).

الْجَنَّةُ بِمَا حُفَّتْ بِهَا مِنَ الْمَكَارِهِ، صِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَجُهْدٍ وَطَاعَةٍ، وَالنَّارُ وَمَا حُفَّتْ بِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَإِغْرَاءَاتِهَا،

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١٢٥/١٤) برقم: [٨٣٩٧]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في خَلْقِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ] (٢٣٦/٤) برقم: [٤٧٤٤]، وأخرجه النسائي في "سننه" باب: [الْحَلْفُ بِعِزَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى] (٤٣١/٤) برقم: [٤٦٨٤]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٩٢٦/٢) برقم: [٥٢١١].

جَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ الطَّوِيلُ مُخْتَصِرًا عِنْدَ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ
أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ
الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(١).

يَحْمِلُ لِيَوَاءِ تَزْيِينِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، كَمَا قَالَ الْمَوْلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا
يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، الشَّيْطَانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ حِينَ مَا تَوَعَّدَ هَذَا الْخَلْقَ:
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:
٨٢-٨٣]، الشَّيْطَانُ الَّذِي قَالَ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي
مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا
أَبْرُحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي
وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَعْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٢).

وَهَذِهِ الْإِغْرَاءَاتُ لَهَا صُورٌ مُتَعَدِّدَةٌ، إِذَا أَخْطَأَكَ سَهْمٌ مِنْهَا فَرُبَّمَا لَا
تَنْجُو مِنْ سَهْمٍ آخَرَ، إِغْرَاءٌ بِالْمَالِ، وَإِغْرَاءٌ بِالشَّرَابِ، وَإِغْرَاءٌ بِالْمَطَاعِمِ،
وَإِغْرَاءٌ بِالْمَنَاصِبِ، وَإِغْرَاءٌ بِالْوِظَائِفِ وَإِغْرَاءَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِالْمَدْحِ وَالشَّانِ،

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ] (١٠٢/٨) برقم: [٦٤٨٧].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٣٧/١٧) برقم: [١١٢٣٧]، وأخرجه الطبراني في "الدعاء" باب: [مَا جَاءَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ] (٥٠٣/١) برقم: [١٧٧٩]، وأخرجه الحاكم في "المستدرک على الصحيحين" (٢٩٠/٤) برقم: [٧٦٧٣]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٣٩/١) برقم: [١٦٤٨].

وَإِغْرَاءٌ بِالنِّسَاءِ، وَإِنَّ أَعْظَمَ صُورِ هَذِهِ الْإِغْرَاءَاتِ هُوَ إِغْرَاءُ النِّسَاءِ،
وَأَكْثَرُ الْوَاقِعِينَ فِيهِ هُمْ شَرِيحَةُ الشَّبَابِ، فَأَدْعُوكَ أَيُّهَا الشَّابُّ! عَلَى وَجْهِ
الْخُصُوصِ أَنْ تَنْتَبِهَ مَعِيَ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ
أَيْضًا مُخَاطَبٌ بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ.

يَقُولُ لِي أَحَدُ الشَّبَابِ: أَرْجُوكَ أَخْرِجْنِي مِنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ - وَكَانَ
يَبْكِي - قُلْتُ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: أَغْرَتْنِي فَتَاةٌ فَخَرَجْتُ مَعَهَا فَحَمَلَتْ مِنِّي،
وَالآنَ أَهْلُهَا يَقُولُونَ: لَا بُدَّ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا، وَهِيَ لَا تَلِيقُ بِي وَلَا بِأَهْلِي وَأَهْلُهَا
لَا يَلِيقُونَ بِأَهْلِي مَاذَا أَفْعَلُ؟ كَيْفَ أَتَصَرَّفُ؟

وَآخَرَ يَقُولُ لِي: أَرْجُوكَ أَعْطِنَا حَلًّا، فَنَحْنُ فِي وَرْطَةٍ لَا يَعْلَمُ بِهَا
إِلَّا اللَّهُ، قُلْتُ: أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى وَرْطَتِكَ فَمَا هِيَ وَرْطَتُكَ؟ قَالَ: تَعَرَّفَ
ابْنِي عَلَى فَتَاةٍ هِيَ وَوَالِدَتُهَا يَتَعَامَلُونَ بِالسَّحْرِ فَوَرَّطُوا ابْنَنَا وَسَحَرُوهُ
حَتَّى أَصْبَحَ كَالْبَهِيمَةِ، نُغْلِقُ عَلَيْهِ الْبَابَ فَيَخْرُجُ مِنَ النَّافِذَةِ وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ
لِلْإِصَابَاتِ حَتَّى يَذْهَبَ إِلَى بَيْتِهَا وَبَيْتِ أُمِّهَا، صَارَ مَجْنُونًا، مَاذَا نَفْعَلُ؟
كَيْفَ نَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ، الْجَمِيعُ يَبْحَثُ عَنِ الْعِلَاجِ، وَالْقَاعِدَةُ
تَقُولُ: الْوِقَايَةُ خَيْرٌ مِنَ الْعِلَاجِ.

لِذَا أَنْصَحُكَ أَنْ تَتَّعِظَ بِغَيْرِكَ فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ اتَّعِظَ بِغَيْرِهِ، فَرَسُولُنَا

ﷺ مَا تَرَكَنَا هَمَلًا، إِنَّمَا قَالَ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ: «مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةً

أَضْرَ عَلَيَّ أُمَّتِي مِنَ النِّسَاءِ عَلَيَّ الرَّجَالِ»^(١)، قَبْلَ ثَلَاثِ لَيَالٍ خَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْمَسْجِدِ هُنَا مَا أَتَكَلَّمُ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ، مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْمَسْجِدِ يَعْنِي كُلُّهَا أَقَلُّ مِنْ كَيْلُو مِتْرٍ، وَلَكِنَّ شَوَارِعَنَا تَبَدَّلَتْ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ أَهْلِهَا، وَأَمَامِي سَيَّارَةٌ فِيهَا بَنَاتٌ يَتَرَاقِصْنَ فِي الشَّارِعِ وَيَتَمَايَلْنَ فِي حَالَةٍ مِنَ الطَّرْبِ وَالانْتِشَاءِ، قُلْتُ: هُوَ لَآءِ الْآنَ يَلْعَبُ بِهِمُ الشَّيْطَانُ وَيَسْتَخْدِمُهُمْ وَسِيْلَةٌ لَهُوَ لَآءِ السُّدْجِ مِنَ الشَّبَابِ، يَا مُصِيبَةً مَنْ سَيَقَعُ فِي شِرَاكِ هُوَ لَآءِ النَّسْوَةِ أَقُولُ هَكَذَا وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَى الْمَسْجِدِ.

يَتَرَاقِصْنَ أَمَامَ النَّاسِ، ذَهَبَ الْحَيَاءُ لِأَنَّهَا فِتْنَةٌ، لِأَنَّهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضْرَّ عَلَيَّ أُمَّتِي مِنَ النِّسَاءِ عَلَيَّ الرَّجَالِ»^(٢)، يَقُولُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي كِتَابِهِ "ذَمُّ الْهَوَى": كَانَ رَجُلٌ اسْمُهُ صَالِحٌ يَعْمَلُ مُؤَدِّنًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، لَيْسَ يَوْمًا وَلَا يَوْمِينَ وَلَا عَشْرَةَ، أَرْبَعِينَ سَنَةً مُؤَدِّنًا، وَكَلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَضْعَدَ إِلَى مَنَارَةِ الْمَسْجِدِ قَالَ لَهُ أَحَدُ الشُّيُوخِ: يَا صَالِحُ! إِذَا قُلْتَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ لَا تَلْتَفِتْ فَإِنَّ لِحَارِنَا جَارِيَةً قَدْ تَفَتَّنَ بِهَا وَجَارَهُمْ نَصْرَانِيٌّ، صَالِحٌ سَمِعَ النَّصِيحَةَ، وَلَكِنْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَتَاهُ الشَّيْطَانُ وَقَالَ: يَا صَالِحُ! أَمَا عِنْدَكَ ثِقَةٌ بِنَفْسِكَ؟ التَفَتَ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [مَا يَنْتَقَى مِنْ شُؤْمِ الْمَرْأَةِ] (٨/٧) برقم: [٥٠٩٦]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْفُقَرَاءُ وَأَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءُ وَبَيَانَ الْفِتْنَةِ بِالنِّسَاءِ] (٢٠٩٧/٤) برقم: [٢٧٤٠].

فَالْتَفَتَ، فَنَظَرَ إِلَى هَذِهِ الْجَارِيَةِ، فَإِذَا بِهَا تُرْسِلُ إِلَيْهِ سَهْمًا مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَا أَكْمَلَ حَيِّيَ عَلَى الْفَلَاحِ، مَا أَنْهَى هَذَا الْأَذَانَ، نَزَلَ مِنْ مَنَارَةِ الْمَسْجِدِ وَذَهَبَ يَطْرُقُ الْبَابَ. قَالَتْ: مَنْ؟ قَالَ: صَالِحُ الْمُؤَذِّنِ، فَفَتَحَتْ فَإِذَا بِهِ فِي حَالَةٍ لَا وَعْيِي فِيهَا يَهْجُمُ عَلَيْهَا وَيَضْمُمُهَا، قَالَتْ: يَا صَالِحُ! أَنْتَ صَاحِبُ أَمَانَةٍ فَمَا هَذِهِ الْخِيَانَةُ! هَذِهِ نَصْرَانِيَّةٌ تُدْرِكُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي قَالَ فِيهِ: «الْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ»^(١).

أَنْتَ أَمِينٌ، يَا صَالِحُ! أَنْتَ صَاحِبُ أَمَانَةٍ فَمَا هَذِهِ الْخِيَانَةُ؟ قَالَ: لَقَدْ أَخَذْتُ بِلُبِّي وَبِمَجَامِعِ قَلْبِي، قَالَتْ: تَزَوَّجْنِي، قَالَ: أَتَزَوَّجُكَ، قَالَتْ: تَخْرُجُ مِنْ دِينِكَ، قَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، مَا أَنْهَى الْأَذَانَ، فِي دَقَائِقِ قَلِيلَةٍ يَقُولُ: أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

أَرْبَعُونَ سَنَةً يُؤَذِّنُ، قَالَتْ: لَا أُصَدِّقُكَ حَتَّى تَأْكُلَ مِنَ الْخِنْزِيرِ فَأَكَلَ مِنَ الْخِنْزِيرِ، قَالَتْ: حَتَّى تَشْرَبَ مِنَ الْخَمْرِ فَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ، فَلَمَّا لَعِبَتْ الْخَمْرَةَ بِرَأْسِهِ هَاجَ عَلَيْهَا فَهَرَبَتْ وَأَغْلَقَتِ الدَّارَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: اذْهَبْ إِلَى السَّطْحِ وَانْتَظِرْ وَالِدِي حَتَّى يَأْتِيَ يُزَوِّجَنِي مِنْكَ، ذَهَبَ إِلَى السَّطْحِ وَلَكِنَّهُ فِي حَالَةٍ هَيْجَانٍ مَا اسْتَقَرَّ عَلَى السَّطْحِ يَمْشِي يَمْنَةً وَيَسْرَةً حَتَّى سَقَطَ مِنْ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٢٤/٤٠) برقم: [٢٤٣٦٣]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [مَا يَجِبُ عَلَى الْمُؤَذِّنِ مِنْ تَعَاهُدِ الْوَقْتِ] (١٤٣/١) برقم: [٥١٧]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٤٥٢/٤) برقم: [٢٨٠٠]، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (٣/٣) برقم: [٥٣٠].

السَّطْحِ مَيْتًا فِي فِنَاءِ بَيْتِهَا.

جَاءَ الْوَالِدُ فَأَخْبَرَ بِالْخَبْرِ فَلَفَّهُ فِي خِرْقَةٍ وَرَمَاهُ فِي السَّكَّةِ، أَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ فِي أَمْرِهِ، فَعَلِمَ خَبْرَهُ وَشَأْنَهُ، فَحَمَلُوهُ فَرَمُوهُ فِي مَزْبَلَةٍ لِأَهْلِ الْحَيِّ، مِنْ مَنَارَةٍ يُرْفَعُ عَلَيْهَا اللَّهُ أَكْبَرُ، وَهُوَ رَافِعُ الْأَذَانِ إِلَى مَزْبَلَةِ الْحَيِّ ثُمَّ إِلَى مَزْبَلَةِ التَّارِيخِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَصَدَقَ رَسُولُنَا ﷺ يَقُولُ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» (١)، وَاللَّهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٥].

يَقُولُ لِي أَحَدُ الشَّبَابِ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: الْوَالِدُ أَرْهَقَنِي أَتَعْبَنِي، مَا شَأْنُ الْوَالِدِ؟ قَالَ: الْوَالِدُ نَأْتِي بِهِ مِنْ دَوْلَةٍ وَيَذْهَبُ إِلَى دَوْلَةٍ أُخْرَى، قُلْتُ: وَالِدُكَ صَاحِبُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ مَعْرُوفٌ مُصَلٍّ فِي الْمَسْجِدِ! قَالَ: تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ، وَقَعَ فِي إِغْرَاءِ الْمَرْأَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: هُوَ بِالضَّبْطِ إِغْرَاؤُهَا كَالْغِرَاءِ إِذَا التَّصَّقَ بِهِ الْمَرْءُ أَوْ التَّصَّقَ بِالْمَرْءِ يَصْعَبُ الْفِكَاكُ.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْحَتُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَطَاهُرِ الْفِتَنِ] (١١٠/١) برقم: [١١٨].

ابن كثير - رحمه الله تعالى - يحكي عن رجل عمله من أعظم الأعمال، إنه يعمل في الجهاد، ما يسمع بغزوة إلا كان في أول الصف، وعمله الآخر: أنه دائماً يكون إماماً للجنود في الصلاة، هذا موفق، قال: فخرجنا فحاصرنا حصناً من حصون الروم، فبينما نحن نرابط حول ذلك الحصن إذا برزت امرأة من شرفة الحصن فراسلها فراسلته، ونحن نتكلم عن زمن المراسلة فيه بدائية، ما هي مثل مراسلة اليوم، فراسلته فراسلها، فقالت: تتزوجني، قال: أتزوجك، فحاولنا معه ولكن قلبه قد شغف حباً بها وتعلق القلب بها، فانسأل إليها داخل الحصن، وبقي معها فرجع الجيش وبقي هو معها.

فمرزنا بتلك القرية بعد مدة من الزمن فإذا هو قد تابط يدها فصحننا عليه من بعيد، هذا اسمه عبدة بن عبد الرحيم، قلنا: يا عبدة بن عبد الرحيم! ما فعل علمك؟ ما يتكلم، يا عبدة بن عبد الرحيم! ما فعل إيمانك؟ ما يتكلم، يا عبدة بن عبد الرحيم ما فعل كذا وكذا؟ ما يرد حتى قال له أحدنا: يا عبدة بن عبد الرحيم! ما فعل قرآنك يعني قرآنك الذي كنت تحفظه وتصلني به، فتكلم فقال: لقد أنسيته كله إلا آية واحدة:

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا

وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢-٣].

كما قلت وأقول دائماً: خطبة الجمعة ليست وقتاً نذكر فيه هذه

الآياتِ وَالْأَحَادِيثِ وَالْقِصَصِ لِنَقْضِي وَقْتًا ثُمَّ نَذْهَبُ إِلَى بُيُوتِنَا، وَإِنَّمَا هِيَ مَدْرَسَةٌ نَتَرَبَّى فِيهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْإِقْتِدَاءِ بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ، نَضَعُ هَذِهِ الْوِقَايَةَ وَنَدْعُو الْمَوْلَى **سَيِّدِنَا مُحَمَّدًا** أَنْ يُبَيِّنَنَا عَلَى دِينِهِ.

كَيْفَ نَنْجُو مِنْ غِرَاءِ الْإِغْرَاءَاتِ؟

لَا يَكْفِي أَنْ نَذْكَرَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطْبَةِ فَإِنَّهَا تَكُونُ مَبْتُورَةً، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ الْعِلَاجِ وَذِكْرِ الْوِقَايَةِ، كَيْفَ نَنْجُو مِنْ غِرَاءِ الْإِغْرَاءَاتِ؟
أولاً: لَا تُحَاوِلْ أَنْ تُجَرِّبَ فَالْغِرَاءُ لَا يُجَرَّبُ، لَا تَقُلْ: سَأُجَرِّبُ نَفْسِي وَأَرَى كَمْ أَنَا قَوِيٌّ، لَا، لَا تَفْعَلْ، فَيُوسُفُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وَهُوَ أَقْوَى مِنْكَ كَانَ يَقُولُ كَمَا قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ**: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، لَا تَقُلْ: أُجَرِّبُ، لَا مَجَالَ لِلتَّجْرِبَةِ فَإِنَّكَ إِذَا جَرَّبْتَ، وَقَعْتَ، هَذَا غِرَاءٌ وَلَيْسَ أَيُّ شَيْءٍ.

ثانياً: ضَعِ الْآخِرَةَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، الْقَبْرُ لَا بُدَّ أَنْبِي وَإِيَّاكَ سَنَدْخُلُهُ، فَمَا أَنْ يَكُونَ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّيْرَانِ، طَالَ بِكَ الْعُمُرُ أَوْ قَصُرَ، مَا نَقْدُمُهُ هُنَا سَنَجِدُهُ هُنَاكَ، ضَعِ هَذَا بَيْنَ عَيْنَيْكَ.

ثالثاً: اعْلَمْ أَنَّ مَنْ طَرَقَ بَابَ النَّاسِ طَرَفُوا بَابَهُ، دَيْنٌ، أَيُّهَا الشَّابُّ! عِنْدَكَ أَخَوَاتٌ وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ تَكُونُ عِنْدَكَ بَنَاتٌ، فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَكُونُ عِنْدَكَ حَفِيدَاتٌ مَا يَنْتَهِي **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾** [الفجر: ١٤]، لَيْسَ الْيَوْمَ

ولكن بعد عشرين سنة، ليس بعشرين سنة يكون بأربعين سنة، اعلم أن من طرقت أبواب الناس؛ طرقت الناس بابه.

الشاب الذي جاء إلى النبي ﷺ أعطاه هذا التوجيه قال: «أتجبه لأُمَّك؟» قال: لا. والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لأُمَّهاتهم». قال: «أفتجبه لابنتك؟» قال: لا. والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتجبه لأختك؟» قال: لا. والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتجبه لعمتك؟» قال: لا. والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتجبه لخالتيك؟» قال: لا. والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»^(١).

وذكرتكم من قبل بقول الشافعي:

عَفُوا تَعَفُّ نِسَاؤُكُمْ فِي الْمُحَرَّمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
إِنَّ الزَّانَا دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمْ
مَنْ يَزِنُ يُزَنَ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبَيْبًا فَافْهَمْ
مَنْ يَزِنُ فِي بَيْتٍ بِالْفِي دَرَاهِمٍ فِي بَيْتِهِ يُزْنَى بِغَيْرِ الدَّرَاهِمِ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٤٥/٣٦) برقم: [٢٢٢١١]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٦٢/٨) برقم: [٧٦٧٩]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٢٩٥/٧) برقم: [٥٠٣٢]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٧١٢/١).

أَمْرٌ لَيْسَ سَهْلًا، لَا تَقُلْ: خَلَّصْ نَجْرِبُ الْآنَ لَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي
تُجْرِبُ هُنَاكَ مَنْ يُجْرِبُ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُجْرِبُ فِيهِ فِي غَيْرِكَ هُنَاكَ
الَّذِي يُجْرِبُ فِي مَكَانٍ آخَرَ انْتَبِهْ، أَقُولُ ذَلِكَ لِنَفْسِي وَلَكَ فَلَا تُجْرِبْ،
وَضَعْ الْآخِرَةَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ دَيْنٌ.

وَالرَّابِعَةُ: اعْتَصِمَ بِاللَّهِ، لُذِّبَهُ، إِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَدْفَعُكَ إِلَى الْحَرَامِ
قُلْ: يَا رَبِّ قِنِي الْحَرَامَ.

يَقُولُونَ لِأُمَّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ! نَبِينَا ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ مَا أَكْثَرَ مَا
يَدْعُو؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرَ دَعَائِهِ «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»،
هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ!
رَأَيْتِكَ تَكْثُرُ مِنْ قَوْلٍ: يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَ:
«يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إِنَّهُ لَيْسَ أَدْمِي إِلَّا كَانَ قَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ إِنْ
شَاءَ أَقَامَ وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَ»، كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ مِنْ شَرِّ
سَمْعِي وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي وَمِنْ شَرِّ مَنِّي»،
هَكَذَا كَانَ يَدْعُو ﷺ.

إِنَّ غَرَائِغَ الْإِغْرَاءَاتِ خَطِيرٌ فَلَا بُدَّ مِنَ النَّجَاةِ مِنْهُ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْحَذَرِ،
لَا بُدَّ مِنَ الْاِعْتِصَامِ بِاللَّهِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شِرَاكِهِ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

١٥

مَشْرُوعُ الْحَيَاةِ

عباد الله ...

عُنْوَانُ خُطْبَةِ الْيَوْمِ: مَشْرُوعُ الْحَيَاةِ، وَهُوَ تَكْمِلَةٌ لِمَا تَحَدَّثْنَا عَنْهُ فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي، هَلْ عِنْدَكَ مَشْرُوعٌ تَعْمَلُ عَلَيْهِ يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ مُؤَثِّرٌ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَيَصِلُ إِلَيْكَ نَفْعُهُ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ، هَلْ تَحْمِلُ هَمَّ هَذَا الْمَشْرُوعِ؟ هَلْ تَفَكَّرُ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ وَتَبْحَثُ عَنِ السَّبِيلِ الَّتِي بِهَا تَرَى مَشْرُوعَكَ؟

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا خَلَقَنَا لَمْ يَخْلُقْنَا عَبَثًا فَقَالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿[المؤمنون: ١١٥-١١٦]، اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ تَكُونَ لَنَا أَعْمَالٌ تَنْفَعُ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ تَنْهَضُ بِهَا هِمَمُ الْآخِرِينَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ.

لِذَا قَالَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وَحَيَاةُ الْعَبْدِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ كُلُّ أَعْمَالِهِ قَائِمَةٌ تَدُورُ فِي هَذَا الْفَلَكَ فَلَكَ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، سِوَاءَ كَانَ هَذَا الْعَمَلُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، أَوْ كَانَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ.

إِنَّ سَلَفَ الْأُمَّةِ كَانُوا يَكْرَهُونَ وَيُبْغِضُونَ وَيَمْقُتُونَ أَنْ يَرَوْا الرَّجُلَ فَارِغًا عَاطِلًا بَاطِلًا لَا فِي خَيْرٍ دُنْيَا وَلَا فِي خَيْرٍ دِينٍ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا

فَيُعْمِرُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ فَيُعْمِرُ الْآخِرَةَ.
يَقُولُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كَلِمَةٍ رَائِعَةٍ: «إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرَى أَحَدَكُمْ سَبَهْلًا
لَا فِي عَمَلٍ دُنْيَا وَلَا فِي عَمَلٍ آخِرَةٍ»، أَيْرَضِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ سَبَهْلًا
لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي الْمَجْتَمَعِ، خَاصَّةً أَبْنَائِي وَإِخْوَانِي
السَّبَابِ، يَقُولُ لَهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ، فَارِغًا لَا
فِي عَمَلٍ دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ»^(١)، هَكَذَا أَرَادَ أَنْ يَهْمَشَ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى
هَامِشِ التَّأثيرِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا لَا قِيَمَةَ لَهُ أَبَدًا وَلَا يُذَكَّرُ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا وُجِدَ
أَوْ عُدِمَ؛ لَا يُشْعَرُ بِوُجُودِهِ وَلَا بَعْدَمِهِ.

عِلْمًا بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَنَا كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ
التِّرْمِذِيِّ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا
أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ
جِسْمِهِ، فِيمَا أَبْلَاهُ»^(٢)، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَرَّكَ أَقْدَامُهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ
عَنْ هَذِهِ الْخَمْسِ.

إِنَّ الْأَفْرَادَ يُقَاسُونَ بِالْإِنْجَازَاتِ لَا بِالسِّنِينَ وَالسَّنَوَاتِ، يُقَاسُ عَطَاءُ
الْأَفْرَادِ بِالْإِنْجَازَاتِ لَا بِالْأَعْمَارِ وَالسَّنَوَاتِ، فَكَمْ مِنَ النَّاسِ عَاشَ أَكْثَرَ

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٠٢/٩) برقم: [٨٥٣٨].

(٢) أخرجه الدارمي في "سننه" باب: [مَنْ كَرِهَ الشُّهْرَةَ وَالْمَعْرِفَةَ] (٤٥٢/١) برقم: [٥٥٤]، وأخرجه الترمذي في "سننه"
باب: [فِي الْقِيَامَةِ] (٦١٢/٤) برقم: [٢٤١٦]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الصغير" (٤٩/٢) برقم: [٧٦٠]، وصححه الألباني
في "صحيح الجامع" (١٢٢١/٢) برقم: [٧٣٠٠].

مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ لَيْسَ لَهُ تَأْثِيرٌ، وَكَمْ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَتَجَاوَزْ عُمُرُهُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً لَا نَزَالَ نَذْرُهُ وَسَيَذْكُرُهُ النَّاسُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لِيَا قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي آيَةٍ عَظِيمَةٍ فِي سُورَةِ يَس: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، مَا نَكْتُبُ كَمْ عَمَرَ نَكْتُبُ مَاذَا قَدَّمَ، نَكْتُبُ آثَارَهُ. اجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْعُظَمَاءِ الْأَجْلَاءِ مِمَّنْ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اجْتَمَعُوا فِي الْحَجْرِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَعَلَى مَاذَا اجْتَمَعُوا وَمَنْ هُوَ لَأَيُّ؟

الأوَّل: عَبْدُ اللَّهِ، وَالثَّانِي: عُرْوَةُ، وَالثَّلَاثُ: مُضْعَبٌ، وَجَمِيعُهُمْ أَبْنَاءُ الزُّبَيْرِ، وَرَأْبِعُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ: تَمَنَّوْا، أَيُّ: مَا هِيَ مَشَارِعُكُمْ وَإِلَى مَاذَا تَطْمَحُونَ؟ لَيْسَتْ أَمَانِي فَارِغَةً كَاذِبَةً، وَلَكِنهَا مَشَارِعٌ مُسْتَقْبَلِيَّةٌ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَتَمَنَّى الْخِلَافَةَ، يَعْنِي أَخْطَطُ لِأَنَّ أَكُونَ خَلِيفَةً حَاكِمًا، وَقَالَ عُرْوَةُ: أَتَمَنَّى أَنْ يُؤَخَذَ عَنِّي الْعِلْمُ، يَعْنِي أَنْ أَكُونَ عَالِمًا، وَقَالَ مُضْعَبٌ: أَتَمَنَّى إِمْرَةَ الْعِرَاقِ وَالْجَمْعَ بَيْنَ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ وَسُكَيْنَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ.

فَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَاتَمَنَّى أَنْ يُعْفَرَ لِي، هَذَا طُمُوحُهُ، قَالَ الرَّأْيِيُّ: فَنَالَ الثَّلَاثَةُ مَا تَمَنَّوْا، وَضَعُوا أَهْدَافًا وَوَصَلُّوا إِلَيْهَا، وَلَعَلَّ

ابْنُ عُمَرَ قَدْ نَالَ مَا تَمَنَّى فُغْفِرَ لَهُ.

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامَ

هَكَذَا إِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنْهَضَ؛ يَضَعُ لَهُ مَشْرُوعًا نُصِبَ عَيْنِيهِ،
يَخْرُجُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ فَيَلْتَقِي بِشَقِيقِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْبَلْخِيِّ فَإِذَا بِشَقِيقٍ
ضَعِيفٍ يَلْبَسُ ثِيَابًا رَدِيئَةً، ظَهَرَ عَلَيْهِ آثَارُ التَّنَسُّكِ وَالزُّهْدِ وَالْوَرَعِ، اعْتَزَلَ
النَّاسَ، وَجَلَسَ عَلَى هَامِشِ الْمُجْتَمَعِ ظَنَّ مِنْهُ أَنَّ هَذَا يُقَرِّبُهُ مِنَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ
إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ: مَا الَّذِي حَمَلَكَ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ، وَرَأَيْتُ
وَأَنَا فِي بَعْضِ الْخَلَوَاتِ طَائِرًا مَكْسُورَ الْجَنَاحَيْنِ قَابِعًا تَحْتَ شَجَرَةٍ يَأْتِيهِ
طَائِرٌ صَحِيحٌ يَحْمِلُ فِي مَنْقَارِهِ جَرَادَةً يَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقُلْتُ: «إِذَا اللَّهُ
تَكَفَّلَ بِرِزْقِ هَذَا الطَّائِرِ الكُسِيرِ، فَسَاعَمَلُ مِثْلَهُ أَي: سَأَجْلِسُ حَتَّى يَأْتِيَنِي
رِزْقِي» سَبَّحَانَ اللَّهِ هَذِهِ رُؤْيَةٌ مَنكُوسَةٌ مَقْلُوبَةٌ، وَهَذَا فَهَمٌّ قَاصِرٌ، فَإِذَا
بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ يَقُولُ لَهُ: لِمَا رَضِيتَ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ الطَّائِرَ الكُسِيرَ
وَلَمْ تَرْضَ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ الطَّائِرَ الصَّحِيحَ؟ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:
« الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، فَالْيَدُ الْعُلْيَا: هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى:
هِيَ السَّائِلَةُ »^(١)، فَمَا كَانَ مِنْ شَقِيقٍ إِلَّا أَنْ قَبَّلَ يَدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ وَقَالَ:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَن ظَهْرِ غَنَى] (١١٢/٢) برقم: [١٤٢٩]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بَيَانُ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ وَأَنَّ السُّفْلَى هِيَ الْأَخِذَةُ] (٧١٧/٢) برقم: [١٠٣٣].

أَنْتَ أَسْتَاذُنَا يَا أَبَا إِسْحَاقَ .

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ مِنَّا مَشْرُوعٌ وَلَا يَحْتَقِرَ نَفْسَهُ، فَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 قَادَ جَيْشًا عَرْمَرَمًا فِيهِ كِبَارُ الصَّحَابَةِ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُمَرُ لَمْ
 يَتَجَاوَزْ الْعِشْرِينَ سَنَةً، إِنِّي لَأَحْزَنُ حِينَمَا أَرِي بَعْضَ شَبَابِنَا وَهُمْ يَلْعَبُونَ
 فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ لَا هَمَّ لَهُمْ - سُبْحَانَ اللَّهِ - بَعْضُهُمْ لَيْسَ لَهُ قِيَمَةٌ فِي
 الْمُجْتَمَعِ، يَدُورُ بِسَيَّارَتِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَقْضِي سَاعَاتِ عُمَرِ الْعَزِيزَةِ
 الْغَالِيَةِ وَهُوَ فِي ذَهَابٍ وَإِيَابٍ، أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الشَّابُّ إِذَا وَضَعْتَ رَأْسَكَ
 عَلَى الْوِسَادَةِ قُلْ لِنَفْسِكَ: مَاذَا قَدَّمْتَ؟ مَاذَا حَقَّقْتَ؟ أَيْعَقَلُ أَنْ تَكُونَ مِنَ
 الْمَوْتَى! فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الرَّجُلَ الْفَارِغَ مَيِّتًا لَا قِيَمَةَ لَهُ.

يَقُولُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ
 سِنِينَ، وَحَفِظْتُ الْمُوْطَأَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ.

كُنْ قَنَاصًا لِلْفُرْصِ فَإِنَّ الْفُرْصَ فِي الْغَالِبِ لَا تَتَكَرَّرُ، عُمْرُكَ فُرْصَةٌ
 وَشَبَابُكَ فُرْصَةٌ، وَجَاهُكَ فُرْصَةٌ، وَأَمْوَالُكَ فُرْصَةٌ، وَحَيَاتُكَ كُلُّهَا فُرْصَةٌ،
 كُنْ قَنَاصًا لِلْفُرْصِ، إِذَا سَعَى أَهْلُ الدُّنْيَا عَلَى مُنْكَرَاتِهِمْ فَعَمَّرُوهَا،
 وَفُجُورِهِمْ فَأَقَامُوهَا؛ فَاسْعَ أَنْتَ لِمَا تَخْدُمُ بِهِ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ مِمَّا يَعُودُ
 عَلَيْكَ نَفْعُهُ فِي حَيَاتِكَ وَبَعْدَ مَوْتِكَ .

عَبْدُ اللَّهِ ... انظُرْ إِلَيَّ هَذَا الْقَنَاصِ الَّذِي اقْتَنَصَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ

العَظِيمَةَ، وَأَذْكَرُ لَكُمْ مِثَالَيْنِ، مِثَالُ مَضَى وَمِثَالُ يَعِيشُ مَعَنَا لَا يَزَالُ حَيًّا،
أَسْأَلُ الْمَوْلَى **وَتَجَالَى اللَّهُ** أَنْ يَمُدَّ فِي عُمُرِهِ فِي طَاعَتِهِ وَرِضَاهِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ سُلَيْمَانُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يَأْتِيهِ الْهَدُودُ يُنْقَلُ لَهُ خَبْرًا يَقُولُ لَهُ: أَنَّهُ
رَأَى شَيْئًا مُنْكَرًا عَظِيمًا، رَأَى مَمْلَكَةً قِيَادَتِهَا وَشَعْبُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ، **﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾** وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ **﴿[النمل: ٢٣-٢٤]**،
فَفَرِحَ سُلَيْمَانُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَنَّهُ رَأَى مَشْرُوعًا عَظِيمًا أَرَادَ أَنْ يُقِيمَهُ عَلَى أَرْضِ
الْوَاقِعِ كَيْفَ يُصْلِحُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ وَكَيْفَ يَجُرُّهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَكَيْفَ
يَجْعَلُهَا مَسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِ اللَّهِ؟ فَإِذَا بِهِ يَنْجَحُ، وَاقْرَأُوا فِي سُورَةِ النَّمْلِ تِلْكَ
القِصَّةَ الرَّائِعَةَ الَّتِي جَاءَ فِي آخِرِهَا قَوْلُ مَلِكَةٍ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ: **﴿إِنِّي ظَلَمْتُ
نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** **﴿[النمل: ٤٤]**، الْإِنْسَانُ إِذَا
وَضَعَ فِي رَأْسِهِ هَدَفًا؛ حَقَّقَهُ بِإِذْنِ الْمَوْلَى.

وَانظُرْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الْمُعَاصِرِ الَّذِي وَضَعَ لِنَفْسِهِ هَدَفًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ
يُحَقِّقَهُ لَا، بَلْ أَنْ يُحَقِّقَ أَهْدَافًا ضَمِينِيَّةً مَعَهُ، إِنَّهُ الْحَائِزُ عَلَى جَائِزَةِ الْمَلِكِ
فِيصِلُ الْعَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الْإِسْلَامِ، قَضَى فِي مَشْرُوعِهِ تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً،
مَاذَا كَانَتْ الْمُحَصَّلَةُ لِهَذَا الْمَشْرُوعِ؟ تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً هِيَ أَعْمَارُ

أَغْلِبْنَا، انْظُرْ كَيْفَ قَضَيْنَاهَا وَانْظُرْ كَيْفَ قَضَاهَا هُوَ .

يُسَلِّمُ عَلَى يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانِيَةِ مَلَائِينَ وَنِصْفِ إِنْسَانٍ، هَذِهِ أَعْمَالُ
دَوْلٍ مَا فَعَلَتْ فَعَلَهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ، يَبْنِي أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةِ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةٍ
مَسْجِدٍ، يَرَعَى أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ يَتِيمٍ، يَحْفَرُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِمِائَةٍ
وَخَمْسِينَ بَيْتًا، يُنْشِئُ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانِمِائَةٍ وَسِتِّينَ مَدْرَسَةً، يُنْشِئُ أَرْبَعَ
جَامِعَاتٍ، يُنْشِئُ مَائَتِينَ وَأَرْبَعَةَ مَرَاكِزَ إِسْلَامِيَّةٍ .

إِنِّي لَا أَتَكَلَّمُ عَنْ دَوْلَةٍ، وَلَا عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الدُّوَلِ، أَنَا أَتَكَلَّمُ عَنْ
رَجُلٍ وَضَعَ لَهُ مَشْرُوعًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَرَاهُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، إِنَّهُ الدُّكْتُورُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مَحْمُودِ السَّمِيطِ الرَّجُلُ الْكُوَيْتِيُّ الطَّيِّبُ الَّذِي تَرَكَ مَا
هُوَ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَاتَّجَهَ إِلَى أَفْرِيْقِيَا حَيْثُ الْفَقْرُ وَالْعَوْرُ وَالْأَمْرَاضُ،
وَضَعَ لِنَفْسِهِ مَشْرُوعًا فَإِذَا بِهِ يَنْجَحُ بِاقْتِدَارٍ .

لِيَكُنْ لِنَا مَشْرُوعٌ يُؤَثِّرُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ تَنْتَفِعُ بِهِ بُلْدَانُنَا وَأُمَّتُنَا وَنَنْتَفِعُ
بِهِ فِي حَيَاتِنَا وَبَعْدَ مَوْتِنَا ، وَاحْذَرِ الْمُعَوَّقَاتِ الَّتِي سَتَعْتَرِضُ طَرِيقَكَ ، مَا
أَنْ يُفَكِّرَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَتَنْهَضَ هِمَّتُهُ؛ إِلَّا وَاعْتَرَضَتْهُ بَعْضُ
الْمُعَوَّقَاتِ ، أَذْكَرُهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِيْجَازِ :-

الأوَّلُ: الْيَأْسُ وَالْاِسْتِسْلَامُ، يَضَعُ لَهُ مَشْرُوعًا فَإِذَا بِهِ يِيَأْسُ وَيَسْتَسْلِمُ
لِمَرَضٍ فِي نَفْسِهِ أَوْ لِأَصْوَاتٍ نَاشِزَةٍ تَأْتِيهِ وَتَقُولُ لَهُ: أَنْتَ تُؤَدِّنُ فِي خَرَابَةٍ،

لَا تُتْعَبُ نَفْسَكَ، فَيَتْرُكْ هَذِهِ الْمَشَارِيعَ يَسْتَسْلِمُ وَيِيَّاسُ وَالنَّبِيُّ ﷺ حَذَرَ
مِنَ الْاِسْتِسْلَامِ وَالْيَاسِ، وَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ الْعَجِيبَةِ.

يَقُولُ عِمَارَةُ: جَاءَ عُمَرُ إِلَى وَالِدِ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: يَا
خُزَيْمَةُ! لِمَ لِمَ أَرَكُ تَغْرِسُ؟ قَالَ خُزَيْمَةُ: يَا عُمَرُ! أَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ أَمُوتُ
غَدًا، قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا غَرَسْتَهَا، يَقُولُ عِمَارَةُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عُمَرَ
أَخِذُ بِيَدِ أَبِي يَغْرِسُهَا مَعَهُ، انْظُرْ إِلَى هَذَا الْمَفْهُومِ الْخَاطِئِ يَقُولُ: أَنَا غَدًا
أَمُوتُ، طَيِّبُ هَبْ أَنَّكَ مِتَّ سَيِّئِي هَذَا الزَّرْعُ فِي حَسَنَاتِكَ، كُلُّ مَنْ أَكَلَ
مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ وَانْتَفَعَ بِهَذَا الْمَشْرُوعِ فِي حَسَنَاتِكَ، كُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ
وَأَتَمَّ هَذَا الْمَشْرُوعِ فِي حَسَنَاتِكَ، وَنَبِيْنَا ﷺ يَقُولُ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ
وَبِيدُ أَحَدِكُمْ فِسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ» (١)،
رَوَاهُ أَحْمَدُ، فَاحْذَرِ الْيَاسَ وَالْاِسْتِسْلَامَ.

ثَانِيًا: احْذَرِ الْعَجْزَ، لَا تَكُنْ عَاجِزًا خَاصَّةً الطُّلَّابَ الَّذِينَ سَيَتَخَرَّجُونَ
فِي هَذَا الْعَامِ وَعِنْدَهُمْ طُمُوحٌ، فَيَرَى الْأَرْبَعِ سِنَوَاتٍ وَالْعَشْرَ سِنَوَاتٍ
طَوِيلَةً أَقُولُ: لَيْسَتْ طَوِيلَةً بَلْ هِيَ فِي عُمُرِ الزَّمَنِ قَصِيرَةٌ، ضَعْ لَكَ هَدَفًا
تَصِلُ إِلَيْهِ بَعْدَ عَشْرِ سِنَوَاتٍ، وَاعْمَلْ عَلَى هَذَا الْهَدَفِ، اعْمَلْ عَلَى هَذَا
الْهَدَفِ وَلَا تَعْجِزْ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٩٦/٢٠) برقم: [١٢٩٨١]، وأخرجه البزار في "مسنده" (١٧/١٤) برقم: [٧٤٠٨]،
وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣٨/١) برقم: [٩].

اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ اِحْرَاصٌ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنُ
بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا،
وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» (١).

وَتَالِثُ هَذِهِ الْمَعْوَقَاتِ: احْذَرِ الْاسْتِعْجَالَ لَا تَسْتَعْجِلْ، فَإِنَّ بَعْضَ
الْمَشَارِيعِ لَا تُؤْكَلُ ثِمَارُهَا إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً،
وَفَقَهَاؤُنَا قَدْ قَرَّرُوا قَاعِدَةً قَالُوا فِيهَا: مَنْ اسْتَعْجَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوَانِهِ؛
عُوقِبَ بِحَرْمَانِهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وَتَمْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ] (٢٠٥٢/٤) برقم: [٢٦٦٤].

١٦

فريضة الحج وآفة التردد

عباد الله ...

مِنَ الْآفَاتِ الْبَغِيضَةِ الَّتِي نَتَعَرَّضُ لَهَا: آفَةُ التَّرَدُّدِ، فَهِيَ آفَةٌ خَطِيرَةٌ إِذَا ابْتُلِيَ بِهَا أَحَدُنَا، فَقَدْ ابْتُلِيَ بِشَرِّ عَظِيمٍ، يَتَرَدَّدُ فِي قَرَارَاتِهِ، يَفْعَلُ أَوْ لَا يَفْعَلُ، يَذْهَبُ أَوْ لَا، يَقُومُ أَوْ يَقْعُدُ، يَشْتَرِي أَوْ لَا، فَيَدُورُ فِي هَذِهِ الدَّائِرَةِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَضِيعُ بِهَا الْأَوْقَاتُ، وَتُهْدَرُ فِيهَا الْجُهُودُ وَالطَّاقَاتُ، آفَةُ التَّرَدُّدِ، يَتَوَلَّدُ مِنْهَا جُنْدِيٌّ خَبِيثٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذِهِ الْآفَةِ آفَةٌ أُخْرَى وَهِيَ آفَةُ التَّسْوِيفِ، يَتَرَدَّدُ أَفْعَلُ أَوْ لَا أَفْعَلُ، ثُمَّ تَرَاهُ يَقُولُ: سَوْفَ أَفْعَلُ، أَشْتَرِي أَوْ لَا أَشْتَرِي، ثُمَّ تَرَاهُ يَقُولُ: سَوْفَ أَشْتَرِي.

وَأَخْطَرُ حَالَاتِ التَّرَدُّدِ وَأَخْطَرُ حَالَاتِ التَّسْوِيفِ: حِينَمَا يَتَرَدَّدُ الْعَبْدُ عَنِ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَحِينَمَا يُسَوِّفُ فِي فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، هَذَا أَخْطَرُ مَا يَكُونُ، حِينَمَا يَتَرَدَّدُ يَقُولُ: مَا أَدْرِي أَصَلِّي أَوْ لَا، أَصُومُ أَوْ لَا، أَزْكِي مِنْ هَذَا الْعَامِ أَوْ لَا، أَخْطَرُ مَا يَكُونُ هُوَ التَّرَدُّدُ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالتَّسْوِيفُ فِي فِعْلِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ.

وَمَا يُذَكِّرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ: التَّرَدُّدُ عَنِ آدَاءِ فَرِيضَةِ الْعُمْرِ الْحَجِّ، الْآنَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ تَمُرُّ عَلَيَّ بَعْضُنَا هَذِهِ الْحَالَةَ مِنْ التَّرَدُّدِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَهُوَ يَرَى هَذِهِ الْإِعْلَانَاتِ، وَبَعْضُ إِخْوَانِهِ وَرُؤْمَلَائِهِ يَسْتَعِدُّونَ لِآدَاءِ فَرِيضَةِ الْعُمْرِ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَقُولُ: لَا أَدْرِي أَحْجُ هَذَا الْعَامَ

أم لا ، فَيَبْرُزُ لَهُ هَذَا الْجُنْدِيُّ الْخَبِيثُ سَوْفَ أَجْعَلُهَا فِي السَّنَةِ الْقَادِمَةِ .
 فإذا به تَمْضِي بِهِ الْأَيَّامُ وَمَا أَدَّى فَرِيضَةَ الْعُمْرِ - سبحان الله - كَيْفَ
 وَقَدْ قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَدِّثًا مِنْ هَذَا التَّسْوِيفِ الْخَطِيرِ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ
 أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا
 إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-
 ١٠٠]، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا*
 كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا* وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا* وَجِيءَ
 يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى* يَقُولُ يَا لَيْتَنِي
 قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٠-٢٤]، يَتَأَسَّفُ عَلَى حَالَةِ التَّرَدُّدِ الَّتِي عَاشَهَا،
 وَحَالَةَ التَّسْوِيفِ الَّتِي أَثَرَتْ فِيهِ.

كَمْ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ فَيَسَافِرُ نَاحِيَةَ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ،
 وَيَخْطُ الْأَرْضَ جَنُوبًا وَشَمَالًا، وَلَكِنَّهُ عَنِ آدَاءِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ يَتَوَقَّفُ وَهِيَ
 فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ، وَلَعَلَّ أَحَدَنَا يَقُولُ: لِمَاذَا يَتَرَدَّدُ هُوَ لَاءِ؟ أَقُولُ:
 تَجِدُ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: مَا شَبِعْتُ مِنَ الدُّنْيَا، يَعْنِي مَا شَبِعَ مِنَ الْحَرَامِ، وَإِلَّا
 لَدَاتُ الدُّنْيَا فِي الْحَلَالِ جَائِزَةً، هُوَ يَقْصِدُ مَا شَبِعَ مِنَ الْحَرَامِ، يَقُولُ: مَا
 شَبِعْتُ مِنَ الدُّنْيَا، وَآخِرُ يُقَالُ لَهُ: يَا فُلَانُ مَا أَدَيْتَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ إِلَى هَذَا
 الْعُمْرِ؟ قَالَ: أَخْشَى أَنْ أَذْهَبَ إِلَى فَرِيضَةِ الْحَجِّ ثُمَّ أُفْسِدَهَا، يَعْنِي يُضْمِرُ

شَرًّا وَيُنَوِّي سُوءًا يَقُولُ: أَخْلِيهَا لِأَخْرِ الْعُمْرِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مَلَكُ الْمَوْتِ
أَذْهَبُ إِلَى الْحَجِّ وَأَنْتَى لَهُ هَذَا الْأَمْرُ.

هَا نَحْنُ نَرَى مَلَكَ الْمَوْتِ يَتَخَطَّفُ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ، يَتَخَطَّفُ
الْأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ، فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ، مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ أَنْ أَبْقَاكَ
أَنْتَ وَمَضَى بِأَوْلِيكَ.

وَأَخْرَ يَقُولُ: أَنَا صَغِيرٌ، وَمَا يَدْرِي أَنَّ الْأَعْمَارَ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ، إِلَى
جَمِيعِ إِخْوَانِي الْمُرْتَدِّينَ عَنْ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ أُرْسِلُ لَهُمْ بِهَذِهِ الرَّسَالَةِ،
وَأَذْكَرُهُمْ بِهَذِهِ الْأُمُورِ:-

عَبْدَ اللَّهِ ... اعْلَمْ أَنَّ الْحَجَّ وَاجِبٌ، وَثَانِيًا: تَعْجَلْ بِالْحَجِّ فَإِنَّكَ مَا
تَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَكَ، وَثَالِثًا: دُونَكَ فَضَائِلُ الْحَجِّ.

أَمَّا أَنَّ الْحَجَّ وَاجِبٌ: فَإِنَّ الْمَوْلَى ﷻ يَقُولُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ
الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:

٩٧]، وَرَسُولُنَا ﷺ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» (١)،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»]
[١١/١] برقم: [٨]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ]
[٤٥/١] برقم: [١٦] واللفظ للبخاري.

فَهُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَةِ يَقُومُ عَلَيْهِ هَذَا الْبِنَاءُ.
وَرَسُولُنَا ﷺ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي
هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»^(١)، هُوَ
فَرِيضَةٌ فِي رِقَابِنَا نَلْقَى اللَّهَ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ فَلِمَاذَا التَّرَدُّدُ.

وَتَانِي هَذِهِ الرَّسَائِلُ : تَعَجَّلْ بِالْحَجِّ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَكَ،
الَّذِي حَجَّ ارْتَاخَ لَكِنَّ الَّذِي مَا حَجَّ مَا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ، الْغَنِيُّ قَدْ يَفْتَقِرُ،
وَالصَّحِيحُ قَدْ يَمْرُضُ وَالْأَحْوَالُ تَبَدَّلُ، هَا نَحْنُ فِي أَقَلِّ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً
رَأَيْنَا كَيْفَ تَعَدَّلَتْ الْأَحْوَالُ إِلَى الْأَحْسَنِ، هَلْ نَضْمَنُ فِي الْخَمْسِينَ سَنَةً
الْقَادِمَةِ أَنْ تَتَغَيَّرَ الْأَحْوَالُ إِلَى الْأَسْوَأِ؟ هَذَا عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ **سُبْحَانَهُ**.

لِذَا يَقُولُ ﷺ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ:
«تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ - يَعْنِي: الْفَرِيضَةَ - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ»^(٢)،
لَا تَدْرِي مَا يَحْصُلُ، أَتَدْرُونَ كَمْ هِيَ أَيَّامُ الْحَجِّ؟

الْحَجُّ الصَّحِيحُ، لَا يُوجَدُ شَيْءٌ اسْمُهُ حَجٌّ سَرِيعٌ، هَذِهِ خُدْعَةٌ قَالَتْهَا
بَعْضُ الْحَمَلَاتِ، الْحَجُّ خَمْسَةٌ أَيَّامٍ، هَذَا الَّذِي يَقْضِي فِي كُلِّ عَامٍ ثَلَاثَةَ
أَشْهُرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ أَوْ أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ فِي رِحَالَاتٍ سِيَاحِيَّةٍ نَقُولُ لَهُ :

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فَرَضَ الْحَجَّ مَرَّةً فِي الْعُمْرِ] [٩٧٥/٢] برقم: [١٣٣٧].

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٨/٥) برقم: [٢٨٦٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٦٩/١) برقم: [٢٩٥٧]،
واللفظ لأحمد.

الحجّ المشروع خمسة أيام، يوم التروية، يوم عرفة وثلاثة أيام التشريق للمتأخر، خمسة أيام الحج فقط، ومع ذلك فإن لكم إخوة من المسلمين أعدادهم بالملايين يحلم أحدهم بالحج يحلم فقط لا يستطيع قضاء فريضة الحج، ليس له من المساحة إلا أن يحلم بالحج، واليوم الواحد منا يصلي الجمعة هنا، ويستطيع أن يصلي العصر بجوار مكة فضل عظيم، هذا سيسأل عنه العبد هذا من النعيم خمسة أيام، ومن فضل الله **سبحانه** أن خمسة الأيام هذه أغلبها إجازة فلماذا التردد؟ إذا «تعجلوا إلى الحجّ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له».

وثالث هذه الرسائل: أذكركم عباد الله ببعض فضائل الحج .

أما الأوّل: ما جاء في صحيح البخاريّ من حديث أبي هريرة قال **صلى الله عليه وسلم**: «من حجّ هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١)، والله، يكفي هذا الحديث، عبد الله، ألا يحرك فيك هذا الحديث ساكنًا، ألا يرفع عنك حالة التردد؟

الحديث الآخر: يقول فيه نبينا **صلى الله عليه وسلم**: «العمره إلى العمرة كفارة لما

بينهما، والحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} {البقرة: ١٩٧}] [١١/٣] برقم: [١٨٢٠].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [وَجُوبِ الْعُمْرَةِ وَفَضْلِهَا] [٢/٣] برقم: [١٧٧٣]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فِي فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ] [٩٨٣/٢] برقم: [١٣٤٩]، واللفظ للبخاري.

والحديث الثالث: ما جاء في صحيح مسلم، يأتي عبد الله بن عمرو بن العاص يأتي مشركاً ليبيع النبي ﷺ على الإسلام فيقول: يا رسول الله! ابسط يمينك فلأبائعك، فبسط ﷺ يمينه، الآن سيعلن الإسلام عبد الله بن عمرو بن العاص، فأمسك عبد الله بن عمرو بن العاص يده، قال: «ما لك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشتري، قال: «تشتري بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»^(١)، ذنوب ومعاصٍ وسيئات يهدمها الحج.

والحديث الرابع: حديث عبد الله بن مسعود كما جاء عند الترمذي في سننه يقول ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة»^(٢)، هذه رسائل بعثت بها إليك رجاء أن يعافيك الله من أفة التردد وتعقد العزم من الآن على قضاء فريضة العمر هذا العام.

الفضائل التي تقدمت فضائل الحج بشكل عام، لكن في أعمال الحج فضائل تجدونها في أحاديث النبي ﷺ، فإذا لم تحرك فيك تلك

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [كُونِ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ وَكَذَا الْهَجْرَةَ وَالْحَجَّ] [١١٢/١] برقم: [١٧٢].

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٥/٦) برقم: [٣٦٦٩]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ] [١٦٦/٣] برقم: [٨١٠]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٦٠/١) برقم: [٢٨٩٩]، واللفظ لأحمد.

الْأَحَادِيثُ سَاكِنًا فَإِنِّي أَذْكَرُكَ وَنَفْسِي بِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ حَدِيثٍ عَظِيمٍ تَهْتَرُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَتَنْشَطُ لَهُ الْجَوَارِحُ، فَقَالَ نَبِينَا ﷺ: «أَمَّا خُرُوجُكَ مِنْ بَيْتِكَ تَوُّمُ الْبَيْتِ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ وَطْأَةٍ تَطُوهَا رَاِحِلَتَكَ يَكْتُبُ اللَّهُ لَكَ بِهَا حَسَنَةً، وَيَمْحُو عَنْكَ بِهَا سَيِّئَةً، وَأَمَّا وَقُوفُكَ بِعَرَفَةَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَبْأِهُ بِهَمِّ الْمَلَائِكَةِ فَيَقُولُ: «هَؤُلَاءِ عِبَادِي جَاؤُونِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي، وَيَخَافُونَ عَذَابِي، وَلَمْ يَرُونِي، فَكَيْفَ لَوْ رَأُونِي فَلَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ رَمْلِ عَالِجٍ، أَوْ مِثْلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا أَوْ مِثْلُ قَطْرِ السَّمَاءِ ذُنُوبًا غَسَلَهَا اللَّهُ عَنْكَ، وَأَمَّا رَمْيُكَ الْجِمَارَ فَإِنَّهُ مَذْخُورٌ لَكَ، وَأَمَّا حَلْقُكَ رَأْسَكَ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَسْقُطُ حَسَنَةً فَإِذَا طُفَّتَ بِالْبَيْتِ خَرَجْتَ مِنْ ذُنُوبِكَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» (١).

أُظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآفَةَ بَدَأَتْ تَتَزَحَّزَحُ عَنْ نَفْسِكَ الْآنَ وَهَمَّتْكَ بَدَأَتْ تَتَحَرَّكَ، خَاصَّةً وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْحَجَّ لَا يَتَطَلَّبُ مِنْكَ إِلَّا خَمْسَةَ أَيَّامٍ فَأَعْقِدِ الْعَزْمَ وَحِثِ الْخُطَى وَقُلْ: تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ.

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤٢٥/١٢) برقم: [١٣٥٦٦]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٨٩/١) برقم: [١٣٥٩].

١٧

الجود في رمضان

عباد الله ...

إِنَّ مِنْ الْمَظَاهِرِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي يَرَاهَا الْمُسْلِمُ عَلَى الصَّائِمِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: مَظْهَرُ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ وَالسَّخَاءِ، فَإِنَّكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الصَّائِمِينَ يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ هَذَا الْخُلُقُ وَتَبْرُزُ فِيهِمْ هَذِهِ الْقِيَمُ الْأَخْلَاقِيَّةُ: الْبَذْلُ، وَالْعَطَاءُ، وَالسَّخَاءُ، وَالكَرَمُ، يَدُورُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي فَلَكَ الصَّدَقَاتِ، كَيْفَ لَا وَقَدْ جَعَلَ الْكَثِيرُ مِنَّا تَوْقِيَتَ زَكَاةٍ مَالِهِ فِي رَمَضَانَ، أَضِيفُ إِلَى ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الصَّدَقَاتِ، أَضِيفُ إِلَى ذَلِكَ إِطْعَامَ الطَّعَامِ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي رَمَضَانَ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ مَظَاهِرِ السَّخَاءِ.

وَهَكَذَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجُودَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجُودَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجُودُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»^(١) هَكَذَا هُوَ مِعْطَاءٌ سَخِيٍّ كَرِيمٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنَّ هَذَا الْعَطَاءَ وَالسَّخَاءَ وَالْبَذْلَ وَالكَرَمَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجُودُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، لِيَتَأَسَى بِهِ أَتْبَاعُهُ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟] (٨/١) برقم: [٦]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجُودَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ] (١٨٠٣/٤) برقم: [٣٣٠٨]، واللفظ للبخاري.

حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿[الأحزاب: ٢١].

وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى كَلَامِ لِابْنِ الْقَيْمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي غَايَةِ الرَّوَعَةِ وَالْجَمَالِ، يُبَيِّنُ فِيهِ أَثَرَ هَذَا الْعَطَاءِ، أَثَرَ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ عَلَى الْفَرْدِ الْمُعْطِي وَعَلَى الْمُجْتَمَعِ السَّخِيِّ، وَعَلَى الْمُؤَسَّسَةِ الْكَرِيمَةِ، يَقُولُ: إِنَّ لِلصَّدَقَةِ تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي دَفْعِ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ عَلَى الْفَرْدِ أَوْ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ فَاجِرٍ أَوْ ظَالِمٍ بَلْ مِنْ كَافِرٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْفَعُ بِهَا عَنْهُ أَنْوَاعًا مِنَ الْبَلَاءِ، يَقُولُ: وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ عِنْدَ النَّاسِ عَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ مُقَرَّرُونَ بِهِ لِأَنَّهُمْ جَرَّبُوهُ، إِنَّ الصَّدَقَاتِ وَالْبَذْلَ وَالْعَطَاءَ وَالسَّخَاءَ لَهَا هَذَا التَّأْثِيرُ الْعَجِيبُ كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ:-

وَأِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي الْبَرَائِيَا وَسَرَكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءٌ

تَسْتَرُ بِالسَّخَاءِ فَكُلَّ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ - كَمَا قِيلَ - السَّخَاءُ

عباد الله... يقول سُبْحَانَ اللَّهِ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:

١٣٣-١٣٤]، هَكَذَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْحَدِيثُ فِي الْبُخَارِيِّ:

« مَا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لَا » (١).

ويقول أنس رضي الله عنه: إِنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمُ! أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ، وَأَحْيَانًا يَأْتِيهِ السَّائِلُ يَسْأَلُهُ فَلَا يَجِدُ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِهِ يُعْطِيهِ، بَيْتَ الرِّسَالَةِ بَيْتَ النُّبُوَّةِ لَيْسَ فِيهِ حَتَّى كِسْرَةٌ خُبْزٍ، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي مَجْهُودٌ بَلَغَتْ بِي الْحَاجَةُ أَنْبِيَّ أُصِيبُ بِالْجَهْدِ، فَأَرْسَلَ صلى الله عليه وسلم إِلَيَّ بِبَعْضِ نِسَائِهِ أَيْ شَيْءٍ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ.

لِمَاذَا هَذَا الْبَذْلُ وَالْعَطَاءُ وَالسَّخَاءُ؟ لِأَنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى يُحِبُّهُ وَيُحِبُّ أَهْلَهُ، يَقُولُ صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » (٢)، قَصَّ عَلَيْنَا نَبِينَا صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ قِصَّةً مُؤَثِّرَةً جَاءَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ: « بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ] [١٣/٨] برقم: [٦٠٣٤]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا وَكَثْرَةُ عَطَائِهِ] برقم: [١٨٠٥/٤]، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" [١٨١/٦] برقم: [٥٩٢٨]، وأخرجه الحاكم في "المستدرک" [١١١/١] برقم: [١٥١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" [٣٧٠/١] برقم: [١٧٩٨].

مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرَجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاحِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَبَعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِإِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَاتَّصَدَّقُ بِثُلْثِهِ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلْثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلْثَهُ^(١)، الَّذِي يُحَرِّكُ الصِّحَّةَ اللَّهُ، وَالَّذِي يُحَرِّكُ الْخَيْرَ اللَّهُ، وَالَّذِي يُحَرِّكُ الْأَمْنَ اللَّهُ، فَاللَّهُ يَقُولُ: اذْهَبْ يَا أَمْنُ هُنَا، وَاذْهَبِي يَا صِحَّةُ هُنَا، وَاذْهَبْ يَا خَيْرُ هُنَا بِنَاءٍ عَلَى عَمَلٍ مَنْ كَانَ هُنَا وَهُنَاكَ، صَنِيعٌ فِي دَائِرَةِ الْبَدْلِ وَالْعَطَاءِ وَالسَّخَاءِ يُحَرِّكُ سَحَابَةً فِي السَّمَاءِ، صَنِيعٌ هَذَا الْعَبْدِ الْمَسْكِينِ الَّذِي رَبَّمَا مَا يَعْلَمُ النَّاسُ اسْمَهُ فَمَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ لَكِنْ عَرَفَهُ رَبُّ السَّمَاءِ اللَّهُ فَحَرَّكَ هَذِهِ السَّحَابَةَ مِنْ أَجْلِهِ.

لِذَا فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْعَطَاءِ وَالْبَدْلِ وَالسَّخَاءِ: أَنْ يُعْطِيَ الْإِنْسَانُ وَهُوَ فِي حَالِ صِحَّةٍ يَبْنِي مُسْتَقْبَلَهُ يَخْشَى الْفَقْرَ وَيُؤَمِّلُ الْغِنَى.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الصَّدَقَةُ فِي الْمَسَاكِينِ] (٢٢٨٨/٤) برقم: [٢٩٨٤].

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الصَّدَقَاتِ أَعْظَمُ؟
 قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمَهِّلُ
 حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ، قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ» (١)
 إِنَّهُ مَظْهَرٌ مِنَ الْمَظَاهِرِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ ﷻ مَظْهَرُ الْبَدْلِ وَالْعَطَاءِ
 وَالسَّخَاءِ، بَعْدَ قَلِيلٍ سَتَنْطَلِقُ حَمَلَةٌ لِجَمْعِ تَبَرُّعَاتٍ لِلْمُنْكَوِبِينَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ فِي الصُّومَالِ، وَهَذِهِ تَأْتِي بِنَاءً عَلَى دَعْوَةِ كَرِيمَةٍ مِنْ جَلَالَةِ
 الْمَلِكِ حَمْدِ بْنِ عَيْسَى آلِ خَلِيفَةِ مَلِكِ مَمْلَكَةِ الْبَحْرَيْنِ حَفِظَهُ اللَّهُ وَرَعَاهُ،
 وَتَدَشَّنَهَا هَيْئَةٌ شُنُونِ الْإِعْلَامِ مَشْكُورَةٌ، وَسَتَبْدَأُ عِنْدَ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَأَرِ
 اللَّهُ مِنْ نَفْسِكَ خَيْرًا يَا عَبْدَ اللَّهِ.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي الصُّومَالِ الْآنَ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: وَاللَّهِ إِنَّا لَنُمْسِكُ
 وَنُفْطِرُ بِالنِّيَّةِ فَلَا نَجِدُ مَا نَتَسَحَّرُ بِهِ وَلَا مَا نُفْطِرُ عَلَيْهِ.

عباد الله ... أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الرَّسَالَةَ الَّتِي يُرْسِلُهَا النَّاسُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ،
 «جُمُعَةٌ مُبَارَكَةٌ»، أَرَأَيْتَ قِيَمَتَهَا، فَإِنَّهَا رُبَّمَا أَحْيَتْ إِنْسَانًا هُنَاكَ وَلَا تَأْخُذُ
 عَلَيْهَا أَجْرًا لِأَنَّ جُمُعَةً مُبَارَكَةً لَيْسَتْ مِنَ السُّنَّةِ، وَلَا تَقُلْ: لَيْسَ عِنْدِي
 شَيْءٌ، اسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ حَدِيثَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ بُجَيْدٍ يُحَدِّثُ عَنْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [فَضْلُ صَدَقَةِ الشَّحِيحِ الصَّحِيحِ] (١١٠/٢) برقم: [١٤١٩]،
 وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بَيَانُ أَنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ صَدَقَةُ الصَّحِيحِ الشَّحِيحِ] (٧١٦/٢) برقم: [١٠٣٢]، واللفظ
 للبخاري.

جَدَّتِهِ أُمَّ بُجَيْدٍ صَحَابِيَّةٍ بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ أَصَابَهَا هَمٌّ فَجَاءَتْ تَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ أَتَدْرُونَ مَا الِهَمُّ الَّذِي أَصَابَهَا؟ جَاءَتْ النَّبِيَّ ﷺ مَهْمُومَةً تَبْتُ هَذِهِ الشَّكْوَى تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ الْمِسْكِينَ لَيَقُومُ بِبَابِي فَلَا أَجِدُ لَهُ شَيْئًا أُعْطِيهِ إِيَّاهُ، حَزِينَةٌ مَا تَجِدُ شَيْئًا تُعْطِيهِ الْمِسْكِينَ، مُحْرَجَةٌ، الْمِسْكِينَ بِبَابِهَا مَا تَجِدُ شَيْئًا تُعْطِيهِ، فَيَقُولُ ﷺ: «إِنْ لَمْ تَجِدِي لَهُ شَيْئًا تُعْطِيهِ إِيَّاهُ إِلَّا ظِلْفًا مُحْرَقًا، فَادْفَعِيهِ إِلَيْهِ فِي يَدِهِ»^(١)، حَتَّى هَذَا الشَّيْءُ الْمُحْتَقِرُ الَّذِي تَتَرَفَّعُ عَنْهُ النَّفْسُ ظِلْفٌ مُحْرَقٌ حَافِرٌ غَنَمٍ وَبَقَرٍ اذْفَعِيهِ، يَعْنِي لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، يَعْنِي لَا تَمُرِّي هَذِهِ الْحَمْلَةَ إِلَّا وَقَدْ وَضَعْتَ لَكَ فِيهَا بَضْمَةً، بَعْشِرَةَ فِلُوسٍ، أَوْ مِائَةَ فِلَسٍ، أَوْ دِينَارٍ. أَيُّ مَبْلَغٍ تَسْتَطِيعُهُ اذْفَعِي بِهِ. وَأَوْصِيكَ أَيُّهَا الْأَخُ الْمُبَارِكُ: لَا تَكُنْ مِنَ الْمُثْبِطِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يُمَكِّنُ إِلَّا تُوَصَّلَ الْمُسَاعَدَاتُ، وَيُمَكِّنُ، وَيُمَكِّنُ، وَيَعِيشُ فِي يُمَكِّنُ هَذِهِ حَتَّى يَمُوتَ، دَائِمًا يَعِيشُ فِي هَذِهِ الدَّائِرَةِ السَّودَاءِ لَا يُحْسِنُ ظَنًّا وَلَا يُحْسِنُ صَنِيعًا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٢٨/٤٥) برقم: [٢٧١٤٩]، وأخرجه أبي داود في "سننه" باب: [حَقُّ السَّائِلِ] (١٢٦/٢) برقم: [١٦٦٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٠٢/١) برقم: [١٤٤٠]، واللفظ لأبي داود.

١٨

الْوَصِيَّةُ بِالْوَالِدَيْنِ

عباد الله ...

إِنَّ الْقَارِيَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَالْمُتَّبِعَ لِهَدْيِ رَسُولِهِ ﷺ يَجِدُ الْعَدِيدَ مِنَ
الْوَصَايَا الَّتِي مَنْ أَخَذَ بِهَا عَزَّ وَرَشَدَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَكَّرَ لَهَا؛ فَهُوَ
لَا شَكَّ هَالِكٌ ضَالٌّ مَحْرُومٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصَايَا مُتَعَدِّدَةٌ فِي كِتَابِ
اللَّهِ أَوْصَانًا بِهَا الرَّبُّ ﷻ لِخَيْرِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِصَلَاحِنَا وَفَلَاحِنَا.
وَمِنْ جُمْلَةٍ هَذِهِ الْوَصَايَا: وَصِيَّةٌ لَطَالَمَا هَتَفَتْ بِهَا الْحَنَاجِرُ مِنْ
عَلَى الْمَنَابِرِ، وَذَكَرَتْ بِهَا الْوُعَاظُ، وَتَحَدَّثَتْ بِهَا الْجَمِيعُ مُذَكِّرِينَ لِأَنفُسِهِمْ
وَلِغَيْرِهِمْ، إِنَّهَا الْوَصِيَّةُ بِالْوَالِدَيْنِ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ مِمَّنْ يَشْعُرُ بِالْأَلَمِ وَالْجَرَحِ : لَيْتَكَ تَقُولُ: اسْتَوْصُوا
بِالْأَبْنَاءِ خَيْرًا كَمَا تَوْصَيْنَا بِأَنْ نَتَّوَصَّى بِالْوَالِدَيْنِ خَيْرًا، تَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ
فِي وَقْتِهَا، لَكِنَّ حَدِيثَنَا الْيَوْمَ: اسْتَوْصُوا بِالْوَالِدَيْنِ خَيْرًا، هِيَ مِنْ جُمْلَةٍ
الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَى بِهَا الْمَوْلَى ﷺ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ ﷺ وَهُوَ
يَقُولُ لَكَ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا
وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، تَدَبَّرْ مَاذَا قَالَ الْمَوْلَى ﷺ
فِي تِلْكَ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةِ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ
حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ

إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[لقمان: ١٤-١٤]، وَاقْرَأْ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأحقاف: ١٤-١٥].

عباد الله ... هَكَذَا وَصَايَا مَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ ﷻ عَبَثًا، إِنَّمَا أَنْزَلَهَا لِتَعْمَلَ بِهَا، وَالثَّلَاثُ آيَاتٍ كُلُّهَا تُذَكِّرُ بِأَهْمِيَّةِ الْوَصِيَّةِ وَبَارْتِبَاطِهَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وَفِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: « الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ »^(١)، الْوَالِدُ يَعْنِي الْوَالِدَ وَالْوَالِدَةَ هُوَ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْأَشْيَاءِ هُوَ خَيْرُهَا وَأَفْضَلُهَا وَأَعْلَاهَا، الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ.

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٠٤/٤٥) برقم: [٢٧٥١١]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ مِنَ الْفُضْلِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ] (٣١١/٤) برقم: [١٩٠٠]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٣٧٩/٣) برقم: [٤٩٢٨]، واللفظ للترمذي.

الْجَمِيعُ يَعْلَمُ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي أَقُولُهُ وَمَا سَأَقُولُهُ لَيْسَ بِالْجَدِيدِ، هِيَ آيَاتٌ وَأَحَادِيثٌ تُذَكِّرُ بِأَهْمِيَّةِ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ، لَيْسَ بِالْمَوْضُوعِ الْجَدِيدِ لَكِنَّا نَحْتَاجُ دَائِمًا مَنْ يُذَكِّرُنَا بِأَهْمِيَّةِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعَظِيمَةِ فِي زَمَنِ طَغَتْ فِيهِ الْمَادَّةُ وَقَسَتْ فِيهِ الْقُلُوبُ، فَانظُرْ إِلَى أَوْلَادِنَا إِخْوَانِنَا كَيْفَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ ظَاهِرَةً وَهِيَ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ.

شَابُّ يَتَرَبَّى مُنْذُ صِغَرِهِ عَلَى الْقَسْوَةِ، فَهُوَ لَيْلَ نَهَارٍ يَلْعَبُ فِي هَذِهِ الْأَلْعَابِ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الْقَتْلُ وَالتَّدْمِيرُ وَالتَّخْرِيبُ، أَلْعَابُ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ تَعْلَمُهُ كَيْفَ يَكُونُ مُشَاغِبًا شَرِسًا، أَنَانِيًّا مُحَطَّمًا لِغَيْرِهِ، يَنْشَأُ عَلَى ذَلِكَ فَيَقْسُو قَلْبَهُ، وَيَأْتِيهِ الْإِعْلَامُ وَبَرَامِجُهُ فَتُحْرِكُ عِنْدَهُ الْعَاطِفَةَ وَتُحْرِكُ عِنْدَهُ الْحُبَّ وَلَكِنْ لِمَنْ؟ لِنَادِيٍّ مِنَ الْأَنْدِيَّةِ يَبْكِي وَيَتَّحِبُّ لِخَسَارَتِهِ، أَوْ تُحْرِكُ قَلْبَهُ لِمِمَثْلٍ يَقُولُ كَلِمَةً وَاحِدَةً عَلَى خَشْبَةِ الْمَسْرَحِ تَسِيرُ بِهَا الرُّكْبَانُ وَتُرَدِّدُهَا الْأَلْسُنُ مَحَبَّةً وَتَقْدِيرًا وَتَعْظِيمًا، فِي حَالَةِ غِيَابٍ عَنِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعَظِيمَةِ.

لِذَا أَقِفْ أذْكَرُ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِخَمْسَةِ مَسَائِلَ:-

الأولى: أَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ قَرَنَ الْأَمْرَ بِتَوْحِيدِهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ

لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ

مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿الإسراء: ٢٣-٢٤﴾.

إِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ أَنْ تَبْكِي عَلَى قَبْرِ وَالِدِكَ إِذَا مَاتَ، إِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ أَنْ نَعْرِسَ الرِّيَّاحِينَ وَالزُّرُوعَ عَلَى قُبُورِهِمْ، إِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ تَعْلِيْقًا لِصُورِهِمْ عَلَى حَيْطَانِ الْمَجَالِسِ لَا، وَالِدُكَ لَا يُرِيدُ مِنْكَ ذَلِكَ، يُرِيدُ مِنْكَ أَلَّا تَقُلْ لَهُ: أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، يُرِيدُكَ هُنَا فِي الدُّنْيَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ^(١)، إِذَا الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: ثَلَاثُ بَثَلَاتٍ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَلَاثُ آيَاتٍ مَقْرُونَةٌ بِثَلَاثِ آيَاتٍ، لَا تُقْبَلُ وَاحِدَةٌ بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا، الْأُولَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِيعِ الرَّسُولَ؛ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَالثَّانِيَّةُ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} {العنكبوت: ٨} [(٢/٨) برقم: ٥٩٧٠]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بَيَانُ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ] [(٩٠/١) برقم: ٨٥]، واللفظ للبخاري.

[النور: ٥٦]، فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يُزَكِّ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَالثَّالِثَةُ: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فَمَنْ شَكَرَ لِلَّهِ وَلَمْ يَشْكُرْ لِوَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، تَجِدُ بَيْنَ بَعْضِ الشَّبَابِ الْمُغْتَرِّ مُتَمَرِّدٌ يَصْرُخُ فِي وَجْهِ أَبِيهِ يَقُولُ: أَنْتَ مَاذَا صَنَعْتَ لِي؟ أَنْتَ مَاذَا فَعَلْتَ لِي، هَكَذَا فِي حَالَةِ غُرُورٍ وَعَطْرَسَةٍ، مَتَى يَقُولُهَا؟ يَقُولُهَا إِذَا وَصَلَ الْوَالِدُ إِلَى مَرَحَلَةِ الضَّعْفِ وَوَصَلَ هُوَ إِلَى مَرَحَلَةِ الْقُوَّةِ، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ هَذَا الْوَالِدُ هُوَ الْعَائِلَ لَكَ، وَالْآنَ هُوَ عَالَةٌ عَلَيْكَ، تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ وَسَتَكُونُ أَنْتَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ عَالَةٌ عَلَى غَيْرِكَ، سَنَوَاتٍ قَلِيلَةً عَشْرِينَ ثَلَاثِينَ سَنَةً.

وَالْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهِمَا فَجَاهِدْ، رَبِّي النَّبِيُّ ﷺ صَحَابَتُهُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي صَحِيحِهِ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَبَايَعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: «فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»^(١)، كُنْ لِوَالِدِكَ صَاحِبًا، كُنْ لِوَالِدِكَ زَمِيلًا، وَاللَّهُ مَا قُلْتُ لَكَ هَذَا الْكَلَامَ أَمْلَأُ بِهِ فَرَاغًا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ لَا، إِنِّي أُوصِيكَ وَنَفْسِي أَنْ نَسْتَمْتِعَ بِصُحْبَةِ الْوَالِدَيْنِ، اسْتَمْتِعْ بِصُحْبَةِ وَالِدِكَ،

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَأَنَّهِنَّ أَحَقُّ بِهِ] [١٩٧٥/٤] برقم: [٢٥٤٩].

فَوَاللَّهِ الْعَظِيمِ إِنَّهُ سَيَمُوتُ أَوْ سَتَمُوتُ أَنْتَ قَبْلَهُ فَاسْتَمْتِعْ بِهَذِهِ الصُّحْبَةِ .
الَّذِي لَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ لِأَهْلِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ خَيْرٌ لغيره ، فِي
رَوَايَةٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ فِيهَا نَبِيْنَا ﷺ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ يُرِيدُ أَنْ يُبَايِعَهُ
عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ: قَالَ: «أَحْيِيَّ وَالِدَاكَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فِيهِمَا
فَجَاهِدْ»^(١)، تُرِيدُ الْجِهَادَ، مِثْلَ مَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ، تُرِيدُ أَحَادِيثَ الْجِهَادِ
وَأَنْ تُقَاتِلَ لَا تُرِيدُ مَوْضُوعَاتٍ تُخَدِّرُ الْأُمَّةَ، نَقُولُ: جَاهِدْ فِي كَسْبِ رِضَا
وَالِدَيْكَ، تُرِيدُ أَنْ نَرَى نَجَاحًا وَجِهَادًا فِي وَالِدَيْكَ، وَجِهَادًا فِي صَلَاةِ
الْفَجْرِ فِي جَمَاعَةٍ، وَجِهَادًا فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي
جَمَاعَةٍ، هَذَا هُوَ النَّجَاحُ، إِذَا لَمْ نَنْجَحْ هُنَا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَنْجَحَ هُنَاكَ.

وَمَسْأَلَةٌ رَابِعَةٌ: الزَّمِ رِجْلَيْهَا فَتَمَّ الْجَنَّةُ، جَاءَ مُعَاوِيَةُ بْنُ جَاهِمَةَ
السَّلَمِيِّ قَالَ: « يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ
وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: «وَيْحَكَ، أَحْيِيَّةُ أُمَّكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ:
«ارْجِعْ فَبَرِّهَا» ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ
أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: «وَيْحَكَ،
أَحْيِيَّةُ أُمَّكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرِّهَا» ثُمَّ أَتَيْتُهُ
مِنْ أَمَامِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ، أَبْتَغِي
بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: «وَيْحَكَ، أَحْيِيَّةُ أُمَّكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، يَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الْجِهَادِ بِإِذْنِ الْأَبَوَيْنِ] (٥٩/٤) برقم: [٣٠٠٤]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَأَنَّهِنَّ أَحَقُّ بِهِ] (١٩٧٥/٤) برقم: [٢٥٤٩]، واللفظ للبخاري.

رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَيَحَكَ، الزَّمِ رِجْلَهَا، فَتَمَّ الْجَنَّةُ» (١)، الزَّمِ رِجْلَهَا كُنْ خَادِمًا مَطْوَعًا لَهَا فَتَمَّ الْجَنَّةُ.

المسألة الخامسة: إنَّ الْمُعْطَلَّ لِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعَظِيمَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَثَمٌ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ مَحْرُومٌ مُعَاقَبٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ، وَلَا عَدْلٌ: عَاقٌ، وَمَنَّانٌ، وَمُكْذِبٌ بِقَدَرٍ» (٢)، وَعِنْدَ النَّسَائِيِّ فِي حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرَأَةُ الْمُتَرْجِلَةُ، وَالذَّيْثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أُعْطِيَ».

هَذِهِ وَصَايَا ذَكَرْتُ بِهَا نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ فَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْوَصَايَا حُجَّةً لَنَا نَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّنَا، أَوْ تَكُونَ حُجَّةً عَلَى الْبَعِيدِ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْوَعِيدِ.

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الرَّجُلُ يَعْزُو وَلَهُ أَبَوَانِ] (٩٢٩/٢) برقم: [٢٧٨١].

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١٩/٨) برقم: [٧٥٤٧].

١٩

حُبِّ الْمَالِ

عباد الله ...

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَطَرَ قُلُوبَ خَلْقِهِ عَلَى حُبِّ الْمَالِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦-٨]، أَي: لِحُبِّ الْمَالِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿زِينِ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩-٢٠].

فُطِرَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْحَبِيبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: « الشَّيْخُ يَكْبُرُ، وَيَضْعُفُ جِسْمُهُ وَقَلْبُهُ، شَابٌ عَلَىٰ حُبِّ اثْنَيْنِ: طُولِ الْعُمُرِ، وَالْمَالِ »^(١)، الْجِسْمُ يَكْبُرُ وَيَتَعَرَّضُ لِلضَّعْفِ وَقَلْبُهُ شَابٌ عَلَىٰ حُبِّ اثْنَيْنِ طُولِ الْعُمُرِ وَالْمَالِ؛ لِذَا عَلِمَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ فِي ابْنِ آدَمَ فَاْمْتَحَنَهُ بِأَنْ فَرَضَ عَلَيْهِ زَكَاةً وَصَدَقَةً فِي مَالِهِ، وَالنَّاسُ فِي رَمَضَانَ يُزَكُّونَ وَبَعْضُهُمْ لَا يُزَكِّي فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، فَصَارَتْ هَذِهِ الزَّكَاةُ اْمْتَحَانًا، إِذَا حَسِبَ الْغَنِي مَالَهُ فَوَجَدَ أَنَّ زَكَاتَهُ كَثِيرَةٌ اِبْتُلِيَ وَاْمْتَحِنَ كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٤٥/١٤) برقم: [٨٤٢٢].

لِغَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥].

يَجِدُ أَنَّ زَكَاتَهُ آلَافُ الدَّنَانِيرِ، مِثَاتُ الْأُكُوفِ مِنَ الدَّنَانِيرِ فَيَمْتَحِنُ فِي ذَلِكَ وَيَنْسَى أَنَّ الَّذِي آتَاهُ هَذَا الْمَالُ هُوَ اللَّهُ، وَالْقَادِرُ عَلَى أَخْذِهِ هُوَ اللَّهُ؛ لَذَا أَرْسَلَ ﷺ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ لَهُ: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» (١)، وَهِيَ فَرِيضَةٌ كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ فَرِيضَةٌ.

عباد الله... بَيْنَ لَنَا الْمَوْلَى ﷺ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَكَانَةَ الزَّكَاةِ، وَالتِّي مِنْهَا أَنَّهَا رُكْنٌ يَقُومُ عَلَيْهِ الدِّينُ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ رُكْنٌ فَإِنَّ الزَّكَاةَ رُكْنٌ يَخْتَلُّ دِينَ الْعَبْدِ إِذَا أَمْتَنَعَ عَنْ دَفْعِ زَكَاةِ مَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» (٢)، أَيُّ: بُنِيَ عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ، فَإِذَا جَاءَ إِنْسَانٌ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [وَجُوبُ الزَّكَاةِ] [١٠٤/٢] برقم: [١٣٩٥]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام] [٥٠/١] برقم: [١٩]، واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»] [١١/١] برقم: [٨]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»] [٤٥/١] برقم: [١٦] واللفظ للبخاري.

وَقَالَ: لَا، أَنَا عَلَى مِزَاجِي، الصِّيَامُ مَقْبُولٌ، الصَّلَاةُ مَقْبُولَةٌ، الْحَجُّ مَقْبُولٌ
الزَّكَاةُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، يَلْعَبُ فِي أَرْكَانِ الدِّينِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِتَلْعَلُّهِ بِهَذَا الْمَتَاعِ
الَّذِي هُوَ زَائِلٌ، أَوْ زَائِلٌ عَنْهُ، فَالْمَالُ فِي أَيْدِينَا بَيْنَ اثْنَيْنِ: إِمَّا أَنْ نَتَحَوَّلَ
نَحْنُ عَنْهُ، أَوْ يَتَحَوَّلَ هُوَ عَنَّا.

عبد الله... وَانظُرْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَجِدُ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ مَقْرُونَتَانِ فِي
أَكْثَرِ آيَاتِ الْكِتَابِ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ﴾
[البقرة: ٤٣] ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وَقَالَ فِي شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وَقَالَ مُمْتَدِّحًا لِإِسْمَاعِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:
٥٥].

وَمِمَّا يُبَيِّنُ مَنْزِلَةَ الزَّكَاةِ: أَنَّ اللَّهَ أَمْتَدَحَ الرَّجَالَ الْمُؤَدِّينَ لَهَا، فَقَالَ:
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، هَذَا الَّذِي مَنَعَ
زَكَاتَهُ مَا تَذَكَّرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧-٣٨].

لَمَّا تُوِّفِيَ نَبِيْنَا ﷺ قَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَحِّحُ هَذَا الْمَفْهُومَ الْخَاطِئَ، فَإِنَّ عَدَدًا مِنَ الْعَرَبِ قَدِ ارْتَدُّوا بِمَنْعِ الزَّكَاةِ قَالُوا: أَمَّا الصَّلَاةُ نُصَلِّيْهَا، وَأَمَّا الزَّكَاةُ فَلَا، فَانْتَدَبَ لَهُمُ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كَلِمَتَهُ الْمَشْهُورَةَ: وَاللَّهِ لَا قَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، قَاتَلَهُمْ وَحَرَّكَ الْجِيُوشَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَاللَّهِ لَا قَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا. وَمِمَّا يُبَيِّنُ مَنْزِلَةَ الزَّكَاةِ: بَيَانُ خُطُورَةِ مَنَعِهَا، الْوَاحِدُ الَّذِي رَأْسُ مَالِهِ خَمْسَةٌ آلَافٍ يُزَكِّي؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ قَلِيلَةٌ، إِذَا زَادَ رَأْسُ الْمَالِ أَصْبَحَ خَمْسِينَ آلَافَ دِينَارٍ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ زَكَاتَهُ تَرَدَّدَ أَلْفَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يُزَكِّي، إِذَا أَصْبَحَتْ أَمْوَالُهُ تُعَدُّ بِالْمَلَائِينَ اِمْتَنَعَ عَنِ دَفْعِ زَكَاتِ مَالِهِ - سَبْحَانَ اللَّهِ - أَيْنَ هَذَا الْمَسْكِينِ عَنِ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، وَعَنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

يَدْخُلُ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْحَرَمِ فَإِذَا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٍ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، فَيَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَدِّدُ قَائِلًا: « هُمْ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ » قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى جَلَسْتُ، فَلَمْ أَتَقَارَّرْ أَنْ قُتُّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: « هُمْ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » (١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » (٢)، هَذَا فِي يَوْمِ الْمَحْشَرِ قَبْلَ أَنْ يَتَّجِهَ النَّاسُ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ.

تَدْخُلُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا فِي يَدِ ابْنَتِهَا مِسْكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، أَسَاوِرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُولُ نَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَرْأَةِ: « أَتُعْطِينَ زَكَاتَةَ هَذَا؟ »، قَالَتْ: لَا، قَالَ: « أَيْسُرُكَ أَنْ يُسَوِّرَكَ اللَّهُ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَوَارِينَ مِنْ نَارٍ؟ »، قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا، فَأَلْقَتْهُمَا

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تَغْلِيظُ عُقُوبَةِ مَنْ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ] [(٦٨٦/٢) برقم: [٩٩٠].

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تَغْلِيظُ عُقُوبَةِ مَنْ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ] [(٦٨٦/٢) برقم: [٩٩٠].

إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَتْ: هُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ» (١).

ختامًا

عباد الله... إن في المال شرًّا لا يخرجُه إلا الزكاة فمن زكى فقد سلم

ماله من الشرور والآفات.

والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [الْكُنْزِ مَا هُوَ؟ وَزَكَاةِ الْحُلِيِّ] [٩٥/٢] برقم: [١٥٦٣]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" باب: [زَكَاةُ الْحُلِيِّ] [٢٧/٣] برقم: [٢٢٧٠]، وصححه الألباني في "إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل" (٢٩٦/٣)، واللفظ لأبي داود.

٢٠

حقيقة الموت

عباد الله ...

إِنَّ الْمَوْتَ قَاطِعٌ لِلْعَلَاقَاتِ، وَمُفَرِّقٌ لِلْجَمَاعَاتِ وَهَادِمٌ لِلذَّاتِ،
 كَمَا أَخْبَرَ نَبِيُّ الْهُدَى ﷺ حِينَما قَالَ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللِّذَّاتِ» (١)،
 يَعْنِي الْمَوْتَ، هَذَا الْمَوْتُ الَّذِي لَوْ قُدِّرَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَفِرَّ مِنْهُ لَبَدَّلَ
 جُهِدَهُ وَطَاقَتَهُ وَاسْتَفْرَغَ كُلَّ مَا عِنْدَهُ لِلْفِرَارِ مِنَ الْمَوْتِ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ
 هَيْهَاتَ، قَالَ الْحَقُّ ﷻ ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ
 الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي
 تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ أُصِيبَ بِفَقْدِ حَبِيبٍ أَوْ عَزِيزٍ وَالِدًا أَوْ وَالِدَةً
 أَخًا أَوْ أُخْتًا، ابْنًا أَوْ بِنْتًا، قَرِيبًا أَوْ قَرِيبَةً، لِأَبْدٍ أَنْ يَشْرَبَ الْعَبْدُ مِنْ هَذَا
 الْكَأْسِ كَأْسِ الْمُصَابِ.

أَيُّهَا الْمَصَابِ اعْلَمْ أَنَّ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُشَاطِرُكَ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ،
 فَقَدْ مَرَّ بِهِ مَا يَمُرُّ بِكَ الْآنَ، وَسَيَمُرُّ بِغَيْرِكَ مَا مَرَّرْتُمْ بِهِ مُسْتَقْبَلًا لِأَجْلِ
 ذَلِكَ أَقُولُ لَكَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْتَلِي عِبَادَهُ وَيَخْتَبِرُهُمْ لِيَرَى الصَّابِرَ مِنَ
 الْجَزَاعِ؛ لِيَرَى الرَّاضِيَ مِنَ السَّاحِطِ ﴿وَلَنْبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [ذَكَرَ الْمَوْتَ وَالْإِسْتِعْدَادَ لَهُ] [١٤٢٢/٢] برقم: [٤٢٥٨]، وأخرجه الطبراني في
 "المعجم الأوسط" (٢١٣/١) برقم: [٦٩١]، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٤٥/٣) برقم: [٦٨٢].

مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿[محمد: ٣١]، كَيْفَ وَقَدْ بَيْنَ الْمَوْلَىٰ
 ﷺ أَجْرَ مَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وَالْعَبْدُ دَائِرٌ بَيْنَ عِبَادَةِ الشُّكْرِ وَعِبَادَةِ الصَّبْرِ، فَهُوَ بَيْنَ سَرَاءٍ وَبَيْنَ
 ضَرَاءٍ، هَكَذَا قَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ صُهَيْبٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «عَجَبًا
 لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ
 سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١)، إِنَّهُ
 إِذَا احْتَسَبَ الْأَجْرَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَّحِبْ وَلَمْ يَجْزَعْ وَلَمْ يَعْتَرِضْ، نَعَمْ قَدْ
 يَحْزَنُ وَقَدْ يَبْكِي وَقَدْ يَنْذَرُ مَا ثَرَّ مِنْ فَقْدٍ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْتَرِضُ عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ
 فَمَا جَزَاؤُهُ؟ جَزَاؤُهُ الْجَنَّةُ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُنَا ﷺ فِيمَا يَرَوِيهِ عَنْ رَبِّهِ يَقُولُ
 اللَّهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ: «مَا لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي
 جَزَاءٌ، إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الْجَنَّةُ» (٢).

نَعَمْ يُقْبَضُ صَفِيُّكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، حَبِيبُكَ الَّذِي تَقْرَأُ عَيْنُكَ بِهِ، وَتَطْمَئِنُّ
 نَفْسُكَ بِهِ يُقْبَضُ فَإِذَا احْتَسَبْتَ فاعْلَمْ أَنَّ الْجَزَاءَ الْجَنَّةُ، إِنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ أَيِّ
 مُصَابٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَمَرَّنَ الْعَبْدُ عَلَيْهِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَمَا أَكْثَرَ الْأُمُورِ الَّتِي
 تُصَبِّرُنَا فَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُعِنَهُ اللَّهُ عَلَى الصَّبْرِ.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [المؤمن أمره كله خير] (٢٢٩٥/٤) برقم: [٢٩٩٩].

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [العمل الذي يُتَعَمَّقُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ] (٩٠/٨) برقم: [٦٤٢٤].

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر»^(١)، إن أعظم عطاء تُعطاه عطاء الصبر وخير عطاء؛ عطاء الصبر فإن العبد إذا صبر واحتسب؛ نال هذا الخير العظيم.

ثم اعلم أن أي مصيبة تنزل بنا فلتتذكر أعظم مصائبنا، إن أعظم مصائب الأمة هي فقد النبي ﷺ فإذا أصيب العبد بمصيبة فليذكر مصيبة فقد النبي ﷺ، من أرشدنا إلى هذا العلاج الذي تطمئن به النفوس؟ إنه هو ﷺ، جاء في الحديث الذي ترويه لنا أمنا عائشة رضي الله عنها كما جاء في سنن ابن ماجه قوله ﷺ: «يا أيها الناس أيما أحد من الناس، أو من المؤمنين أصيب بمصيبة، فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تُصيبه بغيري، فإن أحدًا من أمتي لن يُصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبي»^(٢)، نعم.

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

أَيُّ فَقَدٍ أَعَزُّ عَلَيْنَا مِنْ فَقْدِ النَّبِيِّ ﷺ؟ يُفْقَدُ الْآبَاءُ وَتُفْقَدُ الْأُمَّهَاتُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الإستعفاف عن المسألة] (١٢٢/٢) برقم: [١٤٦٩]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فصل التّعفف والصبر] (٧٢٩/٢) برقم: [١٠٥٣].

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ] (٥١٠/١) برقم: [١٥٩٩]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٣٠٣/٢) برقم: [٧٨٧٦].

وَالزَّوْجَاتُ وَالْأَوْلَادُ ذُكُورُهُمْ وَإِنَانَهُمْ وَالْأَقْرَابُ وَالْأَحْبَابُ وَيَبْقَى
فَقَدْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَعَزُّ، وَمُصِيبَتِنَا بِفَقْدِهِ أَعْظَمُ، « فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنْ
الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بغيري، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي
أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي ».

يَأْتِي جَبْرِيلُ ﷺ فَيَدْخُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ
فِي مُعْجَمِهِ، فَيَذْكُرُ لَهُ خَمْسَ حَقَائِقَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَبَدَّلَ أَوْ تَتَغَيَّرَ لِأَبَدٍ
أَنْ نَبِنِي عَلَيْهَا اعْتِقَادَنَا وَسَلُوكَنَا وَمَنْهَجَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَمَا هِيَ هَذِهِ
الْحَقَائِقُ الْخَمْسُ؟

يَدْخُلُ جَبْرِيلُ فَيَقُولُ: « يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ
مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحِبِّ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ
شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ »^(١)، هَذِهِ حَقَائِقُ
يُهَيِّئُنَا فِيهَا: « يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ
مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحِبِّ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ »، كَأْسٌ لِأَبَدٍ أَنْ نَشْرَبَهُ جَمِيعًا.

إِنِّي مُعْزِيكَ لَا أَنِّي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ الْخُلُودِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
فَمَا الْمُعْزَى يَبْقَى بَعْدَ مَيِّتِهِ وَلَا الْمُعْزَى وَلَوْ عَاشَا إِلَى حِينٍ
إِنَّا مِنْ فُرْطٍ حُبْنَا لِأَحْبَابِنَا عِنْدَ فَقْدِهِمْ تَضِيعُ بُوَصْلَهُ نَفْعِهِمْ أَحْيَانًا،

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣٠٦/٤) برقم: [٤٢٧٨]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" باب: [الزهد
وقصر الأمل] (١٢٥/١٣) برقم: [١٠٠٥٧]، وحسن الألباني في صحيح الجامع" (٧٦/١) برقم: [٧٣].

فَتَجِدُ فِي تَصَرُّفَاتِنَا وَأَفْعَالِنَا وَأَقْوَالِنَا الْأَخْطَاءَ الْكَثِيرَةَ وَرُبَّمَا الْبِدَعَ الْمُنْكَرَةَ، فَكَمْ نَرَى مِنْ بِنَاءٍ يُشِيدُ عَلَى قَبْرِ زَعَمِ الْمُشِيدِ أَنَّهُ يَبْرُ حَبِيْبُهُ وَهَذَا مُنْكَرٌ عَظِيمٌ أَيْ الْبِنَاءُ عَلَى الْقُبُورِ، فَإِنَّ لِلْقُبُورِ سُنَنًا لَا بُدَّ أَنْ تُتَّخَذَ وَمَا أَحَدَتْهُ النَّاسُ مِنْ بِدَعٍ لَا بُدَّ أَنْ يُدَكَّرُوا بِهِ وَيُنْكَرَ عَلَيْهِمْ، هَذَا الَّذِي يَذْهَبُ بِهَذِهِ الْأَشْجَارِ وَالرِّيَّاحِينَ فَيَزْرَعُهَا عَلَى قَبْرِ حَبِيْبِهِ زَعَمًا أَنَّهُ يَبْرُهُ؛ فَلْيَعْلَمَنَّ أَنَّ هَذَا مِنَ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَيْتَ فِي شَيْءٍ، فَكَيْفَ أَصِلُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَحْبَابِ بَعْدَ أَنْ وَارَيْنَاهُمْ التُّرَابَ؟ نَصِلُ إِلَيْهِمْ بِالطَّرِيقِ الَّذِي دَلَّنَا عَلَيْهِ رَسُولُ الْهُدَى ﷺ .

أولاً بِالصَّدَقَةِ: جَاءَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ أُمِّي مَاتَتْ فَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «سَقْيِ الْمَاءِ»^(١)، ضَعْ مَاءً هُنَا أَوْ هُنَاكَ تَعَهَّدِ الْمَسْجِدَ الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ اجْعَلْ فِيهِ مَاءً لِلْمُصَلِّينَ فِي ثَوَابٍ مَنْ أَحْبَبْتَ، ضَعْ مَاءً سَبِيلٍ فِي الْمَقْبَرَةِ يَنْتَفِعُ بِهِ الْأَحْيَاءُ فِي شُرْبِهِمْ وَيَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ مَاتَ وَمَنْ جَعَلْتَهُ فِي ثَوَابِهِمْ، وَاعْمَلْ مِنْ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ.

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١٢٤/٣٧) برقم: [٢٢٤٥٩]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [فَضْلُ صَدَقَةِ الْمَاءِ] (١٢١٤/٢) برقم: [٣٦٨٤]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (١٦٦/٦) برقم: [٦٤٥٨]، وحسنه الألباني "صحيح الجامع" (٢٥٠/١) برقم: [١١١٣].

ثانياً: عَلَيْكَ بِالِدُّعَاءِ فَإِنَّهُ سَبِيلٌ لِنَفْعِ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَحْبَابِ، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

نقرأ دعاء نُوحٍ ﷺ كَمَا بَيَّنَّ الْمَوْلَى ﷺ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، نقرأ دعاء إِبْرَاهِيمَ ﷺ كَمَا قَالَ الْمَوْلَى ﷺ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ* رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١] دُعَاءٌ يَنْتَفِعُونَ بِهِ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي حَدِيثٍ مَا أَعْظَمَهُ وَأَبْرَكَهُ وَمَا أَقَلَّ الْعَامِلِينَ بِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ» (١)، إِنَّ الْوَالِدَ إِذَا قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ لِزَوْجَتِي لِابْنِي؛ انْتَفَعَ فِي قَبْرِهِ وَتَرْتَفَعُ دَرَجَتُهُ، حَتَّى يَسْتَنْكَرَ هُوَ يَقُولُ: أَنَّى هَذَا أَنَا مَا عَمِلْتُ هَذِهِ الْأَعْمَالَ، فَيَرْفَعُ عَنْهُ هَذَا الْاسْتِغْرَابُ، وَتُكْشَفُ عَنْهُ هَذِهِ الدَّهْشَةُ، فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ.

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٥٧/١٦) برقم: [١٠٦١١]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [بِرُّ الْوَالِدَيْنِ] (١٢٠٧/٢) برقم: [٣٦٦٠]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢١٠/٥) برقم: [٥١٠٨]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٣٤/١) برقم: [١٦١٧].

أمر ثالث بيَّنه النَّبِيُّ ﷺ: وهو صِلَةُ أَقَارِبٍ مَنْ فَقَدْتَ ، لقول نبينا ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَبْرِّ الْأَبْرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَهُ وَدُّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**» (١).

هَذِهِ الْمَسَائِلُ وَالْأَحْكَامُ الَّتِي عَرَضْتُهَا فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ أَرَدْتُ بِهَا نَفْسِي وَإِيَّاكَ، أَرَدْتُ بِهَا كُلَّ مُصَابٍ نَزَلَتْ بِهِ الْمَصَائِبُ فَلْيَتَذَكَّرْ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، نَعْمَلُ فِيهَا لِالدَّارِ الْمُسْتَقَرِّ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [صِلَةُ أَصْدِقَاءِ الْأَبِّ وَالْأُمِّ، وَنَحْوِهِمَا] (١٩٧٩/٤) برقم: [٢٥٥٢].

٢١

خطورة هَوَايَةِ كَثْرَةِ الْكَلَامِ

عباد الله ...

إِنَّ لِلنَّاسِ هَوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَمُخْتَلِفَةً، مِنْهَا مَا يَعُودُ عَلَى الْهَآوِي نَفْعُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْهَا مَا يَعُودُ ضَرُّهُ عَلَى الْهَآوِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَعَلَى حَسَبِ هِمَمِ النَّاسِ تَكُونُ هَوَايَاتُهُمْ، وَعَلَى حَسَبِ طُمُوحَاتِهِمْ تَتَشَكَّلُ تِلْكَ الْهَوَايَاتُ فِي نُفُوسِهِمْ.

وَمِنَ الْهَوَايَاتِ الَّتِي يَهْوَاهَا بَعْضُ النَّاسِ: هَوَايَةُ الْكَلَامِ، كَثْرَةُ الْكَلَامِ بِغَيْرِ فَايِدَةٍ، فَتَجِدُهُ يَتَكَلَّمُ كَثِيرًا، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ رَصِيدٌ مِنَ الْعَمَلِ فَهَذَا هَاوٍ لِلْكَلَامِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ كَلَامَهُ سَيَهْوِي بِهِ فِي دَرَكَاتٍ يَتَضَرَّرُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

إِنَّ اللِّسَانَ مِعْرَافٌ يَغْرِفُ مِمَّا فِي النَّفْسِ، فَإِنْ كَانَ مَا فِي النَّفْسِ حُلُوًّا؛ غَرَفَ اللِّسَانُ حُلُوًّا، وَإِنْ كَانَ مَا فِي النَّفْسِ مُرًّا؛ جَاءَكَ الْمُرُّ عَلَى اللِّسَانِ، رَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ الْمَاوَرِدِيَّ إِذْ يَقُولُ: اعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ تُرْجَمَانُ يُخْبِرُ عَنْ مُسْتَوْدَعَاتِ الصَّمَائِرِ وَيُخْبِرُ بِمُكُونَاتِ السَّرَائِرِ.

اللِّسَانُ يَفْضَحُ صَاحِبَهُ، فَإِنَّهُ يُنَبِّئُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ، يَصْعَدُ ابْنُ عَبَّاسٍ يَوْمًا عَلَى جَبَلِ الصِّفَا فَيَأْخُذُ بِلِسَانِهِ وَيَقُولُ: يَا لِسَانُ! قُلْ خَيْرًا تَغْنَمُ، وَاسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»^(١)، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَعِنْدَهُ

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٩٧/١٠) برقم: [١٠٤٦]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" باب: [في فضل السُّكُوتِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَغْنِيهِ، وَتَرَكَ الْخَوْضَ فِيهِ] (١٦٧) برقم: [٤٥٨٤]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٦٢/١) برقم: [١١٩٥].

أَيْضًا يَقُولُ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلَيْسَعَكَ بَيْتَكَ، وَابْنِكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(١)، هَاوِي الْكَلَامِ الَّذِي تَجِدُهُ مِهْذَارًا فِي مَجَالِسِ النَّاسِ، عَلَى شَبَكَاتِ النَّتِّ فِي الْمُتَدَيَاتِ، مِهْذَارًا فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِذَا رَأَهُ النَّاسُ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ لِسَانِهِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ جَاءَ فُلَانٌ يَأْخُذُ الْمَجْلِسَ بِلِسَانِهِ.

اسْمَعِ الدُّرَرَ، اسْمَعِ الْمَنْهَجَ، اسْمَعِ قَوَاعِدَ تَحْيَا بِهَا رَاشِدًا، يَقُولُ عُمَرُ لِالْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: " يَا أَحْنَفُ! مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ "، كَلَامٌ فِي غَايَةِ الرَّوْعَةِ وَالْجَمَالِ.

لِذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْعَرَبُ كَثِيرَ الْكَلَامِ بِالْمِهْذَارِ بِالثَّرَثَارِ بِالْبَقْبَاقِ بِالْفَقْفَاقِ يَقُولُونَ: فُلَانٌ يُبْقِبُ يُثْرَثِرُ كَثِيرَ الْكَلَامِ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يُثْرَثِرُونَ الْيَوْمَ دُونَ عَمَلٍ، انْظُرْ إِلَيْهِمْ وَمَا أَكْثَرَ ثُرَثَرَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْوَسَائِلِ، وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْحَدِيثَةِ، يُثْرَثِرُ عَلَى هَذَا الْجِهَازِ يَقُولُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى أَصْبَحَتْ تَعْجَبُ مِنْ حَالِ النَّاسِ، يَحْمِلُونَ هَذَا اللَّسَانَ، يَدُورُونَ بِهِ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٧١/٣٦) برقم: [٢٢٢٣٤]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [الأمر والنهي] (١٢٤/٤) برقم: [٤٣٤٣]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب [مَا جَاءَ فِي حِفْظِ اللَّسَانِ] (٦٠٥/٤) برقم: [٢٤٠٦]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٩٥/١) برقم: [١٣٨٩].

فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَنَبِينًا ﷺ أَبَانَ لَنَا الْمَنْهَجَ فَقَالَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ»^(١)، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

اللِّسَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يُلْجَمَ بِلِجَامِ الصَّمْتِ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ:

«مَنْ صَمَتَ نَجَا»^(٢)، لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا فَيَسْكُتُ، لَكِنَّا ابْتُلِينَا فِي هَذَا الزَّمَنِ بِهَوَاءِ الثَّرَاوِينَ الَّذِينَ هُمْ هَوَاءٌ لِلْكَلامِ.

إِنَّهُمْ هَوَاءُ الْكَلَامِ لَهُمْ صِفَاتٌ سَأَذْكُرُهَا بِإِيجَازٍ شَدِيدٍ:-

الصِّفَةُ الْأُولَى: يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ، نَعَمْ هُمْ فِي جَانِبِ الْقَوْلِ وَالْكَلامِ مُجِيدُونَ مُتَمَيِّزُونَ، لَكِنَّهُمْ فِي جَانِبِ الْفِعْلِ مُقَصِّرُونَ، نَعَمْ يَتَكَلَّمُ وَيُرِيدُ أَنْ يُمدَحَ عَلَى كَلَامِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي مَعَالِي الْأَخْلَاقِ] [٣٧٠/٤] برقم: [٢٠١٨]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الرَّجْرِ عَنْ خِصَالِ مَعْلُومَةٍ مِنْ أَجْلِ عِلَلٍ مَعْدُودَةٍ] [٣٦٨/١٢] برقم: [٥٥٥٧]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" [١٩٠/١٠] برقم: [١٠٤٢٤]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" [٤٣٩/١] برقم: [٢٢٠١].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" [١٩/١١] برقم: [٦٤٨١]، وأخرجه الدارمي في "سننه" باب: [فِي الصَّمْتِ] [١٧٨١/٣] برقم: [٢٧٥٥]، وأخرجه الترمذي في "سننه" [٦٦٠/٤] برقم: [٢٥٠١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" [١٠٨٩/٢] برقم: [٦٣٦٥].

يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿[آل عمران: ١٨٨]، يُحِبُّونَ الْكَلَامَ، لَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ فِعْلٌ، عَلَى

أَرْضِ الْوَاقِعِ تَبَحُّثٌ عَنِ أَفْعَالٍ لَهُمْ فِي رَصِيدِهِمْ فَلَا تَجِدُ.

وَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ مَالِكًا الَّذِي كَانَ يَكْرَهُ وَيُعِيبُ كَثْرَةَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ:

" وَيَكْثُرُ الْكَلَامُ فِي الضَّعْفَاءِ وَالنِّسَاءِ "، الضَّعِيفُ الَّذِي لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا

فِيحَاوِلُ أَنْ يَسُدَّ نَقْصَهُ بِالْكَلَامِ، وَهُوَ فِي النِّسَاءِ مَوْجُودٌ.

الْصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِيجَابِيَّاتِ، وَإِنَّمَا دَائِمًا تَجِدُهُمْ

فِي كَلَامِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ السَّلْبِيَّاتِ وَعَنِ الْأَخْطَاءِ، وَخَاصَّةً فِي الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ يَنْظُرُونَ فِي أَخْطَاءِ الْعَامِلِينَ، فَتَجِدُهُ يُفْتَشُّ عَنِ

الْأَخْطَاءِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ عَنْهَا، فَإِذَا اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْمَعَ مِنْهُ

كَلِمَةً فِيهَا نَظْرَةٌ إِلَى حَسَنَةِ فُلَانٍ أَوْ الْمُؤَسَّسَةِ الْفُلَانِيَّةِ أَوْ الْوِزَارَةِ الْفُلَانِيَّةِ

أَوْ الْجِهَةِ الْفُلَانِيَّةِ، دَائِمًا يَتَحَدَّثُ عَنِ السَّلْبِيَّاتِ حَتَّى تَمَلَّ مِنْ سَمَاعِهِ، مَا

تَسْمَعُ كَلَامًا يَرْفَعُ الْهَمَةَ وَيُرِيحُ النَّفْسَ.

عباد الله ... إِنْ نَبِيْنَا ﷺ يَقُولُ: « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ

الْإِيمَانَ قَلْبُهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ

يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ» (١)، بَلْ قَالَ ﷺ كَمَا

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٠/٣٣) برقم: [١٩٧٧٦]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في الغيبة] [٢٧٠/٤]

برقم: [٤٨٨٠]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (١٣٢٢/٢) برقم: [٧٩٨١]، واللفظ لأحمد.

جاء في صحيح ابن حبان: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمْ الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِدْعَ فِي عَيْنِهِ»^(١) القداة الوسخ الغبار الصغير في عين الآخرين يُبْصِرُهُ وَلَا يُبْصِرُ الْجِدْعَ فِي عَيْنِهِ لَا يُبْصِرُ أَخْطَاءَهُ، وَلَا يُبْصِرُ عُيُوبَهُ وَإِنَّمَا يُبْصِرُ عُيُوبَ الْآخِرِينَ وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُمْ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ حَتَّى تَشْعُرَ وَأَنْتَ تَسْتَمِعُ إِلَيْهِ أَنْ لَيْسَ فِي الْمُجْتَمَعِ إِيجَابِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَهُوَ كَثِيرُ الْكَلَامِ قَلِيلُ الْفِعَالِ، لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي السَّلِيَّاتِ وَلَا يُبْصِرُ الْإِيجَابِيَّاتِ.

وَالثَّلَاثَةُ: يَتَكَلَّمُ مِنْ أَجْلِ الْكَلَامِ فَقَطْ، مِنْ أَجْلِ الْكَلَامِ يَتَكَلَّمُ، وَهَذِهِ مُصِيبَةٌ أَنْ بَعْضَ النَّاسِ يَتَكَلَّمُ فَقَطْ مِنْ أَجْلِ الْكَلَامِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ يَهَيِّجُ النُّفُوسَ، يَهَيِّجُ الضَّمَائِرَ وَيَنْسَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(٢).

صِفَةٌ رَابِعَةٌ: التَّهَرُّبُ مِنَ الْمَسْئُولِيَّاتِ، لَا يَتَحَمَّلُ أَيَّ مَسْئُولِيَّةٍ، تَقُولُ: يَا فَلَانُ نُكَلِّفُكَ بِكَذَا، فَيَمْتَنِعُ وَيَتَهَرَّبُ وَيَقُولُ: لَا لَا أَسْتَطِيعُ، يَخَافُ يَتَهَرَّبُ مِنَ الْمَسْئُولِيَّاتِ، تَقُولُ لَهُ: افْعَلْ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَنَادِي وَتَطَالِبُ بِهِ فَيَقُولُ: لَا أَقْدِرُ عَلَى فَعْلِهِ، أَطْلُبُوا مِنْ غَيْرِي، أَنَا مَشْغُولٌ!!!

(١) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذَكَرَ الْإِخْبَارَ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ تَفْقُدِ عُيُوبِ نَفْسِهِ دُونَ طَلَبِ مَعَايِبِ النَّاسِ] [٧٣/١٣] برقم: [٥٧٦١]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١١٢/٩) برقم: [٦٣٣٧]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٧٤/١) برقم: [٣٣].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٥٩/٣) برقم: [١٧٣٧]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [كَفَّ اللَّسَانَ فِي الْفِتْنَةِ] [١٣١٥/٢] برقم: [٣٩٧٦]، وأخرجه الترمذي في "سننه" (٥٥٨/٤) برقم: [٣٣١٧]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٣٦١/٣) برقم: [٤٨٣٩].

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ فِي هَوَاةِ الْكَلَامِ: أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِي كُلِّ فَنٍّ، يَتَحَدَّثُ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ وَكَأَنَّهُ عَالِمٌ، وَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْاِقْتِصَادِ وَكَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعِ التَّعَامُلَاتِ الْمَالِيَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَتَحَدَّثُ عَنِ الطَّبِّ وَعَنِ الْفَلَكِ وَعَنِ جَمِيعِ الْعُلُومِ، فَيَحْتَكِرُ الْحَدِيثَ فِي كُلِّ فَنٍّ، بَلْ وَيَجَادِلُ الْجَمِيعَ لِتَكُونَ لَهُ الْغَلْبَةُ دَائِمًا، وَنَبِيًّا ﷺ يَقُولُ كَمَا جَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: «أَنَا زَعِيمٌ بَبَيْتٍ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»^(١)، أَي: أَنَا ضَامِنٌ. خَتَامًا يَقُولُ: سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! دَعِ الْمِرَاءَ فَإِنَّ نَفْعَهُ قَلِيلٌ وَهُوَ يَهَيِّجُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، وَالْأَوْزَاعِي -رَحِمَهُ اللَّهُ- يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ شَرًّا أَلْزَمَهُمُ الْجَدَلَ وَمَنَعَهُمُ الْعَمَلَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في حُسْنِ الْخُلُقِ] (٢٥٣/٤) برقم: [٤٨٠٠]، وأخرجه البزار في "مسنده" (٢٠٨/٩) برقم: [٣٧٥٤]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٢٨٢/٤) برقم: [٤٣٢٦]، ضعفه الألباني في الضعيفة (٥٤/١٢) برقم: [٥٥٣٦].

٢٢

خطورة الوقوع فـك أعراض الناس

عباد الله ...

كُنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ أَوْلِيكَ الْمَفَالِيسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ إِلَّا الْكَلَامُ
وَكَانَتْ خُطْبَتُنَا بِعُنْوَانِ هُوَاةِ الْكَلَامِ، وَبَيْنَا طَرَفًا مِنْ صِفَاتِهِمْ، وَجَاءَ
مِنْ صِفَاتِهِمْ: أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ الْوَقِيعَةَ فِي أَعْرَاضِ الْآخَرِينَ، يَتَحَدَّثُونَ
فِي الْآخَرِينَ، يَنْتَقِصُونَ مِنْ قَدْرِهِمْ، وَيَحْتَقِرُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَرُونَ
مِنَ الْجُهْدِ إِلَّا مَا بَدَّلُوهُ هُمْ، هُوَ لَاءِ مَفَالِيسٍ؛ لِذَا قَالَتِ الْعَرَبُ: عَلَامَةُ
الْإِفْلَاسِ كَثْرَةُ الْحَدِيثِ عَنِ النَّاسِ.

الَّذِي لَيْسَ لَدَيْهِ شَيْءٌ؛ هُوَ الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الْكَلَامِ وَيَنْتَقِصُ مِنَ
الْآخَرِينَ، وَلَا يَرَى مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا قَدَّمَ هُوَ، يُصْبِحُ وَيُمْسِي يَتَكَلَّمُ،
تَسْمَعُ مِنْهُ دَوِيًّا وَلَا تَرَى لَهُ أَثْرًا، هُوَ لَاءِ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْوَاقِعُونَ فِي
الْغَيْبَةِ، غَفَلُوا أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَهُ حُرْمَةٌ عِنْدَ اللَّهِ.

نَظَرَ ابْنُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ فَأَرْسَلَ هَذَا الْخِطَابَ قَائِلًا:
" مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ
مِنْكَ"، وَنَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللَّهُ،
وَشِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ
الْبُرَاءَ الْعَنْتَ » (١).

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٢١/٢٩) برقم: [١٧٩٩٨]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٣٦٦/٣) برقم: [٤٨٧١].

فَمَا هُوَ حَدِيثُنَا لِهَؤُلَاءِ؟ تَحَدَّثْنَا عَنْ خُطُورَتِهِمْ وَتَحَدَّثْنَا عَنْ وَصْفِهِمْ،
فَبِمَاذَا نُوصِيهِمْ؟ نُوصِيهِمْ وَأَنْفُسَنَا بِأَرْبَعِ وَصَايَا: -

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: نَقُولُ لَهُمْ وَلَا نَفْسِنَا: فَلَنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْنَا،
مَهْمَا قِيلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ فِي الْخَفَاءِ وَمَهْمَا بَلَغَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنَ
السَّرِّيَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ
تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا
وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٩-٣٠].

عبد الله ... لَا تَقُلْ: لَا أَحَدٌ يَعْلَمُ بِكَلَامِي، تَمْشِي هَكَذَا فِي الْخَفَاءِ
وَتَبْتُ هَذِهِ السُّمُومَ لَا، فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
يَعْلَمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَنْفُوهُ بِهَا، يَقُولُ الْحَقُّ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ
مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، هُوَ لَاءِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ أَعْمَالِ الْآخِرِينَ يَقُولُ
اللَّهُ فِي شَأْنِهِمْ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ

عَلَامُ الْغُيُوبِ * الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ
وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿التوبة: ٧٨-٧٩﴾.

إِذَا هَذِهِ الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: فَلْنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْنَا، وَحَتَّى
يَكُونَ لِهَذَا الْعِلْمِ بِاطْلَاعِ اللَّهِ عَلَيْنَا أَثَرُهُ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُرْسِلُ مَنْ يُسَجِّلُ
مَا نَقُولُ حَتَّى لَا يُنْكِرَ بَعْضُنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقُولُ: مَا قُلْتُ، وَمَا فَعَلْتُ
فَقَدْ قَالَ الْحَقُّ ﷻ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الثَّانِيَةِ: أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُدَوِّنُ
وَيَكْتُبُ وَيَنْسَخُ. يَقُولُ فِي سُورَةِ الزُّحُرْفِ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا
نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]،
وَيَقُولُ ﷻ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا
كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وَيَقُولُ فِي سُورَةِ ق:
﴿إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ
قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨]، وَيَقُولُ فِي سُورَةِ الْانْفِطَارِ:
﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

أَيْنَ نَذَهَبُ؟ إِذَا كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا نُخْفِي فِي صُدُورِنَا وَمَا نُبْدِيهِ أَيْنَ
نَذَهَبُ؟ إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَنْ يُدَوِّنُ مَا نَقُولُ أَيْنَ نَذَهَبُ؟ إِذَا هَذِهِ رِسَالَةٌ

لَهُؤُلَاءِ الْمَفَالِسِ الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَمْلُؤُوا هَذِهِ الْمَجَالِسَ بِالْكَلَامِ
دُونَ أَنْ يَكُونَ لِقَوْلِهِمْ أَثَرٌ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ.

نَعَمْ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَفَالِسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ؛ لِأَنَّ الْقَضِيَّةَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ تَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وهذه هي الوصية الثالثة: يقول نبينا ﷺ لِلصَّحَابَةِ رضي الله عنهم:
«أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لَا دِرْهَمَ
لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: " الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ،
وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عَرَضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا،
وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيُقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ
فِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ،
ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ «^(١)، هَذَا مُفْلِسٌ! صِيَامٌ وَصَلَاةٌ وَزَكَاةٌ، لَكِنْ وَقَعَ فِي
حُقُوقِ النَّاسِ، الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ.

عباد الله ... ذكر أن الحسن -رحمه الله- علم أن فلاناً قد وقع فيه
أي اغتابه، فأرسل إليه طباقاً من تمرٍ وكتب له: " بلغني أنك قد أهديت
إلي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها". وقال رجلٌ للحسن البصري
-رحمه الله-: " بلغني أنك تغتابني وتقع في عرضي، قال له الحسن:

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٣٩/١٤) برقم: [٨٤١٥]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [ما جاء في شأن الحساب
والقصاص] [٦١٣/٤] برقم: [٢٤١٨]، وصححه ابن حبان في "صحيحه" (٣٥٩/١٦) برقم: [٧٣٥٩]، واللفظ لأحمد.

مَا بَلَغَ قَدْرُكَ عِنْدِي أَنْ أَحْكَمَكَ فِي حَسَنَاتِي". الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ.

وهذا الأوزاعي - رَحِمَهُ اللهُ - يقول: " لَوْ كُنْتُ مُغْتَابًا أَحَدًا لَأَعْتَبْتُ وَالِدِي؛ لِأَنَّهُمَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي". لَوْ كُنْتُ عَلَى سَبِيلِ الْاِفْتِرَاضِ سَأَعْتَابُ أَحَدًا لَأَعْتَبْتُ وَالِدِي؛ لِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي، حَدِيثُنَا عَنْ هُوَ لَاءِ الْمَفَالِيسِ وَوَصَايَا وَحَقَائِقُ لَهُمْ وَلَا نَفْسِنَا، وَبَيْنَا فِي حَقِيقَتِنَا الْأَوْلَى أَنْ اللهُ مُطَّلَعٌ عَلَيْنَا، وَفِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُدَوِّنُ وَيَكْتُبُ وَيَسْتَنْسِخُ مَا نَقُولُ.

فالوصية الثالثة: أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ التَّعَامُلُ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَا

دِينَارَ وَلَا دِرْهَمَ، فَمَا هِيَ الْحَقِيقَةُ الرَّابِعَةُ؟

بَيَانُ حَجْمِ الْجَرِيمَةِ وَبَيَانُ خَطَرِ الْخَطِيئَةِ، هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي نَقَذُفُ بِهِ وَاللهُ خَطِيرٌ، نَعَمْ قَدْ نَتَفَكَّهُ بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، وَيَقُولُ الْقَائِلُ: لَا تَحْلُو الْمَجَالِسُ إِلَّا بِالْحَدِيثِ عَنِ النَّاسِ، لَكِنْ وَاللهُ إِنَّهُ لَخَطِيرٌ، وَيَدُلُّ عَلَى خُطُورَتِهِ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَحَادِيثَ عَدِيدَةٍ لَا يَسَعُ الْمَجَالُ لَذِكْرِهَا كُلِّهَا، لَكِنْ حَسْبِي وَإِيَّاكُمْ أَنْ أَذْكَرَ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثٍ لِمَنْ أَلْقَى هَذَا السَّمْعَ وَفَتَحَ هَذَا الْقَلْبَ وَقَالَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. جَاءَ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْأَوْسَطِ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ يَقُولُ ﷺ: «الرَّبَّابَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَدْنَاهَا مِثْلُ إِتْيَانِ

الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَأَزْبَى الرَّبَا اسْتِطَالَةَ الرَّجُلِ فِي عَرَضِ أَخِيهِ»^(١)، وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ »^(٢)، وَرَدْغَةُ الْخَبَالِ مُسْتَقْعُ أَهْلِ النَّارِ هُنَاكَ حَيْثُ الصَّيْدُ وَالِدَّمَاءُ وَمَا يَسِيلُ مِنَ الْقُرُوحِ، وَمَا يَتَّبِعُ عَنْ تِلْكَ النَّارِ الَّتِي تَحْرِقُ الْعِظَامَ وَاللَّحْمَ، هَذَا مَسْكَنُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِي الْآخِرِينَ يَقِلُّ مِنْ شَأْنِهِمْ وَيَحْقِرُهُمْ وَيَتَحَدَّثُ عَنْ زَلَاتِهِمْ وَأَخْطَائِهِمْ حَتَّى يَعْلُوَ وَيَتَسَلَّقَ عَلَى ظُهُورِهِمْ، مَسْكِينِ هَذَا أَمَا فِكْرَ كَمْ سَيَعِيشُ؟ عِشْرِينَ، ثَلَاثِينَ أَرْبَعِينَ، سِتِّينَ، مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ مَاذَا فِي النِّهَايَةِ، مَسْكَنَةُ رَدْغَةِ الْخَبَالِ. بَلْ إِنَّهُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ لَهُ عَذَابٌ خَاصٌّ، فَمَا هُوَ عَذَابُهُ؟

جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُسُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ »^(٣)، هَذَا عَذَابُهُمْ فِي الْقَبْرِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٥٨/٧) برقم: [٧١٥١] وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٨٨/٤) برقم: [١٨٧١]، واللفظ للطبراني.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٨٣/٩) برقم: [٥٣٨٥]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [فِيمَنْ يُعِينُ عَلَى خُصُومَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ أَمْرَهَا] (٣٠٥/٣) برقم: [٣٥٩٧]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٠٧٢/٢) برقم: [٣٦١١]، واللفظ لأبي داود.

(٣) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٣/٢١) برقم: [١٣٣٤٠]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [فِي الْغِيْبَةِ] (٢٦٩/٤) برقم: [٤٨٧٨]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٦٩/٢) برقم: [٥٣٢]، واللفظ لأبي داود.

ختاماً ... أذكر نفسي وإياكم معاشر الكرام بقول نبينا ﷺ: «أَكْثَرُ
خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»^(١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٩٧/١٠) برقم: [١٠٤٤٦]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٧٠/٢) برقم: [٥٣٤].

٢٣

خطبة عيد الفطر
رمضان مظهر لوحدة الأمة

عباد الله ...

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، هَكَذَا
تَنْقِضِي هَذِهِ الْأَيَّامَ الْمُبَارَكَةَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ فَازِ فِيهِ الْفَائِزُونَ وَخَابَ
فِيهِ الْخَاسِرُونَ، خَرَجَ هُوَ لَا لِأَنَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ
مُؤْتَمَرٍ عَالَمِيٍّ حَضَرَهُ عَشْرَاتُ الْمَلَائِكِينَ، بَلْ رُبَّمَا مِائَاتُ الْمَلَائِكِينَ حَضَرُوا
هَذَا الْمُؤْتَمَرَ الْعَظِيمَ مُؤْتَمَرِ رَمَضَانَ، هَذَا الْمُؤْتَمَرُ الْعَالَمِيُّ الَّذِي خَرَجَ بِهِ
هُوَ لَا لِأَنَّ الْمُؤْتَمِرُونَ مِنْ هَذِهِ التَّوَصِيَّاتِ الْعَظِيمَةِ.

وَأَنْتِ تَتَأَمَّلُ شَهْرَ رَمَضَانَ وَتَتَأَمَّلُ هَذِهِ الْجُمُوعَ الْغَفِيرَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَهُمْ يَصُومُونَ صِيَامًا وَاحِدًا، يُفْطِرُونَ عَلَى هَيْئَةٍ
وَاحِدَةٍ، وَيُمْسِكُونَ عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ، حَالُهُمْ يُشْبِهُ حَالَ أَوْلِيكَ الَّذِينَ
دَخَلُوا فِي مُؤْتَمَرٍ وَخَرَجُوا بِهِ بَعْدَ تَوْصِيَّاتٍ، وَإِنِّي أَدْكُرُ لَكُمْ بَعْضَ
هَذِهِ التَّوَصِيَّاتِ الَّتِي خَرَجَ بِهَا هُوَ لَا لِأَنَّ الْمُؤْتَمِرُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَقَدْ
جَمَعُوهَا عَلَى هَيْئَةٍ لَأَنَّ سِتًّا -

الأولى: لَا خَلَاصَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ.

والثانية: لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْعَمَلِ.

والثالثة: لَا خَيْرَ وَلَا عِزَّ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ.

والرابعة: لَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ.

وَالْحَامِسَةُ: لَا لِلْعُزْلَةِ إِلَّا مَا وَافَقَ الشَّرْعَ.
 وَالسَّادِسَةُ: لَا لِلتَّلَاحِي، لَا لِلخُصُومَاتِ، لَا لِلْمُنَازَعَاتِ.
 لَا خَلَاصَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ: قَرَأْنَا فِي أَحَادِيثِ رَمَضَانَ وَمَا أَكْثَرَ
 أَحَادِيثِ رَمَضَانَ الَّتِي رَبَّنَا عَلَيَّ أَنَّهُ لَا خَلَاصَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ، قَرَأْنَا
 فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ ﷻ: « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:
 الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَأَكَلَهُ وَشَرِبَهُ مِنْ أَجْلِي ^(١)، تَرْبِيَّةٌ
 عَلَيَّ الْإِخْلَاصِ «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ
 مِنْ ذَنْبِهِ» ^(٢)، تَرْبِيَّةٌ عَلَيَّ الْإِخْلَاصِ حَتَّى تَجْعَلَ عَمَلَكَ كُلَّهُ لِلَّهِ خَالِصًا كَمَا
 قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتِغِي بِهِ
 وَجْهَهُ» ^(٣)، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ أَوْ سَكَتَ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لِلَّهِ، وَإِذَا قُمْتَ أَوْ قَعَدْتَ
 فَاجْعَلْ ذَلِكَ لِلَّهِ، وَإِذَا تَحَرَّكَتَ أَوْ سَكَتَ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لِلَّهِ ﴿الَّذِي خَلَقَ
 الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].
 يَقُولُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: الْعَمَلُ الْحَسَنُ أَخْلَصُهُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: {قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥]}
 برقم: [١٤٣/٩]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: {بَابُ فَضْلِ الصِّيَامِ} [٨٠٧/٢] برقم: [١١٥١].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: {صَوْمُ رَمَضَانَ اخْتِسَابًا مِنَ الْإِيمَانِ} [١٦/١] برقم: [٣٨]، وأخرجه
 مسلم في "صحيحه" باب: {التَّرْغِيبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، وَهُوَ التَّرَاوِيحُ} [٥٢٣/١] برقم: [٧٦٠].

(٣) أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" باب: {مَنْ غَرَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذُّكْرَ} [٢٨٦/٤] برقم: [٤٣٣٣]، وأخرجه الطبراني
 في "المعجم الأوسط" [٢٥/٢] برقم: [١١١٢]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" [٦٢٤/٦] برقم: [٢٧٦٤].

وَأَصُوبُهُ، قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ! مَا أَخْلَصَهُ وَمَا أَصُوبَهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا، لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا؛ لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ مَا كَانَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ مَا كَانَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

إِذَا: التَّوَصِيَّةُ الْأُولَى: يُرَبِّنَا شَهْرَ رَمَضَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا خَلَاصَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ.

وَالتَّوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْعَمَلِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحَقِّقَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ النِّجَاةَ بِالْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ وَالْأَوْهَامِ الزَّائِفَةِ، لَا يُحَقِّقُ النِّجَاةَ بِالْكَلامِ دُونَ الْفِعْلِ، تَرَبَّنَا عَلَى هَذَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، انظُرْ إِلَى جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: « قَدْ سَأَلْتَ عَن عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ »^(١)، تَرْبِيَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْعَمَلِ.

وَيَأْتِي أَبُو أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مُرْنِي

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٣٤٤/٣٦) برقم: [٢٢٠١٦]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" باب: [قَوْلُهُ تَعَالَى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة: ١٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]] [٢١٤/١٠] برقم: [١١٣٣٠]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٠٩/١٩) برقم: [٤٧٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٩١٣/٢) برقم: [٥١٣٥].

بِعَمَلٍ، جَابِرٌ يَقُولُ أَخْبَرَنِي بِعَمَلٍ وَأَبُو أَمَامَةَ يَقُولُ: مُرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي
الْجَنَّةَ، فَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ»^(١)، تَرْبِيَةٌ
عَلَى أَنَّهُ لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْعَمَلِ، فَأَصْحَابُ الْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ
الْمَوْلَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:
١٢٣-١٢٤]، لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ
هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فَلَا خَلَاصَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ، وَلَا نَجَاةَ
إِلَّا بِالْعَمَلِ.

وَفِي تَوْصِيَةٍ ثَالِثَةٍ: يَخْرُجُ بِهَا الْمُؤْتَمِرُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَنَّهُ، لَا عِزَّ
وَلَا خَيْرَ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَالْعَجَبُ لَا يَنْقُضِي وَأَنْتَ تَرَى أَهْلَ السُّنَّةِ
يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّنَّةِ، وَأَنْتَ تَرَى أَهْلَ السُّنَّةِ يَرْفُضُونَ السُّنَّةَ، وَأَنْتَ تَرَى
أَهْلَ السُّنَّةِ يُعْرِضُونَ عَنِ السُّنَّةِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ فِي ابْتِعَادِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٦٥/٣٦) برق: [٢٢١٤٨]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" باب: [ذِكْرُ الْإِخْتِلَافِ
عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ فِي فَضْلِ الصِّيَامِ] [١٣٤/٣] برقم: [٢٥٤٣]، وأخرجه الطبراني في "المعجم
الكبير" (٩٨/٨) برقم: [٧٤٦٤]، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان" (٢٩٧/٥) برقم: [٣٤١٧].

فِتْنَةٌ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

رَبِّي النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتُهُ فِي رَمَضَانَ عَلَى تَعْظِيمِ السُّنَّةِ، وَرَبَطَ هَذَا الْأَمْرَ
بِظُهُورِ الدِّينِ وَخَيْرِيَّةِ النَّاسِ وَإِعْزَازِ الْأُمَّةِ، فَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ ﷺ:
«لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»^(١)، وَيَقُولُ: «لَا يَزَالُ الدِّينُ ظَاهِرًا
مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»، وَيَقُولُ: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى سُنَّتِي مَا لَمْ تَنْتَظِرْ بِفِطْرِهَا
النُّجُومَ»^(٢).

وَقَفَ الْفَارُوقُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُنَاكَ عَلَى مَشَارِفِ أَرْضِ الشَّامِ وَوَجَّهَ
كَلِمَتَهُ الشَّهِيرَةَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ يَرْبِطُ هَذَا الْأَمْرَ
وَهُوَ اتِّبَاعُ السُّنَّةِ وَظُهُورُ الْإِسْلَامِ قَالَ: «يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا
اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ». فَلَا يُمَكِّنُ
أَنْ تُحْصَلَ الْأُمَّةُ الْعِزَّ وَالتَّمَكُّينَ وَالمَنْعَةَ وَالظُّهُورَ إِلَّا حِينَمَا تَتَّبِعُ سَيِّدَ
الْمُرْسَلِينَ ﷺ، فَلَا خَلَاصَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا عِزَّ
وَلَا خَيْرِيَّةَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ.

وَرَابِعًا: لَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ، رَأَيْنَا رَمَضَانَ وَأَيَّامَهُ وَنَهَارَهُ وَلَيْلَهُ وَقَدْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [تَعْجِيلِ الْإِفْطَارِ] (٣٦/٣) برقم: [١٩٥٧]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فَضْلِ السُّحُورِ وَتَأْكِيدِ اسْتِحْبَابِهِ، وَاسْتِحْبَابِ تَأْخِيرِهِ وَتَعْجِيلِ الْفِطْرِ] (٧٧١/٢) برقم: [١٠٩٨].

(٢) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الْخَيْرِ الْمُدْحِضِ قَوْلَ مَنْ أَبْطَلَ مِرَاعَاةَ الْأَوْقَاتِ لِأَدَاءِ الطَّاعَاتِ بِالْحَيْلِ وَالْأَسْبَابِ] (٢٧٨/٨) برقم: [٣٥١٠]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" برقم: [٢٠٨١].

أَشْرَقَتْ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ وَأَضَاءَتْ بِوُجُوهِ الْمُصَلِّينَ السَّاجِدِينَ الرَّكَعِينَ الْمُسَبِّحِينَ الْمُتَوَضِّئِينَ، فَتَمَيَّزَ رَمَضَانَ بِتِلْكَ الصَّلَوَاتِ الْمُبَارَكَاتِ صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ وَلَكِنْ لَيْسَ فِي رَمَضَانَ، بَلْ فِي رَمَضَانَ وَفِي غَيْرِ رَمَضَانَ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ» (١).

يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ، وَالْفَارُوقُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ كَلِمَةٌ شَهِيرَةٌ قَالَهَا وَهُوَ يَتَهَاوَى عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ طَعَنَهُ الْمَجُوسِيُّ أَبُو لَوْلُؤَةَ وَجِسْمُهُ مُضْرَجٌ بِالْدمَاءِ يَقُولُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الصَّحَابَةِ: «وَلَا حَظٌّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ» (٢)، فَتَوْصِيَةٌ رَابِعَةٌ: لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ.

وَتَوْصِيَةٌ خَامِسَةٌ: لَا لِلْعُزْلَةِ إِلَّا مَا وَافَقَ الشَّرْعَ، الْأُمَّةُ تَحْتَاجُكَ فَلَا تَقْبَعُ فِي بَيْتِكَ وَتَنْزَوِي فِي رُكْنِكَ، فَإِنَّ الْأُمَّةَ تَحْتَاجُكَ، تَحْتَاجُ إِلَى جُهُودِكَ، تَحْتَاجُ إِلَى حُضُورِكَ، تَحْتَاجُ إِلَى جَاهِكَ وَسُلْطَانِكَ، تَحْتَاجُ إِلَى قَوْلِكَ، تَحْتَاجُ إِلَى فِعْلِكَ، فَانظُرْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَيْفَ يَغْرِسُ ذَلِكَ فِينَا

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢٤٠/٢) برقم: [١٨٥٩]. وصححه الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" برقم: [٣٤٣/٣].

(٢) أخرجه مالك في "الموطأ" باب: [العَمَلُ فِيمَنْ غَلَبَهُ الدَّمُ مِنْ جُرْحٍ أَوْ رُعَافٍ] (٣٩/١) برقم: [٥١]. وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٢٢٥/١) برقم: [٢٠٧].

فِي رَمَضَانَ، يَعْتَكِفُ اعْتِكَافًا شَرَعِيًّا وَلَكِنَّهُ يَقُولُ فِي مُقَابِلِ هَذَا الِاعْتِكَافِ يَقُولُ: «وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا، دَعْوَةٌ إِلَى الْمُشَارَكَةِ، دَعْوَةٌ إِلَى الْحُضُورِ كَمَا قَالَ ﷺ: «الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَيَّ أَدَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَيَّ أَدَاهُمْ» (١).

يَمُرُّ أَحَدُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنه وَالْحَدِيثُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي سُنَنِهِ، يَمُرُّ بِشُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ فَإِذَا فِيهِ عَيْنَةٌ مَاءٍ عَذْبَةٍ أَعْجَبَتْهُ فَقَالَ: لَوْ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ وَجَلَسْتُ عِنْدَ هَذِهِ الْعَيْنِ أَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا وَأَكُلُ مِمَّا حَوْلَهَا، وَلَكِنْ لَا، لَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْعُزْلَةِ فَاسْمَعُ مَاذَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُرَبِّيهِ عَلَيَّ الْمُشَارَكَةِ وَالْمُخَالَطَةَ، الْمُشَارَكَةَ الْإِيجَابِيَّةَ وَالْمُخَالَطَةَ الْمُنْتَجِجَةَ قَالَ: «لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا» (٢).

وَمِمَّا خَرَجَ بِهِ هُوَ لِأَيِّ الْمُؤْتَمِرُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: أَنَّهُ لَا لِلتَّلَاحِي، لَا لِلْمُنَازَعَاتِ، لَا لِلْخُصُومَاتِ هَكَذَا رَبِّي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أُمَّتُهُ فِي رَمَضَانَ،

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٦٤/٩) برقم: [٥٠٢٢]، وأخرجه الترمذي في "سننه" (٦٦٢/٤) برقم: [٢٥٠٧]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٤١٠/٣) برقم: [٥٠٨٧].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٥٨/١٦) برقم: [١٠٧٨٦]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْغُدُوِّ وَالرُّوَاحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] (١٨١/٤) برقم: [١٦٥٠]، واللفظ له، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٩٦/٦) برقم: [٣٩٢٥]، وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١١٣٥/٢) برقم: [٣٨٣٠].

يُخْرِجُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عِبَادَةِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَتَى تَكُونُ فَتَلَا حَى رَجُلَانِ فَخَرَجَ فَقَالَ: «خَرَجْتُ لِأُخْبِرْكُمْ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَا حَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرَفَعْتُ»، وَبِالتَّالِي نَخْرُجُ بِهَذِهِ التَّوْصِيَةِ أَنَّ الْمُلَاحَاةَ وَالْخُصُومَاتِ وَالْهَجَرَ وَالْقَطِيعَةَ وَالتَّنَازُعَ تُرْفَعُ بِهَا الْخَيْرَاتُ وَتُرْفَعُ الْبَرَكَاتُ ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، لَا تَنَازَعُوا عَلَى مُسْتَوَى الْأَسْرِ، لَا تَنَازَعُوا عَلَى مُسْتَوَى الْمُجْتَمَعِ، لَا تَنَازَعُوا عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ وَعَلَى مُسْتَوَى الْجَمَاعَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنَّا الْهَيْبَةَ وَالْخَشْيَةَ، وَلَا يُصْبِحُ لِلْمُسْلِمِ قِيَمَةٌ، وَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَدْ سُودَتْ صَفَحَاتُهُ بِالسَّيِّئَاتِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً، فَهُوَ كَسَفِكَ دَمِهِ»^(١)، سَنَةً لَا يُكَلِّمُهُ.

العِيدُ فُرْصَةٌ لِإِعَادَةِ مَا بَيْنَ النَّاسِ مِنْ عِلَاقَاتِ، الْعِيدُ فُرْصَةٌ لِتَصَالِحِ الْقُلُوبِ، عِبَادَ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَتَصَافَحَ الْأَيْدِي؛ فَلْتَتَصَافَحِ الْقُلُوبُ وَخَيْرُكُمْ الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٥٥/٢٩) برقم: [١٧٩٣٥]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [فِيمَنْ يَهْجُرُ أَخَاهُ الْمُسْلِمِ] (٢٧٩/٤) برقم: [٤٩١٥]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٣٠٧/٢٢) برقم: [٧٧٩]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١١٢٠/٢) برقم: [٦٥٨٠].

نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤-٣٦﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦]، فُرْصَةٌ أَنْ نَحْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ إِلَى عِبَادَةٍ حَقِيقِيَّةٍ فِي إِصْلَاحِ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْآخَرِينَ مِنْ مُشَاكَسَاتٍ وَخُصُومَاتٍ، فُرْصَةٌ أَنْ تَتَوَاصَلَ هَذِهِ الْقُلُوبُ الَّتِي هَجَرَتْ بَعْضُهَا بَعْضًا، فُرْصَةٌ أَنْ تَتَقَارَبَ هَذِهِ الْأَنْفُسُ.

فِيَا مَنْ خَاصَمْتَ وَالِدَكَ، الْعِيدُ فُرْصَةٌ، يَا مَنْ خَاصَمْتَ إِخْوَانَكَ وَأَخَوَاتِكَ الْعِيدُ فُرْصَةٌ وَلَا تَقُلْ: أَخَشَى عَلَى نَفْسِي مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعْفِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا بَدَأَ رَفَعَهُ اللَّهُ وَأَنَالَهُ لِبَاسِ الْخَيْرِ يَتَّقِي فَقَدْ قَالَ نَبِينَا ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»^(١)، هَكَذَا تَنْقِضِي أَيَّامَ رَمَضَانَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الهجرة] (٢١/٨) برقم: [٦٠٧٧]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي] (١٩٨٤/٤) برقم: [٢٥٦٠].

٢٤

التقرير الأهم

عباد الله ...

فِي الْأَشْهُرِ الْمَاضِيَةِ عَاشَ الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ تَرَقُّبٍ وَتَطَّلُعٍ لِمَا سَيَحْوِيهِ تَقْرِيرٌ لَجَنَةِ تَقْصِي الْحَقَائِقِ، وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الْإِعْلَانِ عَمَّا سَيَحْوِيهِ هَذَا التَّقْرِيرُ؛ كَلَّمَا زَادَ التَّوَتُّرُ وَالتَّشْنُّجُ فِي نُفُوسِ أُنْبَاءِ الْمُجْتَمَعِ وَضُرِبَ لَهُ يَوْمٌ، فَلَمَّا أُعْلِنَ انْقَسَمَ النَّاسُ فِيهِ عَلَى قِسْمَيْنِ: -

فَرِيقٌ رَضِيَ بِهِ وَآخَرُ تَسَخَّطَ عَلَيْهِ، وَفَرِيقٌ فَرِحَ بِهِ وَسُرَّ وَآخَرُ حَزِنَ وَتَضَاقَى، فَرِيقٌ وَافَقَهُ وَآخَرُ خَالَفَهُ، فَرِيقٌ مَدَحَهُ وَالْآخَرُ ذَمَّهُ، فَرِيقٌ تَفَاءَلَ بِمَا فِيهِ وَالْآخَرُ تَشَاءَمَ، وَكُنْتُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ أَيُّ أُنْبَاءِ الْمُجْتَمَعِ أَرَأَيْتُمْ مَا يَحْدُثُ وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا تَقْرِيرٌ يَرْفَعُهُ مَخْلُوقٌ لِمَخْلُوقٍ وَهَكَذَا يَضْطَرِبُ النَّاسُ، هَذَا تَقْرِيرٌ يَكْتُبُهُ مَخْلُوقٌ لِيَرْفَعَهُ لِمَخْلُوقٍ وَهَكَذَا يُحْدِثُ مِنْ حَالَةِ اضْطِرَابٍ وَتَشْنُّجٍ، فَكَيْفَ بِالتَّقْرِيرِ الَّذِي سَيَرْفَعُ بِشَأْنِي وَشَأْنِكَ إِلَى الْخَالِقِ ﷻ، كَيْفَ إِذَا رُفِعَتْ تِلْكَ الصَّحَائِفُ وَقَدْ دُونَ فِيهَا أَعْمَالُنَا وَأَقْوَالُنَا وَتَصَرُّفَاتُنَا وَلَكِنْ إِلَى مَنْ؟ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ ﷻ.

الَّذِي نَبَّهَ عَلَيَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَقَالَ ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ

سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

هُنَاكَ مَنْ يَتَقَصَّى وَيُحْصِي مَا نَفَعَلُ وَسَيَرْفَعُهُ إِلَى الْخَالِقِ ﷻ، كَمَا

جَاءَ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَّةِ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ

مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[الجاثية: ٢٩]﴾، سَيَقِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنَّا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ وَيَقْرُرُهُ بِمَا فِي التَّقْرِيرِ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (١).

قِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: يَا إِبْرَاهِيمُ! بِمَ حَقَّقْتَ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ، قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: « رَأَيْتُ الْقَبْرَ مُوحِشًا وَلَيْسَ مَعِيَ مُؤَنَسٌ، وَرَأَيْتُ الطَّرِيقَ طَوِيلًا وَلَيْسَ مَعِيَ زَادُهُ، وَرَأَيْتُ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَاضِيًا وَلَيْسَ مَعِيَ مَنْ يُدَافِعُ عَنِّي». انشَغَلَ النَّاسُ قَبْلَ التَّقْرِيرِ وَسَيَسْخَعُونَ بَعْدَ التَّقْرِيرِ، وَهَنَّاكَ مَنْ يَقُولُ: قَرَأْتُ التَّقْرِيرَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ حَمْسِمِائَةَ صَفْحَةٍ، وَلَا يَذْكُرُ مَتَى آخِرُ مَرَّةٍ قَرَأَ فِيهَا الْقُرْآنَ، انشَغَلَ النَّاسُ انشَغَلُوا بِذَلِكَ وَنَسُوا أَنَّ هُنَاكَ يَوْمًا تُرْفَعُ فِيهِ التَّقَارِيرُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ.

لِذَا تَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ بِعُنْوَانِ: التَّقْرِيرُ الْأَهْمُّ، وَهُوَ تَقْرِيرِي وَتَقْرِيرُكَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [مَنْ نُوقِشَ الْحَسَابَ عُدْبَ] (١١٢/٨) برقم: [٦٥٣٩]. وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الْحَتُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا جَبَابٌ مِنَ النَّارِ] (٧٠٣/٢) برقم: [١٠١٦]، واللفظ للبخاري.

الَّذِي سَيَّرَفُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، تَقْرِيرٌ يَحْتَوِي عَلَى فِعْلِ الصَّالِحَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ،
الْقُرْبَاتِ وَمَا فَعَلَ الْعَبْدُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَنْحِرَافَاتُ الَّتِي حَادَتْ
بِالْبَعْضِ عَنِ الطَّرِيقِ.

وَهَذَا يَسْأَلُ سَائِلٌ يَقُولُ: مَا مُوَاصَفَاتُ هَذَا التَّقْرِيرِ؟ مُوَاصَفَاتُ
التَّقْرِيرِ الَّذِي سَيَّرَفُ إِلَى اللَّهِ؟

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ يُرْفَعُ فِي يَوْمٍ مُخْتَلَفٍ لَيْسَ كَسَائِرِ الْأَيَّامِ، مَيِّزَةٌ
هَذَا الْيَوْمِ أَنَّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، يَوْمٌ لَيْسَ كَسَائِرِ
الْأَيَّامِ، يَوْمٌ تُعْرَضُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كَمَا قَالَ الْحَقُّ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ
مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

يَوْمٌ مُخْتَلَفٌ تَتَمَازَرُ فِيهِ الْوُجُوهُ، وَوُجُوهُ مُسْفِرَةٌ صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ،
وَوُجُوهُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ تَرَهَقُهَا قَتْرَةٌ أَوْلَيْكَ هُمْ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ، يَوْمَ تَبْيَضُّ
وَوُجُوهُ وَتَسْوَدُّ وَوُجُوهُ، هَكَذَا دَائِمًا حِينَ مَا تُرْفَعُ التَّقَارِيرُ، وَابْنُ آدَمَ مُتَعَلِّمٌ عَلَى
كِتَابَةِ التَّقَارِيرِ فِي الدُّنْيَا، الْمُصْلِحُ الْاجْتِمَاعِي يَكْتُبُ تَقْرِيرًا فِي الطَّالِبِ،
وَالْمَسْئُولُ يَكْتُبُ تَقْرِيرًا فِي الْمُوظَّفِ، وَالْأَجْهَرَةُ الْأَمْنِيَّةُ تَكْتُبُ تَقْرِيرًا
عَنْ فُلَانٍ، وَلَجْنَةُ تَقْصِي الْحَقَائِقِ تَكْتُبُ تَقْرِيرًا، وَقَدْ تَعَوَّدَ الْإِنْسَانُ عَلَى

كِتَابَةِ التَّقَارِيرِ، لَكِنَّهُ غَفَلَ عَنِ التَّقْرِيرِ الأَهْمِ الَّذِي عَلَى إِثْرِهِ إِمَّا أَنْ تَبَيَّضَ
الْوُجُوهُ أَوْ تَسْوَدَّ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُهُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ * وَأَمَّا
الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿آل عمران: ١٠٦-١٠٨﴾.

تَمَّازِزُ الوُجُوهُ، مَيْزَةُ هَذَا اليَوْمِ أَنَّهُ يَوْمُ الفِرَارِ الكَبِيرِ يَوْمُ الهُرُوبِ
الكَبِيرِ يَوْمُ ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:
٣٤-٣٦]، والسَّبَبُ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

تَقُولُ لَهُ وَالِدَتُهُ: يَا بُنَيَّ! حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي طَرِيقِي إِلَى اللَّهِ،
يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي، أَنَا مَشْغُولٌ بِالَّذِي شَغَلَكَ.

مِنْ مُوَاصِفَاتِ هَذَا التَّقْرِيرِ: أَنَّ الَّذِينَ كَتَبُوهُ حَازُوا أَعْلَى دَرَجَاتِ
التَّرَكِّيَّةِ، لَمْ تَزَكَّهُمْ مُنْظَمَاتُ دَوْلَةٍ وَمُنْظَمَاتُ أُمَّيَّةٍ، إِنَّمَا الَّذِي زَكَّاهُمْ
اللَّهُ، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِضُغُوطٍ وَلَا إِلَى إِغْرَاءَاتٍ وَلَا إِلَى تَخْوِيفٍ وَلَا
إِلَى ضُغُوطٍ جَمَاهِيرِيَّةٍ لَا قَالَ المَوْلَى ﷺ فِي شَأْنِهِمْ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ
لِحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، هَذِهِ التَّرَكِّيَّةُ الأُولَى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ
مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢]، زَكَّاهُمْ المَوْلَى ﷺ بِالحِفْظِ وَالكِرَامَةِ حَتَّى
يَعْلَمَ هَذَا الإِنْسَانُ الَّذِي يُكْتَبُ فِيهِ التَّقْرِيرُ أَنْ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى المَلَائِكَةِ.

لَمَّا دَنَتِ الْمَنِيَّةُ مِنْ هَارُونَ الرَّشِيدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هَارُونَ رَجُلٌ عَظِيمٌ
 أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَبَقَتْهُ أَفْعَالُهُ الطَّيِّبَةُ الصَّالِحَةُ، حَكَمَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ
 لَيْسَ بُقْعَةً يَسِيرَةً، لَمَّا دَنَتِ الْمَنِيَّةُ قَالَ: اخْفَرُوا لِي قَبْرًا وَأُرُونِي قَبْرِي
 قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَهُ، وَبِالْفِعْلِ حَفَرَ لَهُ قَبْرَهُ وَحَمَلَ إِلَى قَبْرِهِ مَرِيضًا فَلَمَّا وَقَفَ
 عَلَى قَبْرِهِ نَظَرَ نَظْرَةً فِي الْقَبْرِ وَنَظْرَةً إِلَى الْمَمَالِكِ الَّتِي يَحْكُمُهَا وَالْجُنُودِ
 الَّتِي يَتَرَأْسُهَا وَالْأَمْوَالِ وَالْقُصُورِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْقَبْرِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى
 السَّمَاءِ فَقَالَ: يَا مَنْ لَا يَزُولُ مُلْكُهُ أَرْحَمَ مَنْ زَالَ مُلْكُهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ
 سَيَقْرَأُ التَّقْرِيرَ بَعْدَ قَلِيلٍ.

مِنْ مُوَاصَفَاتِ هَذَا التَّقْرِيرِ: أَنَّ الشُّهُودَ فِيهِ عُدُولٌ، الْأَرْضُ تَشْهَدُ
 كَمَا قَالَ الْحَقُّ ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ
 أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، قَالَ
 ابْنُ كَثِيرٍ: بِأَنَّهَا تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى أَرْضِهَا، مَاذَا فَعَلَ الْعَامِلُونَ؟
 مَاذَا فَعَلَ الصَّالِحُونَ مِنْ رَكَعَاتٍ وَسَجَدَاتٍ وَمَاذَا فَعَلَ الزُّنَاةُ، مَاذَا فَعَلَ
 الصَّالِحُونَ أَهْلُ الزَّكَاةِ، وَمَاذَا فَعَلَ مَنْ أَكَلَ الرِّبَا، سَتَشْهَدُ الْأَرْضُ تَقُولُ:
 يَا رَبُّ فُلَانٌ زَنَا عَلَيَّ وَسَرَقَ عَلَيَّ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، تَقُولُ: فُلَانٌ صَلَّى فِي هَذِهِ
 النَّاحِيَةِ وَرَكَعَ وَسَجَدَ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ، وَالرَّسُولُ ﷺ يَشْهَدُ بِهَذَا التَّقْرِيرِ:
 ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ

يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿النساء: ٤١-٤٢﴾.

المَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢٠-٢١]، سَائِقٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَسُوقُهَا إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ لِتَقْرَأَ تَقْرِيرَهَا وَشَهِيدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُ لَهَا، فَإِذَا قَرَأَ التَّقْرِيرَ وَسَمِعَ الشَّهَادَةَ قَالَ: يَا رَبُّ أَنَا مَا أَقْبَلُ بِهِذِهِ الشَّهَادَةَ وَلَا أَقْبَلُ الرَّسُولَ ﷺ وَلَا أَقْبَلُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ: تَقْبَلُ بِمَنْ؟ قَالَ: أَقْبَلُ بِجَوَارِحِي، فيقال له تُرِيدُ أَنْ تَسْمَعَ شَهَادَةَ جَوَارِحِكَ، يَدُكَ بَصْرُكَ سَمْعُكَ رِجْلُكَ؟ اسْمَعْ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٠]، فَيَغْضَبُ غَضَبًا شَدِيدًا، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٤]، يَقُولُ الْمَوْلَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ

وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[يس: ٦٥].

من مواصفات هذا التقرير أن حجمه كبيرٌ جداً ليس خمسين صفحةً ولا ألف صفحةً ولا مائة ألف صفحةً ولا ملايين الصفحات، الله سُبْحَانَهُ تكلم عن هذا التقرير، وبين لنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجم هذا التقرير، فقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيياً* من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها ﴿[الإسراء: ١٣-١٥].

يقول نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في حديث عبد الله بن عمرٍ وعند الحاكم في مستدركه وصححه: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَجًّا كُلُّ سَجٍّ مَدُّ الْبَصْرِ، فيقول له: أتُنكر من هذا شيئاً؟ أَظلمك كتبي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندي حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة، فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله فيقول: احضُر وزنك فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتثقل البطاقة، ولا تثقل مع اسم الله شيء»^(١)، يقولون فلان قم اقرأ كتابك، إنه تقرير عظيم وهو التقرير الأهم وهو الذي ينبغي أن ننشغل به، من كان بعيداً عن الله؛ فليرجع إلى الله فإنما هي أيام قليلة

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٧٩/٥) برقم: [٤٧٢٥]، وأخرجه الحاكم في "المستدرک على الصحيحين"

برقم: [٧١٠/١]، [١٩٣٧]

مَعْدُودَةٌ ثُمَّ يَقِفُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ لِيَطَّلَعَ عَلَيْهِ مَا عَمَّرَ لِآخِرَتِهِ.
خَتَامًا : وَقَفَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ -رَحِمَهُ اللهُ- قَائِلًا لِأَبِي
حَازِمٍ: يَا أَبَا حَازِمٍ! مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ قَالَ: لِأَنَّكُمْ خَرَّبْتُمْ آخِرَتَكُمْ
وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ تَتَّقِلُوا مِنَ الْعُمَرَانِ إِلَى الْخَرَابِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٢٥

استشعار رقابة المولى ﷻ

عباد الله ...

يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْأُخْرَى أَنْ يُذَكَّرَ بِاطِّلَاعِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَبِسِعَةِ
عِلْمِهِ ﷻ ، لِمَا يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ وَمَا يَخْفَى ، نَحْتَاجُ بَيْنَ الْفَيْئَةِ
وَالْأُخْرَى إِلَى التَّذْكِيرِ بِأَهْمِيَّةِ اسْتِشْعَارِ رِقَابَةِ الْمَوْلَى ، يَحْتَاجُهُ الْمُتَدَيِّنُ
وغيرُ الْمُتَدَيِّنِ ، يَحْتَاجُهُ خَطِيبُ الْجُمُعَةِ وَإِمَامُ الْمَسْجِدِ وَالْمُؤَدِّنُ ،
وَيَحْتَاجُهُ الْبَعِيدُ عَنِ اللَّهِ الْمُنْحَرِفُ الضَّائِعُ ، كُلُّ أَوْلِيكَ يَحْتَاجُونَ إِلَى
إِعَادَةِ تَاهِيلٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْعَظِيمَةِ وَهِيَ اسْتِشْعَارُ رِقَابَةِ الْمَوْلَى ﷻ .
لَأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْخَالِقَ مُطَّلِعٌ عَلَى فِعْلِهِ يَنْضَبُ فِي السِّرِّ
وَالْعَلَانِيَةِ ، يَقُولُ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتُرِيُّ : كُنْتُ وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ
أَنَا عِنْدَ خَالِي مُحَمَّدِ بْنِ سُوَارٍ ، فَكُنْتُ أَرْمُقُهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي ، قَالَ :
فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ التَّفَّتَ إِلَيَّ وَقَالَ لِي : يَا سَهْلُ ! أَلَا تَذْكُرُ اللَّهَ ، عُمُرُهُ
ثَلَاثَ سِنِينَ مَا بَلَغَ ، قَالَ : أَلَا تَذْكُرُ اللَّهَ ، قَالَ : مَاذَا أَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْ بِقَلْبِكَ
اللَّهُ مَعِيَ اللَّهُ نَاطِرِي اللَّهُ شَاهِدِي ، تَرْبِيَّةٌ مِنَ الصَّغَرِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ ، يَنْظُرُ
إِلَيْهِ يَشْهَدُ عَلَيْهِ .

فَتَرَبَّى النُّشْءَ وَهُوَ لَا يَخَافُ مِنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ أَيْ الْمَخْلُوقِ الَّذِي
مِثْلُهُ ، لَا يَخَافُ مِنْ عَيْنِ وَالِدِهِ ، لَا يَخَافُ مِنْ عَيْنِ مُدَرِّسِهِ ، لَا يَخَافُ مِنْ
عَيْنِ وَالِدَتِهِ ، لَا يَخَافُ مِنْ صَالِحِ قَوْمِهِ ، لَكِنْ يَسْتَشْعِرُ رِقَابَةَ اللَّهِ ﷻ ،

فيخاف أن يعصيه .

لِذَا يَقُولُ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ وَهُوَ يَكْشِفُ وَيُجَلِّي لَنَا حَقِيقَةَ الْمُرَاقَبَةِ : " الْمُرَاقَبَةُ عِلْمُ الْقَلْبِ بِقُرْبِ الرَّبِّ " ، وابنُ الْقَيْمِ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ فِي شَأْنِ الْمُرَاقَبَةِ : " دَوَامُ عِلْمِ الْعَبْدِ وَتَيَقُّنِهِ بِاطِّلَاعِ الْحَقِّ ﷻ عَلَى ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ " ، وَإِنِّي أَجْعَلُ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْمَنْهَجَ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَنَا لِتَقْوَى جَانِبِ اسْتِشْعَارِ الْمُرَاقَبَةِ ، ثُمَّ أُرْدِفُهُ بِخُطْبَةٍ قَادِمَةٍ عَنْ آثَارِ الْمُرَاقَبَةِ ، فَمَا هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَنَا لِتَقْوَى جَانِبِ الْمُرَاقَبَةِ فِي نَفُوسِنَا ؟

أولاً : تَقْوَى اللهِ فِي الْخَلَوَاتِ ، اللهُ ﷻ يُرَبِّنَا عَلَى تَقْوَاهُ فِي الْخَلَوَاتِ حِينَمَا نَغِيبُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ .

جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « اتَّقِ اللهُ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتَّبِعِ السِّيئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ » (١) .

« اتَّقِ اللهُ حَيْثُمَا كُنْتَ » ، كُنْتَ هُنَا فِي الْبَحْرَيْنِ أَوْ كُنْتَ خَارِجَهَا ، كُنْتَ فِي مُجْتَمَعِ الصَّالِحِينَ الْمُتَدَيِّنِينَ أَوْ كُنْتَ مَعَ غَيْرِهِمْ ، كُنْتَ بَيْنَ يَدَيَّ وَالِدِكَ أَوْ كُنْتَ بَعِيدًا عَنْهُ مَا تَحْتَاجُ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَيَّ أَحَدٍ ، تَحْتَاجُ إِلَيَّ تَقْوَى اللهِ فِي الْخَلَوَاتِ ، يَعْنِي لَا تُصَلِّيْ أَمَامَ وَالِدِكَ وَلَمَّا تَكُونُ بَعِيدًا عَنْهُ لَا تُصَلِّيْ ، مَا

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٨٤/٣٥) برقم: [٢١٣٥٤] ، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي مُعَاشَرَةِ النَّاسِ] (٣٥٥/٤) برقم: [١٩٨٧] ، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٢٥/٤) برقم: [٣٧٧٩] ، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٨١/١) برقم: [٩٤] .

تأتي بالكلام الطيب عند الصالحين ثم يتغير هذا اللسان في مكان آخر، لا تكون في بلدك صالحاً فإذا خرجت كأنك تخرج من ملك الله ﷻ .

لذا يقول ﷺ في حديث أبي ذر عند الإمام أحمد في مسنده: «أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلايته»^(١)، إذا هذا الأمر الأول في بيان المنهج الرباني في بناء سور المراقبة واستشعار المراقبة.

ثانياً: التحذير من انتهاك الحرمات في الخلوات، وفيها حديث عظيم تنخلع منه القلوب، جاء في حديث ثوبان عند ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا، فيجعلها الله عز وجل هباءً منثوراً»، الحديث هذا يتكلم عن الصالحين والمتدينين والمصلين، يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وليست أي جبال، جبال تهامة بيضاء مليئة بالحسنات فيجعلها الله هباءً منثوراً، فتضيع حسنات الصلاة والصيام والحج والزكاة، فأين ذهبت؟ لا بد أن هناك شيئاً أبادها، فإذا بثوبان رضي الله عنه يقول: يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا، نريد أوصافهم وأن تكشف الغطاء عنهم؛ لأنهم يحتمون خلف هذه العبادات ما نعرفهم عندهم صلاة وتدين صفهم لنا جلهم لنا؛ لكي لا نكون منهم ونحن لا نعلم، صفتهم:-

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٥٢/٣٥) برقم: [٢١٥٧٣]، وضعفه شعيب الأرنؤوط في "تحقيقه على مسند أحمد" لوجود ابن لهيعة وهو سييء الحفظ.

قَالَ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا» (١)، هَذِهِ هِيَ الْمُصِيبَةُ، إِنْ سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةَ لِلسَّرِقَةِ سَرَقَ، وَأَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى مَالِ الْغَيْرِ أَخَذَ، هُوَ مُتَدَيِّنٌ فِي الظَّاهِرِ يُصَلِّي وَمِنْ أَهْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، إِنْ سَنَحَتْ الْفُرْصَةَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْحَرَامِ؛ نَظَرَ، أَوْ يَقُولَ الْحَرَامَ قَالَ، إِذَا خَلَوْا يَعْنِي إِنْ خَلَا مِنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ الَّذِي مِثْلِهِ، إِذَا أَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهَدَ الْمَنَاطِرَ الْإِبَاحِيَّةَ، يَلْتَحِفُ بِاللَّحَافِ وَالْجَهَّازُ بَيْنَ يَدَيْهِ، زَوْجَتُهُ بِجَانِبِهِ لَا تَعْلَمُ مَاذَا يَرَى وَيَسْمَعُ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ.

ثَالِثًا: اللَّهُ ﷻ يَبِينُ لَنَا أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى مَثَاقِيلِ الدَّرِّ مِمَّا نَعْمَلُ، وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ قَالَ ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، يُسَجِّلُهُ ﷻ، وَيَقُولُ ﷻ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ جَعَلُوا نَظَرَ الْمَوْلَى أَهْوَنَ النَّظَرِ قَالَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨].

يَدْخُلُ فِي أَحَدِ الْمَتَاجِرِ لِيَسْرِقَ فَأَوَّلَ مَا يَلْتَفِتُ إِلَى كَامِيرَاتِ

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [ذَكَرَ الذُّنُوبَ] [١٤١٨/٢] برقم: [٤٢٤٥]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط"

[٤٦/٥] برقم: [٤٦٣٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" [٨٩٧/٢] برقم: [٥٠٢٦].

المُرَاقِبَةُ فَإِنْ كَانَتْ تَعْمَلُ؛ خَرَجَ وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْمَلُ سَرَقَ، فِي بَيْتِهِ، رُبَّمَا يَسْرِقُ مَالَ وَالِدِهِ أَوْ مَالَ وَالِدَتِهِ أَوْ إِخْوَانِهِ، لَكِنْ مَاذَا يَفْعَلُ؟ قَبْلَ أَنْ يَسْرِقَ يَتَلَفَّتْ يَمِينًا وَشِمَالًا، فيقال له: تذكر قول الحق ﷻ، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، وَيَقُولُ ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وَآخِرُ هَذِهِ النِّقَاطِ فِي هَذَا الْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَسْتَنْكِرُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَخْفُونَ بِنَظَرِ اللَّهِ لَهُمْ فَيَقُولُ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] وَيَقُولُ ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وَيَقُولُ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، إِذَا نَحْتَجُّ إِلَىٰ إِعَادَةِ تَأْهِيلٍ لِهَذَا الْمُصْطَلَحِ فِي نَفُوسِنَا وَعَلَىٰ أَرْضِ وَاقِعِنَا اسْتِشْعَارُ رَقَابَةِ الْمَوْلَىٰ فَإِنَّ مَنْ اسْتَشَعَرَ رَقَابَةَ اللَّهِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ، اسْتِشْعَارُ رَقَابَةِ اللَّهِ يُثْمِرُ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ.

جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ يَزِيدِ الْأَزْدِيَّ صَحَابِيَّ جَلِيلٌ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْصِنِي أُرِيدُ الْوَصِيَّةَ، فَوَصَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَصِيَّةً وَهِيَ وَصِيَّةٌ لَنَا كُلُّنَا قَالَ: « أَوْصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا تَسْتَحِيَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ »^(١)، هُنَاكَ بَعْضُ النَّاسِ عِنْدَهُمْ أَدَبٌ رَفِيعٌ إِذَا رَأَى الرَّجُلَ الصَّالِحَ أَطْفَأَ سِجَارَتَهُ أَدَبًا مَعَ هَذَا الرَّجُلِ، اللَّهُ ﷻ يُرِيدُ مِنْ هَذَا الْمُتَادِّبِ أَنْ يَرْتَفِعَ بِهَذَا الْخُلُقِ قَالَ: اسْتَحِ مِنَ اللَّهِ ﷻ كَمَا تَسْتَحِيَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ، فَعَلَّكَ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ غَايَةَ فِي الْأَدَبِ وَهَذَا مَطْلُوبٌ، لَكِنْ ارْتَفِعْ قَلِيلًا. انظُرْ إِلَى الرَّجُلِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ أَهْلُ الصَّلَاحِ أَصْلَحَ فِي كَلَامِهِ وَابْتَعَدَ عَنِ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْكَذِبِ لِصَلَاحِ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ مَعَهُمْ، الْإِسْلَامُ يَقُولُ لَكَ: هَذَا مَطْلُوبٌ، لَكِنْ ارْتَفِعْ زِيَادَةً فَاسْتَحِ مِنَ اللَّهِ ﷻ كَمَا تَسْتَحِيَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ.

جَاءَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى،

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٦٩/٦) برقم: [٥٥٣٩]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٩٧/١) برقم: [٢٥٤١].

وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكَرِ الْمَوْتَ وَالْبَلِيَّ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ
الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" (٦٣٧/٤) برقم: [٢٤٥٨]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الصغير" (٢٩٨/١) برقم: [٤٩٤]، وضعفه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٥٠٤/١) برقم: [١٦٠٨].

٢٦

ثمرات استنصار رقابة الله

عباد الله ...

سبق وإن تحدثنا عن عِبَادَةِ عَظِيمَةٍ وَهِيَ اسْتِشْعَارُ رَقَابَةِ الْمَوْلَى
 ﷺ، بَيَّنَّا فِيهَا مَعْنَى الْمُرَاقَبَةِ، وَالْمَنْهَجَ الرَّبَّانِي فِي كَسْبِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ،
 وَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ يَتَنَاوَلُ ثَلَاثَةَ مَسَائِلَ، حَقَائِقُ لَا بُدَّ مِنْهَا وَعَوَاقِبُ عَدَمِ
 اسْتِشْعَارِ الرَّقَابَةِ وَالطَّرِيقُ الْمَوْصَلُ إِلَيْهَا.

أَمَّا الْحَقَائِقُ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا: فَاعْلَمْ أَنَّ اسْتِشْعَارَ هَذِهِ الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلَ
 مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِهَا هُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْحَسَنَاتِ وَكَسْبِ الْأُجُورِ.

فَالْحَقِيقَةُ الْأُولَى: أَنَّ مَا أَسْرَّ أَحَدٌ بِسَرِيرَةٍ إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ، هَذِهِ خَطِيرَةٌ،
 مَا أَسْرَّ أَحَدٌ بِسَرِيرَةٍ يَعْنِي مَا يَرَاهَا أَحَدٌ، فَعَلَهَا فِي الْخَفَاءِ عَنْ عِيُونِ النَّاسِ،
 الْحَقِيقَةُ ثَقُولُ: أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُهَا، قَالَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً
 إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ عَلَى صَفْحَاتٍ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ "، لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ،
 تَرَاهَا فِي وَجْهِهِ وَتَسْمَعَهَا فِي لَحْنِ قَوْلِهِ، حَتَّى وَإِنْ ادَّعَى مَحَبَّتَكَ، فَسَتَجِدُ
 فِي وَجْهِهِ وَتَصْرُفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى بُغْضِكَ ، ﴿ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
 الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]، وَقِيلَ: " مَا أَسْرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا إِنْ
 كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرٌّ ".

أما الحقيقة الثانية فإنَّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فِي الْخَلْوَةِ؛ طَوَّعَ اللَّهُ لَهُ جَوَارِحَهُ
 فِي الْعَلَانِيَةِ، يَعْنِي بَعْضُ النَّاسِ يَفْعَلُ الطَّاعَاتِ فِي الْخَلْوَةِ وَيَقُولُ فِي

نَفْسِهِ: لَيْتَ النَّاسَ يَعْلَمُونَ بِطَاعَتِي وَإِحْسَانِي ، فيقال له: هَذَا نَوْعٌ مِنَ الرِّيَاءِ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنَّ النَّاسَ يَعْرِفُونَ عَمَلَهُ، نَقُولُ: إِذَا أَطَعْتَ اللَّهَ فِي الْخَلْوَةِ سَيَطْوَعُ لَكَ جَوَارِحَكَ فِي الْعَلَانِيَةِ.

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ مَسْرُوقٍ: " مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي خَطَرَاتِ قَلْبِهِ؛ عَصَمَهُ اللَّهُ فِي حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ "، وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ أَفْضَالِ الْمَوْلَى ﷺ وَتَمَامِ عَدْلِهِ.

الْحَقِيقَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ مَنْ عَظَّمَ اللَّهَ فِي خَلْوَتِهِ؛ عَظَّمَهُ اللَّهُ فِي أَعْيُنِ خَلْقِهِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ الْمَعْصِيَةَ؛ اسْتَشْعَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، يَسْتَشْعِرُ أَنَّ اللَّهَ فِي خَلْوَتِهِ يَعْنِي يُعَظِّمُ اللَّهَ فِي خَلْوَتِهِ سَيُعَظِّمُهُ اللَّهُ فِي أَعْيُنِ خَلْقِهِ يَصِيرُ مُعَظَّمًا يَصِيرُ لَهُ وَزْنٌ وَقَدْرٌ عِنْدَ النَّاسِ، أَمَّا الْأَخْطَارُ الْمُحْدِقَةُ وَالْعَوَاقِبُ الْمُتَرْتِبَةُ عَلَيَّ عَدَمِ اسْتِشْعَارِ رِقَابَةِ الْمَوْلَى ﷺ فَهِيَ: -

أَوَّلًا: الْخَسَارَةُ وَضِيَاعُ الْحَسَنَاتِ، وَقَدْ ذَكَرْتُ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ وَذَكَرْتُ حَدِيثَ ثَوْبَانَ: «لَا أُلْفِينَ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً مَنْثُورًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا لِكَيْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا» (١).

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٤٦/٥) برقم: [٤٦٣٢]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع الصغير وزيادته" برقم: [٨٩٧/٢].

وَيَقُولُ أَبُو سُلَيْمَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي وَصْفِ الْخَاسِرِ: " إِنَّ الْخَاسِرَ مَنْ أَبْدَى لِلنَّاسِ صَالِحَ عَمَلِهِ، وَبَارَزَ بِالْقِيحِ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ "، أَمَامَ النَّاسِ يُظْهِرُ أَحْسَنَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَالطَّاعَاتِ، أَمَامَ النَّاسِ مُتَدِينٌ يُشَارُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مُهْتَدٍ صَالِحٌ، هَذَا خَاسِرٌ؟! ، نعم ، إِنَّ الْخَاسِرَ مَنْ أَبْدَى لِلنَّاسِ صَالِحَ عَمَلِهِ، وَبَارَزَ بِالْقِيحِ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، هَذِهِ خَسَارَةٌ كُبْرَى وَعَظِيمَةٌ.

وَفِي أَثَرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: « عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: خَرَجَ ابْنُ عُمَرَ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابٌ لَهُ، وَوَضَعُوا سُفْرَةً لَهُ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ، قَالَ: فَسَلِّمْ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: " هَلُمَّ يَا رَاعِي، هَلُمَّ "، فَأَصَبَ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّي صَائِمٌ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: " أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ شَدِيدِ سَمُومِهِ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرَعَى هَذَا الْغَنَمَ؟ " فَقَالَ لَهُ: أَيُّ وَاللَّهِ أَبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ يَخْتَبِرُ وَرَعَهُ: " فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ؟ " فَقَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: " فَمَا عَسَى سَيِّدِكَ فَاعِلًا إِذَا فَقَدَهَا، فَقُلْتَ: أَكَلَهَا الذُّبُّ " فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أَصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ اللَّهُ، قَالَ: فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي وَهُوَ

يَقُولُ: قَالَ الرَّاعِي: فَأَيْنَ اللهُ؟ قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلَاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي فَأَعْتَقَ الرَّاعِي، وَوَهَبَ لَهُ الْغَنَمَ «(١)»: فَأَيْنَ اللهُ، عَرَفَهَا الْمَمْلُوكُ الرَّاعِي الَّذِي لَمْ يُحْصَلْ تَعْلِيمًا كَمَا حَصَلْنَا، وَلَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى خُطْبٍ بِحَجْمِ وَكَمِّ الْخُطْبِ الَّتِي سَمِعْنَا، لَمْ يَحْمِلْ شَهَادَاتٍ عَلَيَا، وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَحْصِيلٌ أَكَادِيمِيٌّ لَكِنَّهُ عَرَفَ اللهُ وَاسْتَشَعَرَ رِقَابَةَ اللهِ فَقَالَ لِابْنِ عُمَرَ: فَأَيْنَ اللهُ؟

عباد الله ... كَمْ نَحْتَاجُ الْيَوْمَ أَنَا وَأَنْتُمْ أَنْ نَقُولَ لِأَنْفُسِنَا دَائِمًا أَيْنَ اللهُ؟ إِذَا تَهَيَّأَتْ لَنَا فُرْصَةٌ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ، إِذَا تَقَاعَسَتْ نُفُوسُنَا عَنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ لَا بُدَّ أَنْ نَرُدَّعَهَا بِصَوْتِ عَالٍ: أَيْنَ اللهُ؟ يَقُولُ حُمَيْدُ الطَّوِيلِ -رَحِمَهُ اللهُ-: " قُلْتُ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ: عِظْنِي، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يَقُولُ: أُرِيدُ مِنْكَ عِظَةً أَتَّعِظُ بِهَا قَالَ: لَيْنَ كُنْتَ إِذَا عَصَيْتَ اللهُ تَظُنُّ أَنَّهُ يَرَاكَ؛ فَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى أَمْرِ عَظِيمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ "، أَيْنَ تَذَهَبُ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللهُ يَرَاكَ وَأَنْتَ تَفْعَلُ الْمَعْصِيَةَ فَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى أَمْرِ عَظِيمٍ، تَسْتَحْيِي مِنْ وَلَدِكَ الصَّغِيرِ وَلَا تَفْعَلُ الْحَرَامَ وَلَا تَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ، يَسْتَحْيِي أَحَدُنَا مِنَ الْخَادِمِ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ فَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى أَمْرِ عَظِيمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ لَا

(١) أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" باب: [باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها] (٢٢٣/٧) برقم: [٤٩٠٨].

يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ، إِذَا أَيْنَ نَذَهَبُ؟! .

يَقُولُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- : " رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى الْعِلْمِ -يَعْنِي الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ- أَهْمَلُوا نَظَرَ الْحَقِّ إِلَيْهِمْ فِي الْخَلَوَاتِ فَمَحَا مَحَاسِنَ ذِكْرِهِمْ فِي الْجَلَوَاتِ، فَكَانُوا مَوْجُودِينَ كَالْمَعْدُومِينَ لَا حَلَاوَةَ لِرُؤْيَيْهِمْ وَلَا قَلْبٌ يَحِنُّ إِلَى لِقَائِهِمْ "، عَرَفْتَ أَيْنَ الْمُسْكَلَةُ؟ لَيْسَتْ الْمُسْكَلَةُ فِي أَنَّهُمْ يَتَسَبَّبُونَ إِلَى الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ لَا، الْمُسْكَلَةُ أَنَّهُمْ أَهْمَلُوا نَظَرَ الْحَقِّ إِلَيْهِمْ فِي الْخَلَوَاتِ، إِذَا أَغْلَقُوا الْأَبْوَابَ ؛ انْتَهَكُوا حُرْمَاتِ اللَّهِ، أَمَامَ النَّاسِ هُوَ شَخْصٌ مُخْتَلَفٌ هُوَ فِي حَدِيثِهِ فِي فِعْلِهِ فِي ذِكْرِهِ فِي تَسْبِيحِهِ فِي تَهْلِيلِهِ، لَكِنْ إِذَا أَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَعَ فِي أَشْنَعِ الْمَصَائِبِ، بَلْ رُبَّمَا وَقَعَ فِي الزَّانَا وَوَقَعَ فِي الرَّبَا، قَالَ: فَمَحَا مَحَاسِنَ ذِكْرِهِمْ فِي الْجَلَوَاتِ أَمَامَ النَّاسِ فَكَانُوا مَوْجُودِينَ كَالْمَعْدُومِينَ مَا لَهُمْ قِيَمَةٌ فِي الْمُجْتَمَعِ، حَتَّى الصَّغِيرُ يُشِيرُ إِلَيْهِ أَنْ هَذَا كَذَّابٌ .

كَمَا مَرَّ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ أَبِي مُحَمَّدٍ رَجُلٌ صَالِحٌ عِنْدَهُ صَلَاحٌ وَعِنْدَهُ دِينٌ وَكَانَ يَعْمَلُ بِالتَّجَارَةِ، وَكَانَتْ إِذَا تَهَيَّأَتْ لَهُ فُرْصَةٌ أَكَلَ الرَّبَا أَكَلَ الرَّبَا لَكِنْ لَا يَقُولُ لِلنَّاسِ، قَالَ: فَكَشَفَ اللَّهُ فِعْلَهُ فَكَانَ مَرَّةً مِنَ الْمَرَّاتِ يَمُرُّ عَلَى صَبِيَّةٍ صِغَارٍ يَلْعَبُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: أَتَاكُمْ حَبِيبٌ آكَلَ الرَّبَا، قَالَ: فَتَكَسَّ رَأْسُهُ وَبَكَى وَقَالَ: سُبْحَانَكَ يَا رَبِّي أَفْشَيْتَ سِرِّي إِلَى الصَّبِيَّانِ، قَالَ:

ثمرات استشعار رقابة الله

﴿٢٦٨﴾

فَرَجَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ وَبَكَيْتُ وَاسْتَغْفَرْتُ وَتَصَدَّقْتُ بِمَالِي كُلِّهِ وَرَجَعْتُ إِلَى اللَّهِ، فَمَرَرْتُ بَعْدَ زَمَنِ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّبِيَّانِ فَإِذَا بِهِمَا يَقُولُونَ: أَتَاكُمْ حَبِيبُ الْعَابِدِ، مَنْ أَعْلَمَهُمْ بِصِلَا حِهِ وَتَوْبَتِهِ فِي خَلْوَتِهِ، إِلَّا اللَّهُ.

نَعَمْ هَذِهِ حَقِيقَةٌ، يَقُولُ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "إِنَّ الرَّجُلَ لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّةٌ"، وَقِيلَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لِيُذْنِبَ الذَّنْبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ فَيَجِيءُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَيَرُونَ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ"، إِذَا هَذِهِ أَخْطَارُ مُحَدِّقَةٍ وَعَوَاقِبُ وَخِيَمَةٌ لِمَنْ لَمْ يَسْتَشْعِرْ رِقَابَةَ الْمَوْلَى ﷺ.

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبٌ وَلَا تَحَسَبَنَّ اللَّهُ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

أَمَّا الطَّرِيقُ إِلَى هَذِهِ الْعِبَادَةِ فَأَقُولُ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَصِلَ إِلَى هَذِهِ الْعِبَادَةِ فَعَظَمِ الْمَوْلَى ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكَ عَالِمٌ بِمَا تَفْعَلُ وَيَسْمَعُ مَا تَقُولُ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

وَأَعْلَمْ أَنَّ مَا تَفْعَلُ وَتَقُولُ مَكْتُوبٌ مُسَجَّلٌ عَلَيْكَ وَعَلَيَّ، فَقَدْ قَالَ

الحق ﷺ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

رابعاً: بعد تعظيم الله واستشعار رقابة الله والعلم أن كل شيء مَدُونٌ ومكتوبٌ، فاسأل الله أن يرزقك خشيةً في الغيب والعلن، قل: يَا رَبُّ، وَنَحْنُ لَسْنَا بِأَفْضَلِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ كَانَ يَدْعُو دَائِمًا يَقُولُ: «... أَسْأَلُكَ خَشِيَّتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» (١).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٦٤/٣٠) برقم: [١٨٣٢٥]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٨١/٢) برقم: [١٢٢٩]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٧٦٩/٢) برقم: [٢٤٩٧].

٢٧

الموت حق

عباد الله ...

مَا يَمُرُّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا وَنَسَمَعُ بِوَفَاةِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ أَوْ
بَعِيدٌ، عَدُوٌّ أَوْ حَبِيبٌ، تَتَخَطَّفُ الثَّوَانِي وَلَا أَقُولُ: الْيَوْمَ هَذِهِ الْأَنْفُسُ،
وَكُلُّ ذَلِكَ رَسَائِلُ وَعَبْرٌ وَامْتِحَانٌ وَابْتِلَاءٌ، وَالْمَوْتُ لَا يَعْرِفُ كَبِيرًا
وَلَا صَغِيرًا، وَلَا مَالِكًا وَلَا مَمْلُوكًا، وَلَا أَمِيرًا وَلَا فَاقِيرًا، الْمَوْتُ حَقٌّ
وَحَتْمٌ لَا زِمُّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَقْرَأَ فِي كِتَابِ رَبِّكَ
ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وَيَقُولُ الْمَوْلَى ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، تَأْتِي
عَلَى سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ فَإِذَا بِالْمَوْلَى يَقُولُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ
إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، إِنَّ الْمَوْتَ هُوَ الْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى وَهُوَ
الْبَلَاءُ الْكَبِيرُ وَالْامْتِحَانُ الْعَظِيمُ، سَمَّاهُ اللهُ ﷻ مُصِيبَةً فَقَالَ فِي سُورَةِ
الْمَائِدَةِ: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

فَلَرُبَّ أَمْرٍ مُحْزِنٍ لَكَ فِي عَوَاقِبِهِ الرِّضَا

وَلَرُبَّمَا اتَّسَعَ الْمَضِيقُ وَرَبَّمَا ضَاقَ الْفَضَا

وحدثنا اليوم لَيْسَ عَنِ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا عَنْ رَدَاتِ الْفِعْلِ، مَا مِنَّا إِلَّا
فَاقِدٌ وَمَفْقُودٌ، تَمُرُّ لِحَظَاتٌ فَنَسْمَعُ هُنَا بِوَفَاةٍ وَهُنَا بِدَفْنٍ وَهُنَا بِمَجْلِسِ
عَزَاءٍ وَهُنَا بِبُكَاءٍ وَهُنَا بِحَسْرَةٍ، وَلَا يَدْرِي الْمَرْءُ مِنَّا مَتَى يُفْقَدُ وَمَتَى يُفْقَدُ،
فَتَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ سَلْوَى لِمَنْ فَقَدَ حَبِيبًا وَتَهَيَّئْ لِنُفُوسِنَا جَمِيعًا، فَكُلُّنَا
سَيَمُرُّ بِتِلْكَ اللَّحَظَاتِ.

أُمُورٌ لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَبِهَ إِلَيْهَا وَنُهَيِّئُ لَهَا هَذِهِ النُّفُوسَ الْمُضْطَرِبَةَ
الْمُتَمَرِّدَةَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ فَلْيُبَشِّرْ بِالْجَزَاءِ الْعَظِيمِ وَبِالْخَيْرِ
الْعَمِيمِ، مَاذَا أَحَدْتِكُمْ وَمَاذَا اخْتَارُ لَكُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا،
قَالَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

مَاتَ ابْنُ لِمَطْرِفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فَقَالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً قَالَ:
" وَاللَّهِ! لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا كَانَتْ لِي فَأَخَذَهَا اللَّهُ مِنِّي ثُمَّ وَعَدَنِي
عَلَيْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ لَرَأَيْتُهَا بِتِلْكَ الشَّرْبَةِ أَهْلًا فَكَيْفَ بِالصَّلَاةِ وَالرَّحْمَةِ
وَالهُدَى " ، هَكَذَا يُهَيِّئُونَ نُفُوسَهُمْ، يَقُولُ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا تَرَوِيهِ أُمَّنَا أُمَّ
سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ

مُصِيبَةً، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلِفْ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»^(١)، انْظُرْ إِلَى فَضَائِلِ الصَّبْرِ وَالِاحْتِسَابِ، إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ كَتَبَ لَهُ الْأَجْرَ، وَخَلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَمَاتَ أَبُو سَلَمَةَ -رَوْجُهَا- فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْنِي خَيْرًا مِنْهَا قَالَتْ: فَأَخْلَفَنِي اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ زَوْجًا لِأُمِّ سَلَمَةَ.

بَلْ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْحَدِيثُ فِي الْبُخَارِيِّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَدَى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٢)، النَّصَبُ التَّعَبُ، هَذَا مِنَ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ: الْهَمُّ، وَالْغَمُّ، وَالْحُزْنُ، كُلُّهَا أُمُورٌ مَعْنَوِيَّةٌ دَاخِلِيَّةٌ، وَالنَّصَبُ وَالْوَصَبُ وَالشُّوْكَةُ أُمُورٌ خَارِجِيَّةٌ يُوجِرُ عَلَيْهَا هَذَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ.

عباد الله ... جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: أَنَّ أَبَا سِنَانٍ ذَهَبَ يَدْفِنُ ابْنَهُ سِنَانًا فَوَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ، تَصَوَّرَ الْوَالِدُ وَهُوَ يَدْفِنُ وَلَدَهُ فَوَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [مَا يُقَالُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ] [٦٣٢/٢] برقم: [٩١٨].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ الْمَرَضِ] [١١٤/٧] برقم: [٥٦٤١]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا] [١٩٩٢/٤] برقم: [٢٥٧٢]، واللفظ للبخاري.

وَهُوَ يَعْتَصِرُ أَلَمًا عَلَى فِرَاقِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الدَّفْنِ وَأَرَادَ الخُرُوجَ أَمْسَكَ بِهِ أَبُو طَلْحَةَ الخَوْلَانِيُّ قَالَ: يَا أَبَا سِنَانٍ! أَلَا أُبَشِّرُكَ قَالَ: بَلَى، قَالَ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الأشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عِبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمْرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عِبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَع، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ »^(١)، اسْتَرْجَعَ يَعْنِي قَالَ: إِنَّا اللهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، مَا أَعْظَمَ هَذَا البَيْتَ! إِنَّهُ بَيْتُ الصَّابِرِ بَيْتُ المُحْتَسِبِ، بَيْتُ الَّذِي تَذَكَّرَ هَذَا الأَجْرَ وَرَجَاهُ بِاِحْتِسَابِهِ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ: إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُحِبُّهُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهُ أَحَبُّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ ابْنُ فُلَانٍ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهُ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِيهِ: «أَمَا تُحِبُّ أَنْ لَا تَأْتِي بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ يَنْتَظِرُكَ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٥٠٠/٣٢) برقم: [١٩٧٢٥]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [فَضْلُ المُصِيبَةِ إِذَا احْتَسَبَ] (٣٣٢/٣) برقم: [١٠٢١]، وضعفه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٥٤٤/١) برقم: [١٧٣٦].

اللَّهُ، أَلَهُ خَاصَّةٌ أَوْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ»^(١)، هُنَاكَ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَنْتَظِرُونَكُمْ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ افْتَقَدْنَا هُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ الْمَجْلِسِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَهُ خَاصَّةٌ أَمْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ»، هَكَذَا هِيَ الْفَضَائِلُ مُتَعَدِّدَةٌ وَكَثِيرَةٌ.

عباد الله ... أَخْتِمُ بِمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الْجَنَّةُ »^(٢).

يَا صَاحِبَ الْهَمِّ إِنَّ الْهَمَّ مُنْفَرَجٌ أَبَشِّرُ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْفَارِجَ اللَّهُ
الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ لَا تَيَأَسَنَّ فَإِنَّ الْكَافِيَ اللَّهُ
إِذَا بَلِيَتْ فَثِقْ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللَّهُ
وَاللَّهُ مَا لَكَ غَيْرُ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ فَحَسْبُكَ اللَّهُ فِي كُلِّ لَكَ اللَّهُ

إِذَا لَمْ يَرْضَ الْعَبْدُ وَلَمْ يَقْبَلْ بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْجَزَعُ، وَالْجَزَعُ لَا يُغَيِّرُ مِنَ الْحَالِ شَيْئًا، إِنَّ الَّذِي يَخْتَارُ طَرِيقَ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا تَنْزَلُ عَلَيْهِ الْبَلَايَا وَالْهُمُومُ وَيَكْثُرُ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٧٣/٣٣) برقم: [٢٠٣٦٥]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٣٩٩/٢) برقم:

[٢٠٠٩]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٥٥٠/١) برقم: [١٧٥٦].

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الْعَمَلِ الَّذِي يُبْتَعَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ] (٩٠/٨) برقم: [٦٤٢٤].

فِي حَقِّهِ السَّخَطُ، هَكَذَا وَعَدَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِلًا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿[الحديد: ٢٢-٢٣].

رُويَ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَبْقَى لَهُ وَلَدٌ فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَدٌ، فَقَالَ كَلِمَةَ الرَّجُلِ الصَّادِقِ، الْعَبْدِ التَّقِيِّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَأْخُذُهُمْ فِي دَارِ الْفَنَاءِ وَيَدْخِرُهُمْ فِي دَارِ الْبَقَاءِ، هَذِهِ نَظْرَةٌ عَاقِلَةٌ، نَبِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ: «عَظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» (١).

وهذا شَرِيحٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ كَلِمَةً هِيَ مِنْهَجٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَقُولُ: مَا أَصِبتُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَيْهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيُحَمَدُ اللَّهَ عَلَيْهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، قَالَ: أَحَمَدُهُ إِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِمَّا هِيَ، إِذَا مَاتَ وَلَدٌ، أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ اثْنَانِ هَذَا الْفِقْهُ، أَحَمَدُهُ إِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ مِمَّا هِيَ، وَأَحَمَدُهُ إِذْ رَزَقَنِي الصَّبْرَ عَلَيْهَا، وَأَحَمَدُهُ إِذْ وَفَّقَنِي لِلِاسْتِرْجَاعِ لِمَا أَرْجُوهُ فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ، وَأَحَمَدُهُ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي، فَإِنَّ

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ] (١٣٣٨/٢) برقم: [٤٠٣١]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ] (٦٠١/٤) برقم: [٢٣٩٦]، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٩٣/١) برقم: [١٥٦٦].

فِي كُلِّ شَيْءٍ عَوْضًا إِلَّا الدِّينَ فَلَيْسَ بَعْدَهُ عَوْضٌ .

ختاماً لقد أرشدنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلي علاج هو من أعظم ما يتداوى به من الهم والغم الناتج عن المصائب والكرب فقال : « اللّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا "، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٤٦/٦) برقم: [٣٧١٢]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَهُ حُزْنٌ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ ذَهَابَهُ عَنْهُ وَإِنْدَالَهُ إِيَّاهُ فَرَحًا] (٢٥٣/٣) برقم: [٩٧٢]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٣٨٣/١) برقم: [١٩٩].

٢٨

رحلة الموت

عباد الله ...

هَكَذَا تَمْضِي أَيَّامُ الْعَامِ وَتَرْتَحِلُ مَعَهَا نُفُوسٌ وَأَرْوَاحٌ ، وَلَكِنَّ
الرَّحِيلَ مُخْتَلِفٌ، رَحِيلُ نَفْسٍ عَنِ نَفْسٍ مُخْتَلِفٌ، فَهَذِهِ النَّفْسُ تَرْتَحِلُ
وَهِيَ تُبَشِّرُ بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَنَفْسُ الْبَعِيدِ تَرْتَحِلُ وَهِيَ
تُبَشِّرُ بِالنَّارِ وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَيَّ مَا قَدَّمَ صَاحِبُ هَذِهِ
النَّفْسِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا .

إِنَّا نَقَرَأُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ وَصَفًا دَقِيقًا بَيْنَ
الرَّحِيلَيْنِ، بَيْنَ رَحِيلِ الْأَنْفُسِ الطَّاهِرَةِ وَبَيْنَ رَحِيلِ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ، وَكُلُّ
هَذِهِ الْأَنْفُسِ تَمُوتُ، وَلَكِنَّهُ مَوْتُ مُخْتَلِفٌ، يَقُولُ الْمَوْلَى ﷺ عَنْ رِحْلَةِ
الْأَنْفُسِ الطَّاهِرَةِ حِينَ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلَةُ بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ عِنْدَ
الْاِحْتِضَارِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَدْعُونَ * نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

تَصَوَّرَ أَنَّ دَارَ الضِّيَافَةِ لِهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ، نَزَّلًا مِنْ عَزِيزٍ غَفُورٍ هُوَ
الَّذِي يَنْزِلُونَ عِنْدَهُ يَقُولُ الْحَبِيبُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ مِنْ
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمُؤْمِنِ إِذَا أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ لِتَقْبِضَ رُوحَهُ:

« إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكَ إِلَى رَوْحِ اللَّهِ، وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطِيبِ رِيحِ الْمِسْكِ »^(١)، وَالْحَرِيرَةُ قُمَاشٌ حَرِيرٍ أَبْيَضٍ دَالٌّ عَلَى الْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ، اللَّهُ أَكْبَرُ، تَنْزِلُ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَتُبَشِّرُهُ تَقُولُ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ فَتَخْرُجُ كَأَطِيبِ رِيحِ الْمِسْكِ هَذِهِ رِحْلَتُهَا، فَتَخْرُجُ وَتُنْفُتِحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتَسْتَقْبِلُهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ.

لَكِنْ فِي الْمُقَابِلِ، النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ مَاذَا قَالَ عَنْهَا الْمَوْلَى ﷺ؟
 يَقُولُ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿[الأنفال: ٥٠-٥١]، هَذَا كَسْبُكَ، هَذَا عَمَلُكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي النَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ ﷺ: « وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمَسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَخْرُجُ كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ »^(٢)، وَالْمَسْحُ ثَوْبٌ مِنْ شَعْرِ غَلِيظٍ، رِحْلَةٌ مُخْتَلِفَةٌ لِذَا فَفَرَّقَ بَيْنَ الرَّحْلَتَيْنِ.

(١) أخرجه النسائي في "سننه" باب: [مَا يُلْقَى بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكِرَامَةِ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ] [٨/٤] برقم: [١٨٣٣]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٥١١/١) برقم: [١٦٢٩]، واللفظ للنسائي.

(٢) نفس التخريج السابق.

عباد الله ... إنا ومع الأسف الشديد إذا رأينا سوء خاتمة الظالمين قلنا: يستحقون وهم يستحقون فعلاً، لكننا ننسى أنفسنا الظالمة، فكم من والدٍ ظالمٍ لأولاده سيرتحل يوماً من الأيام، كم من ولدٍ ظالمٍ لوالده سيرتحل يوماً من الأيام، كم من جارٍ ظالمٍ لجاره سيرتحل يوماً من الأيام، هذا الشابُّ المستبذُّ المغرورُ الذي يعبثُ بأعراضِ الناسِ يُعذبُ الآباءَ والأمهاتِ سيرتحلُ يوماً من الأيام، هذا الذي يتعاملُ بالسحرِ يُخرَّبُ بيوتَ الناسِ يُدخلُ عليهم الأسى والحسرة سيرتحلُ يوماً من الأيام وسيشهدُ الناسُ بأعينهم كيف يفعلُ الله به في الدنيا قبل الآخرة . هذه الرسالة لنا جميعاً الكلُّ سيرتحلُ وسيلاقى جريرة ما قدم، فعلى العبد أن يتنبه لأن المولى يقول **سُبْحَانَ اللَّهِ** كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إنني حرمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(١)، وبين **سُبْحَانَ اللَّهِ** أن الظالم لا يفلح أبداً قال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، والله إن الخيبة تلازم الظالم في دنياه وأخراه.

أيها المظلوم! لا تأس فإن الله بالمرصاد للظالم، الدليل قال الله:

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تحريم الظلم] [١٩٩٤/٤] برقم: [٢٥٧٧]،

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً* وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُنَجِّبُ نَجِيبَ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٤].

يَتَصَوَّرُ الظَّالِمُ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ سُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَوَاسِطَةٍ وَأَمْوَالٍ أَنَّهُ لَنْ يَزُولَ مِنَ الدُّنْيَا، بَلَىٰ سَيَزُولُ، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ* وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ* فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ* يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٥-٤٨]، إِذَا عَاقَبَةُ الظُّلْمِ وَخِيَمَةُ.

تَسَلَّطَ أَحَدُ الْوُزَرَاءِ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمِنَةِ عَلَىٰ امْرَأَةٍ فَقِيرَةٍ مَسْكِينَةٍ فَأَخَذَ أَرْضَهَا وَتَسَلَّطَ عَلَىٰ بَيْتِهَا الصَّغِيرِ فَقَالَتْ: أَشْكُوكَ قَالَ: عِنْدَ مَنْ؟ قَالَتْ: أَشْكُوكَ عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ لَا تَعْرِفِينَ أَوْقَاتَ الْإِجَابَةِ سَأَدُلُّكَ عَلَىٰ ذَلِكَ !!! ، قَالَتْ: لَا أَعْرِفُهَا، قَالَ: عَلَيْكَ بِكَذَا وَكَذَا بِاللَّيْلِ فِي السَّحَرِ، غُرُورٌ وَتَجَبُّرٌ وَاسْتِبْدَادٌ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَاكِمًا أَذَلَّهُ وَأَهَانَهُ وَقَطَعَ

يَدُهُ وَعَزَلَهُ وَجَلَدَهُ فِي طَرِيقِ النَّاسِ، فَمَرَّتْ عَلَيْهِ بِاسِمَةٍ تَقُولُ: شُكْرًا عَلَيَّ
وَصِيَّتِكَ فَقَدْ اسْتَفَدْتُ مِنْهَا كَثِيرًا.

اشْتَكْتُ عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ أَنْ دَعُوَةَ الْمَظْلُومِ لَا يَقِفُ
دُونَهَا شَيْءٌ حَتَّى تَأْتِيَ عِنْدَ الْعَرْشِ، قَالَ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد
إلى السماء كأنها شرارة»^(١)، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ أَبْيَاتًا:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ وَقَاضِيَ الْأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ لِمَنْ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

وهذا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ أَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ بَشَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ
بِالْجَنَّةِ فَاتَهَمْتَهُ أَرْوَى بِنْتُ أُوَيْسٍ زُورًا كَمَا يَفْعَلُ الْبَعْضُ الْيَوْمَ عِنْدَهُ
وَاسِطَةٌ هُنَا أَوْ هُنَاكَ فَيَفْتَرِي عَلَى الْآخَرِينَ، قَامَتْ تُخَاصِمُهُ عِنْدَ مَرْوَانَ
ابْنِ الْحَكَمِ تَقُولُ: سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ أَخَذَ أَرْضِي فَقَالَ: أَنَا أَخَذْتُ أَرْضَهَا وَقَدْ
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ بِسَبْعِ
أَرْضِينَ»، فَدَعَا عَلَيْهَا أَمَامَ الْمَلَأِ وَهُوَ وَائِقٌ بِاسْتِجَابَةِ الدَّعْوَةِ قَالَ: اللَّهُمَّ
إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا. وَأَنْصَرَفَ، قَالَ الرَّاوي:
فَمَا مَاتَتْ حَتَّى عَمِيَ بَصَرُهَا وَوَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فِي أَرْضِهَا فَمَاتَتْ.

عباد الله ... مَا أَجْمَلَ كَلِمَةً قَالَهَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ! يَقُولُ: " أَنْ تَلْقَى

(١) صححه الألباني في "صحيح الجامع" (٨٤/١) برقم: [١١٣].

اللَّهُ بِسَبْعِينَ ذَنْبًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ مِنْ أَنْ تَلْقَاهُ بِذَنْبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدِ الْعِبَادِ"، تَلَقَى اللَّهُ بِسَبْعِينَ ذَنْبًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَلَعَلَّ اللَّهُ يُسَامِحُكَ وَيَعْفُو عَنْكَ وَيَغْفِرُ لَكَ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَلْقَاهُ بِذَنْبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْعِبَادِ فَالْعِبَادُ قَدْ لَا يُسَامِحُونَكَ، إِذَا فَالرَّحِيلُ مُخْتَلِفٌ وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ النَّازِمِ حِينَمَا قَالَ:

| | |
|---|--|
| إِذَا مَا مَاتَ ذُو عِلْمٍ وَتَقْوَى | فَقَدْ ثَلِمَتْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثُلْمَةٌ |
| وَمَوْتُ الْحَاكِمِ الْعَدْلِ الْمُؤَلَّى | بِحُكْمِ الشَّرْعِ مَنْقَصَةٌ وَنِقْمَةٌ |
| وَمَوْتُ الْعَابِدِ الْقَوَّامِ لَيْلًا | يُنَاجِي رَبَّهُ فِي كُلِّ ظُلْمَةٍ |
| وَمَوْتُ فَتَى كَثِيرِ الْجُودِ مَحَلٌ | فَإِنَّ بَقَاءَهُ خَصْبٌ وَنِعْمَةٌ |
| وَمَوْتُ الْفَارِسِ الضَّرْعَامِ هَدْمٌ | فَكَمْ شَهِدَتْ لَهُ بِالنَّصْرِ عَزْمَةٌ |
| فَحَسْبُكَ خَمْسَةٌ يُبْكِي عَلَيْهِمْ | وَبَاقِي النَّاسِ تَخْفِيفٌ وَرَحْمَةٌ |
| وَبَاقِي النَّاسِ هُمْ هَمَجٌ رِعَاعٌ | وَفِي إِيجَادِهِمْ لِلَّهِ حِكْمَةٌ |

عباد الله... يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَنْ هُوَ لَاءِ الَّذِينَ اغْتَرُّوا وَظَلَمُوا بِسَبَبِ

مَا مَكَنَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّعْمِ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩]، وَمَعَ

دُخُولِ الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَغِبَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لَا يَعْدِلُهُ عَمَلٌ فَقَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ - يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ - قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: " وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ » (١).

فَاجْتَهِدْ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَّا يَمُرَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْعَشْرِ إِلَّا وَقَدَّمْتَ فِيهَا عَمَلًا صَالِحًا، تَصَدَّقْ صُمْ، صَلِّ رَحِمًا، افْعَلِ الصَّالِحَاتِ، وَإِنَّ أَعْظَمَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ هُوَ الْأُضْحِيَّةُ الَّتِي بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَجْرَهَا وَثَوَابَهَا وَفَضْلَهَا فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ عَازِمًا عَلَى الْأُضْحِيَّةِ فَلَا يَأْخُذُ مِنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِذَا رَأَيْتُمْ هِلَالَ ذِي الْحِجَّةِ، وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضْحِيَ، فَلْيُمْسِكْ عَن شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ » (٢).

وَمِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ: صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، إِذْ يَقُولُ

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٣٣/٣) برقم: [١٩٦٨]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [صِيَامِ الْعَشْرِ] (٥٠٠/١) برقم: [١٧٢٧]، صححه الألباني في "إرواء الغليل" (٣٩٧/٣) برقم: [٨٩٠]، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [نَهْيَ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ وَهُوَ مُرِيدُ التَّضْحِيَّةِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ شَعْرِهِ، أَوْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا] (١٥٦٥/٣) برقم: [١٩٧٧].

« صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ » (١).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالْاِثْنَيْنِ وَالْاِثْنَيْسِ] [١١٨/٢] برقم: [١١٦٢].

٢٩

الصلة خير موضوع

عباد الله ...

جَاءَ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ» (١)، فَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ حَوْلَ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعَظِيمَةِ وَهِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي قَالَ عَنْهَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا خَيْرٌ مَوْضُوعٍ يَشْتَغَلُ بِهِ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ، وَخَيْرِ عَمَلٍ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ» (٢).

عباد الله...مرّ نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرِ دُفْنِ حَدِيثًا فَقَالَ: «رَكَعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفَلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ» (٣)، نَعَمْ لَوْ سَأَلْتِ الْآنَ أَصْحَابَ الْقُبُورِ مَاذَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نَقُومُ لِلْحَضَاتِ لِنُودِي رَكَعَتَيْنِ تَحْتَقِرُونَهَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ.

انظُرْ إِلَى حَالِنَا فِي صَلَاتِنَا لِرَبَّنَا، مَا نُنْتَهِي مِنَ الْفَرِيضَةِ حَتَّى نُسْرِعَ إِلَى الْبَابِ، وَلَا نَدْرِي أَنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى هَاتَيْنِ الرَّكَعَتَيْنِ سُنَّةً بَعْدِيَّةً أَوْ سُنَّةً

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٨٤/١) برقم: [٢٤٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٧١٩/٢) برقم: [٣٨٦٩]، واللفظ للطبراني.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٦٠/٣٧) برقم: [٢٢٣٧٨]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْوُضُوءِ] (١٠١/١) برقم: [٢٧٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢٢٥/١) برقم: [٩٥١]، واللفظ لأحمد.

(٣) أخرجه أبو نعيم في "أخبار أصبهان" (٢ / ٢٢٥) وكذا الطبراني في "الأوسط" برقم: [٩٠٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٦٦/١) برقم: [٣٥١٦].

قَبْلِيَّةً يَقُولُ: «رَكَعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفُلُونَ يُزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»^(١)، إِنَّهَا الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ كَمَا قَالَ الْحَقُّ ﷺ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وكذا قال نبينا ﷺ كما جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عمر: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٢)، وَإِنِّي عَلَى يَقِينٍ أَنَّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ الْآنَ يَعْرِفُ هَذِهِ الْخَمْسَ، وَلَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ لِيُوحِدَهَا لَا تَكْفِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ يَعْنِي عَلَى خَمْسَةِ أَرْكَانٍ، وَهُوَ الْقَائِلُ ﷺ لِمَا أَرْسَلَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»^(٣).

الصَّلَاةُ شَأْنُهَا عَظِيمٌ يُعْصَمُ بِهَا الْمَرْءُ: مَالُهُ وَدَمُهُ. وَاسْمَعِ إِلَيَّ هَذَا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»] (١١٧/١) برقم: [٨]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ] (٤٥/١) برقم: [١٦].

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [أَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَتُرِدُّ فِي الْفُقَرَاءِ حَيْثُ كَانُوا] (١٢٨/٢) برقم: [١٤٩٦].

الْحُوَارِ الْخَطِيرِ جِدًّا، هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي أَسَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ أَبُو سَعِيدِ
 الْخُدْرِيُّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَجُلًا أَسَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِكَلِمَةٍ، وَقَبْلَ
 أَنْ أذْكَرَ الْكَلِمَةَ انْظُرْ إِلَيَّ وَصِفِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ لِهَذَا الرَّجُلِ الْجَافِّ
 الْغَلِيظِ قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْتَيْنِ نَاشِفُ الْجَبْهَةِ كَثُّ
 اللَّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الْإِزَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ:
 «وَيْلَكَ، أَوْلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ»، ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ فَقَالَ
 خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ
 يُصَلِّي» فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ أَنْ أَنْقَبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ
 وَلَا أَشَقَّ بُطُونَهُمْ»^(١)، هَكَذَا يُرَبِّينَا ﷺ عَلَى أَهْمِيَّةِ الصَّلَاةِ.

وَبَعْدَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ لَا بُدَّ أَنْ نَطْرَحَ هَذَا السُّؤَالَ: لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ
 مَوْضُوعٍ؟ لِأَسْبَابٍ أُوجِزُهَا فَأَقُولُ:-

أَوَّلًا: لِأَنَّهَا عَمُودُ الدِّينِ، وَإِنْسَانٌ لَا يُصَلِّي لَيْسَ عِنْدَهُ دِينٌ، وَعَجَبٌ
 أَنْ تَرَى إِنْسَانًا لَا يُصَلِّي إِنَّكَ لَتَسْتَعْرِبُ أَنْ تَسْمَعَ بِإِنْسَانٍ لَا يُصَلِّي، مُسْلِمٌ
 لَا يُصَلِّي، وَإِذَا صَلَّى؛ صَلَّى مُجَامَلَةً فِي عِيدٍ عَلَى جِنَازَةِ أَمَامِ النَّاسِ فِي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [بَعَثَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى الْيَمَنِ فَبَدَأَ حَجَّةَ الْوُدَاعِ] (١٦٣/٥) برقم: [٤٣٥١]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [ذَكَرَ الْخَوَارِجُ
 وَصِفَاتِهِمْ] (٧٤٢/٢) برقم: [١٠٦٤]، واللفظ للبخاري.

السنة مرة حسب الظُّروفِ، هَذَا مَا عِنْدَهُ دِينٌ، وَمَا أَعْجَبَ الْفَارُوقَ عُمَرَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** لَمَّا كَانَ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ كَانَ يُرْسَلُ بِالْكِتَابِ إِلَى عَمَّالِهِ أَيُّ: أَمْرَاءِ الْأَمْصَارِ مَاذَا يَقُولُ لَهُمْ فِي كُتُبِهِ؟

يَقُولُ: " إِنْ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ ، بِخِلَافِ مَا نَقُولُهُ نَحْنُ الْيَوْمَ لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِينَا أَهَمُّ شَيْءٍ عِنْدِي الْعَمَلُ وَالصَّلَاةُ فِي أَيِّ وَقْتٍ ، لَا ، هَذِهِ مُعَادَلَةٌ خَاطِئَةٌ وَثِقَافَةٌ فَاسِدَةٌ ، إِنْ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ وَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافِظَ عَلَيْهَا ؛ حَفِظَ دِينَهُ وَمَنْ ضَيَّعَهَا كَانَ لِمَا سِوَاهَا مِنْ عَمَلِهِ أَشَدَّ إِضَاعَةً " ، فَإِنَّ الَّذِي لَا يُحَافِظُ عَلَى الصَّلَاةِ لَا يُحَافِظُ عَلَى أَيِّ وِلَايَةٍ لِأَنَّهُ سَيَضِيعُهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رَبُّ الْأُسْرَةِ أَوْ رَئِيسَ الدَّائِرَةِ أَوْ مَدِيرَ الْمُؤَسَّسَةِ الَّذِي لَا يُصَلِّي مَا يَنْفَعُ وَلَا يُوفِّقُ أَبَدًا لَا فِي فِعْلِهِ وَلَا فِي قَرَارِهِ وَلَا فِي تَصَرُّفَاتِهِ أَبَدًا .

لِأَنَّ نَبِيَّنَا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَقُولُ لِمُعَاذٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** : «أَوَّلًا أَدُلُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرُورَةِ سَنَامِهِ؟ أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ: فَالْإِسْلَامُ، فَمَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ، وَأَمَّا عَمُودُهُ: فَالصَّلَاةُ، وَأَمَّا ذُرُورَةُ سَنَامِهِ: فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ^(١) ، إِذَا لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِأَنَّهَا عَمُودُ الدِّينِ .

ثَانِيًا: أَنَّهَا مِنْ أَمْرِ الْمَوْلَى **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وَاقْرَأْ كَمَا مَرَّ بِهَا الْأَمْرُ فِي كِتَابِ

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٨٧/٣٦) برقم: [٢٢٠٦٨]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٤٧/٢٠) .

الله، كَمْ مَرَّةً يَتَكَرَّرُ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ: ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]
 ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وَاذْكُرْ آيَاتِ مُتَعَدِّدَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ تَقُولُ لِلْمُسْلِمِ: لَا يَصْلُحُ الْإِسْلَامُ بِغَيْرِ صَلَاةٍ، لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟

لِأَنَّهَا الْقَاطِرَةُ الَّتِي تَجْرُّ مَا بَعْدَهَا، فَإِنْ صَلَحَتْ هَذِهِ الْقَاطِرَةُ؛ صَحَّ طَرِيقُهَا وَإِلَّا فَالَى جَهَنَّمَ، نَعَمْ هَكَذَا يَقُولُ ﷺ، جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ قَوْلُهُ ﷺ: « إِنْ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ »^(١)، مَنْ نَجَحَ أَصَابَ الْفَلَاحَ؛ لِأَنَّهُ وَفَّقَ فِي صَلَاتِهِ الَّتِي صَلَحَتْ، وَمَنْ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ فَمَا لَهُ إِلَّا الْخَيْبَةُ وَالْخُسْرَانُ.

وَمَا أَعْجَبَ كَلِمَةَ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يَقُولُ: " ابْنِ آدَمَ! أَيُّ دِينِكَ يُعَزُّ عَلَيْكَ إِذَا هَانَتْ عَلَيْكَ صَلَاتُكَ، إِذَا هَانَتْ عَلَيْكَ صَلَاتُكَ فَهِيَ عَلَى اللَّهِ أَهْوَنُ "، وَهَذَا مِنْ عَجِيبِ الْكَلَامِ، وَمِنْ دُرَرِ الْأَلْفَاظِ أَيُّ دِينِكَ أَعَزُّ

(١) أخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ] (٢٦٩/٢) برقم: [٤١٣]، وأخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٢٠٦/١) برقم: [٣٢٢]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٤٠٥/١) برقم: [٢٠١٦]، واللفظ للترمذي.

عَلَيْكَ إِذَا هَانَتْ عَلَيْكَ صَلَاتُكَ، إِنْسَانٌ لَا يُصَلِّي وَإِذَا صَلَّى؛ صَلَّى فِي
النُّذْرَةِ وَأَحْيَانًا، تَوَقَّعُ أَنْ بَقِيَّةَ الدِّينِ لَا شَيْءَ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَجِدَ إِنْسَانًا لَا
يُصَلِّي وَتَجِدَهُ حَرِيصًا عَلَى بَقِيَّةِ أَرْكَانِ الدِّينِ وَتَجِدُهُ يُمَكِّنُ أَنَّهُ يُصَلِّي
وَيَقْصُرُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ نَعَمْ، لَكِنَّهُ إِذَا قَصَرَ فِي الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهُ يَقْصُرُ فِي
كُلِّ شَيْءٍ.

لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ: لِأَنَّ الصَّلَاةَ مِمَّا شَرَعَهُ اللهُ ﷻ عَلَى
سَائِرِ الْأُمَمِ، فَمَا مِنْ نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ جَاءَ إِلَّا وَأَمْرَهُ وَوَمَنْ مَعَهُ بِالصَّلَاةِ،
اسْمَعِ إِلَى دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ يَقُولُ الْمَوْلَى:
﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]،
وَيَمْتَدِّحُ الْمَوْلَى ﷻ عَبْدَهُ إِسْمَاعِيلَ ﷻ فَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وَمُوسَى ﷻ يُخَاطِبُهُ الْمَوْلَى ﷻ: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

مَرْيَمُ تَدْخُلُ عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُ الْمَوْلَى ﷻ فِيمَا قَالُوا: ﴿يَا مَرْيَمُ
اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وَعِيسَى
ﷻ يَقُولُ اللهُ ﷻ فِيمَا جَاءَ عَلَى لِسَانِهِ: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وَنَبِينًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُ رَبُّهُ **سُبْحَانَ اللَّهِ** : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا
لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، بَلْ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ
كَمَا جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَمَرْنَا أَنْ
نُعَجِّلَ فِطْرَنَا، وَأَنْ نُؤَخِّرَ سَحُورَنَا، وَأَنْ نَضَعَ أَيْمَانَنَا عَلَى شِمَائِلِنَا فِي
الصَّلَاةِ»^(١)، كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ، هَكَذَا أَمَرَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ لِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ خَيْرٌ
مَوْضُوعٍ، نَعَمَ الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ، لِأَنَّهَا عَمُودُ الدِّينِ. وَلِأَنَّهَا مِمَّا أَمَرَ بِهِ
الْمَوْلَى الرَّحِيمُ **سُبْحَانَ اللَّهِ**، وَلِأَنَّهَا إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ الْعَمَلِ، وَلِأَنَّهَا فِعْلُ
الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وَخَامِسًا: لِأَنَّهَا شِعَارُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ الشُّهَدَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ،
إِنَّكَ حِينَمَا تَقْرَأُ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَجِدُ الصَّلَاةَ قَرِينَةً
لِلْمُؤْمِنِ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، فِي
سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، يَقُولُ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ،
اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُحَافِظُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَدْعُونَ

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢٤٧/٢) برقم: [١٨٨٤].

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ .

فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِيِّ عِنْدَ ابْنِ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ يَأْتِي رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَصُمْتُ الشَّهْرَ، وَقُمْتُ رَمَضَانَ، وَآتَيْتُ الزَّكَاةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ عَلَيَّ هَذَا كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ» (١)، أَتَى بِالشَّهَادَتَيْنِ وَصَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، لَيْسَتْ صَلَاةٌ وَاحِدَةً فِي الْيَوْمِ أَوْ عَلَيَّ حَسَبِ الظُّرُوفِ أَوْ عَلَيَّ حَسَبِ الْأَهْمِيَّةِ، حَسَبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ الصَّلَاةِ فِي آخِرِ سُلْمِ الْأَوْلَوِيَّاتِ لَا، وَصَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فَمِمَّنْ أَنَا؟ قَالَ: «الصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ» (٢).

ختاماً : لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِأَنَّهَا الْقَاسِمُ الْمُشْتَرِكُ بَيْنَ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، لَيْسَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ وَالرُّسُلُ فَحَسَبُ، وَإِنَّمَا جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُسَبِّحُ لِلَّهِ ﷻ وَتَسْجُدُ لِلَّهِ ﷻ وَتُصَلِّي لِلَّهِ ﷻ، فَإِذَا خَالَفَتْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَوْ خَالَفَ الْبَعِيدُ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يُعْرَدُ خَارِجَ السَّرْبِ، السَّرْبُ كُلُّهُ مُتَوَجِّهٌُ إِلَى اللَّهِ، الْكَائِنَاتُ الَّتِي نَعْلَمُهَا وَالَّتِي لَا نَعْلَمُهَا كُلُّهَا تُصَلِّي

(١) أخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" باب: [فِي فَضْلِ قِيَامِ رَمَضَانَ وَاسْتِحْقَاقِ قَائِمِهِ اسْمِ الصَّادِقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ إِذَا جَمَعَ مَعَ قِيَامِهِ رَمَضَانَ صِيَامَ نَهَارِهِ، وَكَانَ مُقِيمًا لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، مُؤَدِّيًا لِلزَّكَاةِ، شَاهِدًا لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، مُقِرًّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرِّسَالَةِ] [٣/٣٤٠ (٢٢١٢)]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذَكَرُ كِتَابَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا صَائِمِ رَمَضَانَ وَقَائِمِهِ مَعَ إِقَامَتِهِ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ] [٨/٢٢٤] واللفظ لابن خزيمة.

(٢) سبق تخريجه.

لله، هَكَذَا يَقُولُ الْمَوْلَى **سُبْحَانَ اللَّهِ**: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، وَأَيَّةٌ يُكْرَرُهَا الْجَمِيعُ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وَأَيَّةٌ يُرَدِّدُهَا الْجَمِيعُ:
﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

إِذَا قَالَ الْعَبْدُ الْمَسْكِينُ الْفَقِيرُ الشَّارِدُ الْمُتَمَرِّدُ: لَنْ أَصَلِّيَ، فَتَقُولُ:
إِنَّكَ لَنْ تَضُرَّ إِلَّا نَفْسَكَ، وَإِلَّا فَالْكَائِنَاتُ كُلُّهَا مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى رَبِّ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاوَاتِ، أَنْتَ الْخَاسِرُ أَنْتَ الَّذِي تُغَرِّدُ خَارِجَ السَّرْبِ، وَإِلَّا فَالسَّرْبُ
كُلُّهُ مُتَوَجِّهٌ إِلَى اللَّهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣٠

لماذا الصلاة خير موضوع؟

عباد الله ...

كَانَ حَدِيثُنَا فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي: الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ، وَتَدَارِسْنَا وَإِيَّاكُمْ هَذَا التَّسَاوُلَ: لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ وَأَجَبْنَا بِإِيْجَازٍ وَنُكْمِلُ هَذِهِ الْإِجَابَةَ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ، لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟

لِأَنَّهَا الْمَلْجَأُ لِرَاحَةِ النُّفُوسِ الْمُضْطَّرِبَةِ، لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِأَنَّهَا الْمَلْجَأُ عِنْدَ الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِأَنَّهَا رَافِدٌ مِنْ رَوَافِدِ الْإِعَانَةِ وَالتَّسْدِيدِ، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، هَكَذَا يَا مَرْنَا رَبَّنَا ﷻ أَنْ نَسْتَعِينَ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، يَقُولُ حُدَيْفَةُ ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ؛ تَوَجَّهَ إِلَى مُنَاجَاةِ رَبِّهِ ﷻ .

جَاءَ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ فَنَعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ قَتْمٌ فَاسْتَرْجَعَ قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ فَأَنَاحَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ ثُمَّ مَشَى إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، نَعَمْ إِنَّهَا رَافِدٌ مِنْ رَوَافِدِ الْإِعَانَةِ وَالْكَفَايَةِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْأُمُورِ أَوْ عِنْدَ رَخَائِهَا.

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: «يَا ابْنَ آدَمَ، اكْفِنِي أَوَّلَ النَّهَارِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ، أَكْفِكَ بَيْنَ آخِرِ يَوْمِكَ»^(١)، إِنَّ فِي الصَّلَاةِ كِفَايَةً، إِنَّ فِي الصَّلَاةِ حِرْزًا إِنَّ فِي الصَّلَاةِ حِصْنًا حَصِينًا مِنْ صَوَارِفِ الزَّمَانِ وَخُطُوبِ الدَّهْرِ. إِنَّ الصَّلَاةَ هِيَ خَيْرُ مَوْضِعٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَتَّبَ عَلَيْهَا نَصْرَ الْأُمَّةِ فَقَالَ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»^(٢)، مَنْ رَامَ النَّصْرَ وَالتَّائِيْدَ وَالتَّمَكِيْنَ فَلْيَجْعَلِ الصَّلَاةَ عَلَى رَأْسِ أَوْلِيَّاتِ الْأُمُورِ عِنْدَهُ، انْظُرْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَيْفَ يُوجِّهُهُ الْمَوْلَى ﷻ.

جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]، إِذَا ضَاقَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَيَفْعَلُ أَهْلُ الْبَاطِلِ؛ فَالْجَأُ إِلَى مِحْرَابِكَ، الْجَأُ إِلَى هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]، تَلَاوُظٌ بَيْنَ التَّسْبِيحِ وَالسُّجُودِ اقْرَأْهُ

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٦١٣/٢٨) برقم: [١٧٣٩١]، وصحه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٨٨/١) برقم: [١٩١٢]، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه النسائي في "سننه" باب: [] (٤٥/٦) برقم: [٣١٧٨]، وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَسْتَنْصِرَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عِنْدَ قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ قَلَّةٌ] (٨٦/١١) برقم: [٤٧٦٨]، وصحه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٠٩/٢)، واللفظ للنسائي.

فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَقْرَأُهُ فِي سُورَةِ ق: ﴿فَاصْبِرْ عَلَيَّ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ*
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩-٤٠].

عباد الله ... يَقُولُ الخليفة الراشد عَلِيٌّ بن ابي طالب رضي الله عنه: " لَقَدْ
رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ بَدْرٍ أَيْ: لَيْلَةَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، وَمَا فِيهَا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي
وَيَدْعُو حَتَّى أَصْبَحَ "، ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَبَيْنَ مُعَالَجَةِ الْأُمُورِ، إِنَّا
نَرَى وَاقِعَنَا وَكَيْفَ نُعَالِجُ مُشْكَلاتِنَا وَمَا يَحْدُثُ فِي بِلَادِنَا، نَرَى أَنَّنَا فِي
حَالِ الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ نُعَالِجُ كَثِيرًا مِنَ الْمَصَائِبِ بِالْمَهْرَجَانَاتِ الْغِنَائِيَّةِ
وَإِحْضَارِ رُمُوزِ الْعَفْنِ وَالْفُجُورِ لِيُخَدِّرُوا الْأُمَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مَخْدُورَةٌ ،
بِغِنَاءٍ وَرَقْصٍ وَطَرْبٍ وَمَسِيرَاتٍ وَهَتَافَاتٍ وَكَلَامٍ فَاضٍ، إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ
هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعْفِهَا بِصَلَاتِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ وَإِحْلَاصِهِمْ.

عباد الله ... لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِارْتِبَاطِهَا الْوَثِيقِ بِالْأَحْدَاثِ
وَالْوَقَائِعِ وَالْحَاجَاتِ، فَإِنَّ لِلتَّوْبَةِ صَلَاةً، جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه
وَالْحَدِيثِ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ يَقُولُ: قَالَ نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم: « مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ
ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِلَّا غَفَرَ

اللَّهُ لَهُ» (١)، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الصَّلَاةُ لَهَا اِزْتِبَاطٌ بِمَا يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ، جَاءَ فِي مُسْنَدِ الطَّبْرَانِيِّ أَعْنِي فِي مُسْنَدِ الشَّامِيِّينَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَتْ لَيْلَةٌ رِيحٌ شَدِيدَةٌ كَانَ مَفْرَعُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْكُنَ الرِّيحُ، وَإِذَا حَدَّثَ فِي السَّمَاءِ حَدَّثَ مِنْ خُسُوفِ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ كَانَ مَفْرَعُهُ إِلَى الْمُصَلِّي حَتَّى يَنْجَلِي»، الصَّلَاةُ لَهَا مُتَعَلِّقٌ بِالْأَحْدَاثِ، أَهْلُ الْمَسَاجِدِ أَهْلُ الصَّلَاةِ لَهُمْ إِعَانَةٌ وَتَسْدِيدٌ وَتَأْيِيدٌ.

يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «إِنَّ لِلْمَسَاجِدِ أَوْتَادًا، الْمَلَائِكَةُ جُلَسَاؤُهُمْ، إِنْ غَابُوا يَفْتَقِدُونَهُمْ، وَإِنْ مَرَضُوا عَادُواهُمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ أَعَانُوهُمْ» (٢)، أَتَدْرُونَ مَنْ أَوْتَادُ الْمَسْجِدِ؟ الْمُصَلِّونَ.

ثَالِثًا: لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِأَنَّهَا الْفَاصِلُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، فَالَّذِي لَا يُصَلِّي لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، لَيْسَ كَلَامِي إِنَّمَا كَلَامُ الَّذِي لَا

(١) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في الاستغفار] (٨٦/٢) برقم: [١٥٢١]، وأخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" باب: التسليم في كل ركعتين من صلاة التطوع صلاة الليل والنهار جميعًا [(٢١٤/٢) برقم: [١٢١١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٠١/٢) برقم: [٥٧٣٧]، واللفظ لأبي داود.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٤٨/١٥) برقم: [٩٤٢٣]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١١٨٩/٧) برقم: [٣٤٠١].

يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، يَقُولُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرِّ وَالْكَفْرِ تَرَكَ الصَّلَاةِ »^(١) ، وفي حديث عبد الله بن بريدة رضي الله عنه يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ »^(٢) ، يَأْتِي رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ اسْمُهُ مِحْجَنٌ فَيَجْلِسُ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُؤَذِّنُ الْمُؤَذِّنُ أَوْ رُبَّمَا أَدَّنَ الْمُؤَذِّنُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الصَّحَابِيُّ فَيَقُومُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلَاةِ وَيَجْلِسُ مِحْجَنٌ وَيَعُودُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِحْجَنٌ جَالِسٌ مَاذَا قَالَ لَهُ؟ قَالَ: « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ النَّاسِ ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟ ، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ قَدْ صَلَّيْتُ فِي أَهْلِي ، فَقَالَ لَهُ: إِذَا جِئْتَ فَصَلِّ مَعَ النَّاسِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ صَلَّيْتَ »^(٣) .

الشَّاهِدُ: « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ النَّاسِ ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟ »^(٤) ، كَمْ يَتَكَرَّرُ لَنَا هَذَا الْمَوْقِفُ ، نَكُونُ فِي مُؤْتَمَرٍ ، نَكُونُ فِي اجْتِمَاعٍ ، نَكُونُ فِي مَخِيْمٍ نَكُونُ فِي مَجْلِسٍ نَقُومُ لِلصَّلَاةِ بَعْضُ النَّاسِ مَا يَقُومُ يُصَلِّي ، تَقُولُ: يَا فُلَانُ أَدَّنَ الْمُؤَذِّنُ قَدْ صَلَّ ، فَيَقُولُ: شُكْرًا !!! ، وَكَأَنَّكَ تَدْعُوهُ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بَيَانِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْكُفْرِ عَلَى مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ] [(٨٨/١) برقم: ٨٢] .

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٠/٣٨) برقم: [٢٢٩٣٧] ، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِيمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ] [(٣٤٢/١) برقم: [١٠٧٩] ، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٨١/١) برقم: [٥٧٤] ، واللفظ لأحمد .

(٣) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣٢٠/٢٦) ، أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" باب: [إِعَادَةُ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ بَعْدَ صَلَاةِ الرَّجُلِ لِنَفْسِهِ] [(٤٤٩/١) برقم: [٩٣٢] ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٤٣/١) برقم: [٤٦٧] ، واللفظ لأحمد .

(٤) سبق تخريجه .

عَلَى غَدَاءٍ أَوْ عَلَى عَشَاءٍ، فَمُ صَلِّ، قَالَ: شُكْرًا أَنَا مَا أَصَلِّي، يَعْني لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ»،.

وَهَكَذَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَقِيقٍ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُهُ كُفْرًا غَيْرَ الصَّلَاةِ، وَهَكَذَا يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ» [المدثر: ٣٨-٤٤]،

عباد الله ... جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيَحَافِظْ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ أَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

لِمَاذَا الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ؟ لِأَنَّهَا نُورٌ، نُورٌ لِمَنْ أَدَّاهَا وَحَافِظٌ عَلَيْهَا، وَظُلْمَةٌ لِمَنْ تَرَكَهَا، جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « وَالصَّلَاةُ

نُورٌ»^(١)، وَجَاءَ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُضِيءُ لِلَّذِينَ يَتَخَلَّلُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِنُورٍ سَاطِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، وَيَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ: «مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا؟ كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةً، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَأَبِي بَنِي خَلْفٍ»^(٣).

وَأَخْتِمُ هَذِهِ الْخُطْبَةَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِلًا: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِّعَتْ وَحُرِّقَتْ، وَلَا تَتْرُكْ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ، وَلَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»^(٤).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [فَضْلُ الوُضُوءِ] [٢٠٣/١] برقم: [٢٢٣].

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الْمَشْيُ إِلَى الصَّلَاةِ] [٢٥٧/١] برقم: [٧٨١]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الصَّلَاةِ فِي الظُّلَمِ] [١٥٤/١] برقم: [٥٦١]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" [٥٤٥/١] برقم: [٢٨٢٣]، واللفظ لأحمد.

(٣) أخرجه أحمد في "مسنده" [١٤٢/١١] برقم: [٦٥٧٧]، وأخرجه الدارمي في "سننه" باب: [فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ] [١٧٨٩/٣] برقم: [٢٧٦٣]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" [١٨٣/١] برقم: [٥٧٨]، واللفظ لأحمد.

(٤) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ] [١٣٣٩/٢] برقم: [٤٠٣٤]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" [٥٨/٨] برقم: [٧٩٥٦]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" [١٨٣/١] برقم: [٥٨٠]، واللفظ لابن ماجه.

٣١

عَمَلٌ قَلِيلٌ وَأَجْرٌ كَثِيرٌ

عباد الله ...

يَسْأَلُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: عَلَامَ رَتَّبَ الْمَوْلَى ﷺ بِصِيَامِ يَوْمٍ وَاحِدٍ هَذَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ؟ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، فَيَقُولُ: كَيْفَ بَعْمَلٍ يَسِيرٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ فَيُؤَجَّرُ هَذَا الْأَجْرَ الْكَبِيرَ يُغْفَرُ لَهُ مَا مَضَى سَنَةً كَامِلَةً؟

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ نَظِيرَ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالًا يَسِيرَةً، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَارِكُ لَهُ فِي عَمَلِهِ وَيُثَبِّتُهُ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الْيَسِيرِ أَجُورًا كَثِيرَةً، وَهَذَا أَمْرٌ مُضْطَرِّدٌ وَمَعْلُومٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّا نَتَعَامَلُ مَعَ الْكَبِيرِ ﷻ، نَتَعَامَلُ مَعَ الْكَرِيمِ ذِي الْمَنِّ وَالْعَطَاءِ؛ وَلِأَنَّ أَعْمَارَنَا قَصِيرَةٌ قِيَاسًا بِالْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، فَاللَّهُ ﷻ أَوْجَدَ أُمَّمًا كَانَ أَحَدُهُمْ يُعَمِّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَرَبَّمَا عُمَرَ أَحَدَهُمْ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَةٍ.

لَكِنْ لَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ كَانَ أَعْمَارُ أَفْرَادِهَا كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ قَالَ ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ، إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ» (١)، يَعْنِي النَّسَبَةُ الْأَكْبَرُ هُمْ الَّذِينَ لَا يُعَمَّرُونَ أَكْثَرَ مِنَ السَّبْعِينَ، فَأَعْطَانَا الْمَوْلَى ﷺ مُكَافَاتٍ عَظِيمَةً عَلَى أَعْمَالٍ يَسِيرَةٍ.

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [الْأَمَلِ وَالْأَجَلِ] (١٤١٥/٢) برقم: [٤٢٣٦]، وأخرجه الترمذي في "سننه" (٥٥٣/٥) برقم: [٣٥٥٠]، وحسنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٤٥٢/٣) برقم: [٥٢٨٠].

ثُمَّ إِنَّ أَوْقَاتَنَا مَلِيئَةٌ بِالصَّحَّةِ وَالْفَرَاغِ، وَالْمَغْبُونُ الْخَاسِرُ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الْوَقْتِ، كَمَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١)، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِذَا كَانَ هَذَا الْهَاجِسُ يُورِّقُ وَاحِدًا لَعَلَّهُ يُورِّقُ جَمْعًا مِنَ النَّاسِ فَلَا تَحَدَّثُ عَنْهُ، وَأَذْكَرُ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِأَعْمَالٍ يَسِيرَةٍ رَتَّبَ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهَا أَجُورًا كَبِيرَةً.

أولاً: يا عباد الله... لننظر إلى هذه النية، النية عمل يسير، مجرد أن ينوي الإنسان فعل الخير يُوجر عليه، نيتك أن تفعل الخير نيتك أن تحفظ القرآن تُوجر على ذلك إذا كانت هذه النية صادقة، نيتك أن تفعل الصالحات تعود مريضاً، تزور أخاك فإن الله يكتب لك الأجر.

فقد جاء في سنن النسائي من حديث أبي الدرداء أن النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢)، أَرَأَيْتَ هَذَا الْعَطَاءَ وَالْفَضْلَ، فَقَطُّ نَوَى أَنْ يَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّيَ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ؛ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُفَكَّرَ الْمُسْلِمُ فِي هَذِهِ الْجُزْئِيَّةِ فَيَنْوِيَ فِعْلَ الْخَيْرِ، وَالنِّيَّةُ لَا تَتَوَقَّفُ.

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ] (٨٨/٨) برقم: [٦٤١٢].

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٤٢٦/١) برقم: [١٣٤٤]، وأخرجه النسائي في "سننه" باب: [مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي

الْفَيْتَامَ فَنَامَ] (٢٥٨/٣) برقم: [١٧٨٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٠٣١/٢) برقم: [٥٩٣٦].

أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ فِي جَوَارِحِهِ تَتَوَقَّفُ حَرَكَاتُهُ تَتَوَقَّفُ، وَلَكِنَّ هَذِهِ النِّيَّةَ لَا حَدَّ لَهَا، انْوَ فِعْلَ الْخَيْرِ تُؤْجِرُ عَلَيْهِ، .

ثَانِيًا: سُنَّ سُنَّةَ حَسَنَةٍ، أَحْيِي سُنَّةً قَدْ مَاتَتْ فَإِنَّ لَكَ أَجْرَهَا وَأَجْرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا. إِذَا كَمَ لَكَ مِنَ الْأَجُورِ يَقُولُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ : «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»، مَا عَمِلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، إِنْسَانٌ لَيْسَتْ لَهُ عَادَةٌ يُصَلِّي صَلَاةَ الضُّحَى فَعَلَّمْتَهُ هَذِهِ السُّنَّةَ أَحْيَيْتَهَا فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا بِهِ يُصَلِّي صَلَاةَ الضُّحَى، فَكُلَّمَا رَكَعَ وَسَجَدَ مُصَلِّيًا لِلَّهِ جَاءَكَ الْأَجْرُ، أَحْيِي سُنَّةً بِرِسَالَتِهِ، بِمَقَالٍ تَكْتُبُهُ فِي صَحِيفَةٍ، بِرِسَالَةٍ تُرْسَلُهَا إِلَى أَيِّ كَانَ فِي أَيِّ مَكَانٍ أَحْيِي هَذِهِ السُّنَّةَ بِاتِّصَالِ تَجْرِيهِ، فَكُلَّمَا عَمِلَ بِهَذِهِ السُّنَّةِ جَاءَكَ أَجْرُهَا، إِنَّكَ تَتَعَامَلُ مَعَ الْكَرِيمِ ﷻ .

عَلَّمَ عِلْمًا أَوْ تَعَلَّمَ عِلْمًا تُؤْجِرُ عَلَيْهِ، الدَّلِيلُ يَقُولُ ﷺ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْ يُعَلِّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ قَالَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حَاجَّتُهُ»، ذَهَبَ لِيَتَعَلَّمَ ذَهَبَ بِهَذِهِ النِّيَّةِ إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْ يُعَلِّمَ، يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ إِمَامُهُ يُصَلِّي وَيَخْرُجُ وَهَذَا الْمَسْجِدَ إِمَامُهُ يُصَلِّي وَيُلْقِي دَرَسًا ذَهَبَ بِهَذِهِ النِّيَّةِ يَخْرُجُ مِنَ الْمَسْجِدِ بِهَذَا الْأَجْرِ «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا

أُمَّهُ مِنَ الْخَطَايَا لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»، هَذَا الْعَمَلُ يَتَوَضَّأُ لَكِنْ بِعِنَايَةٍ فَيُسَبِّحُ
الْوُضُوءَ أَي: يَتَمَّهُ ثُمَّ يَقُومُ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ يَسْتَحْضِرُ أَنَّهُ يُصَلِّي إِلَّا انْفَتَلَ
مِنْ صَلَاتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ.

بَلِ اسْمِعِ الْأَعْجَبَ قَالَ عُرْوَةُ بْنُ عَامِرٍ: فَقُلْتُ: بَخٍ بَخٍ يَعْنِي مَا
أَعْجَبَ هَذَا الْكَلَامَ فَقَالَ لِي رَجُلٌ بَجَانِبِي وَهُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَتَعْجَبُ
مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، لَقَدْ قَالَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِي مَا هُوَ أَجْوَدُ مِنْهُ قَالَ: فَمَا قَالَ فِدَاكَ
أَبِي وَأُمِّي قَالَ: قَالَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِي: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ
فَيُسَبِّحُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ
وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » (١)، كَمْ
عَدَدْنَا الْآنَ، سِتَّةَ آلَافٍ مُصَلٍّ، لَيْسَ أَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنَّا نَفْسُهُ: الْآنَ قَبْلَ قَلِيلٍ
لَمَّا تَوَضَّأَ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ هَلْ قَالَ هَذَا الدُّعَاءُ؟ يَسِيرٌ لَكِنَّ الْعَامِلِينَ بِهِ
قَلِيلٌ، أَجُورُهُ كَثِيرَةٌ لَكِنَّ الْمُتَحَمِّسِينَ إِلَيْهِ قَلَّةٌ.

عباد الله ... وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ
الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ قَالَ ﷺ: « مَنْ صَلَّى
الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ، ثُمَّ مَكَثَ حَتَّى يُسَبِّحَ تَسْبِيحَةَ الصُّحَى، كَانَ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [الذَّكْرُ الْمُسْتَحَبُّ عَقَبَ الْوُضُوءِ] (٢٠٩/١) برقم: [٢٣٤].

لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ وَمُعْتَمِرٍ تَامًّا لَهُ حَجَّتُهُ وَعُمْرَتُهُ» (١)، وَالْمَسَاجِدُ تَشْتَكِي فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ تَقُولُ: أَيْنَ الْمُصَلُّونَ؟ جُدْرَانُهَا تَتَنُّ تَقُولُ: أَيْنَ الْمُصَلُّونَ؟ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ طَوَالَ اللَّيْلِ بِسَيَّارَاتِهِمْ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْفَجْرُ وَخَرَجْتَ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ مَا تَجِدُ أَحَدًا وَكَأَنَّكَ فِي مَدِينَةِ أَشْبَاحٍ فَتَقُولُ: أَيْنَ النَّاسُ، الْمُصَلُّونَ صَفٌّ أَوْ صَفٌّ وَنِصْفٌ، وَالْعَمَلُ يَسِيرٌ، الْيَوْمَ النَّاسُ قَدْ تَتَعَبُوا وَتَصْرَفُوا وَتَأْخُذُ إِجَازَاتٍ حَتَّى تَعْتَمِرَ، وَهَذَا عَمَلٌ يَسِيرٌ يُصَلِّي الْفَجْرَ وَيَجْلِسُ حَتَّى تُشْرِقَ الشَّمْسُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَيَخْرُجُ بِأَجْرِ حَجٍّ وَعُمْرَةٍ تَامَةٍ.

وَهُنَاكَ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا تَدُورُ حَوْلَ هَذَا الْمِحْوَرِ، وَمِنْهَا « أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالسُّرُورُ يُرَى فِي وَجْهِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَرَى السُّرُورَ فِي وَجْهِكَ، فَقَالَ: " إِنَّهُ أَتَانِي مَلَكٌ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَمَا يُرْضِيكَ أَنْ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، قَالَ: بَلَى » (٢).

ختاماً ... وَمِنَ الْأَعْمَالِ الْيَسِيرَةِ ذَاتِ الْأَجُورِ الْكَبِيرَةِ: مَا ذَكَرْتُهُ فِي أَصْلِ وَسَبَبِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ مَا نَحْيَاهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ وَمَا حَسَّنَا

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٤٨/٨) برقم: [٧٦٤٩].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٨٣/٢٦) برقم: [١٦٣٦٣]، وأخرجه النسائي في "سننه" (١٩١/١) وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٨١/٢) برقم: [٨٢٩].

عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصِّيَامِ، فَنَحْنُ فِي شَهْرِ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ وَهُوَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ، وَقَدْ كَانَ نَبِينَا ﷺ يَصُومُهُ وَيُكَثِّرُ مِنَ الصِّيَامِ فِيهِ وَأَكَّدَ عَلَى صِيَامِ يَوْمِ الْعَاشِرِ وَالتَّاسِعِ مِنْهُ، فَقَالَ ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، فَهَذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ»^(١)، هَذَا أَجْرٌ عَظِيمٌ صِيَامُ يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَجَاءَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَصُومُ يَوْمَ الْعَاشِرِ الْيَهُودُ يُعَظَّمُونَ يَوْمَ الْعَاشِرِ، يَعْنِي لَا نَصُومُ يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَ ﷺ: «فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ»^(٢)، رَوَاهُ مُسْلِمٌ، لَكِنَّهُ قَبِضَ ﷺ وَمَا صَامَ يَوْمَ التَّاسِعِ وَلَكِنَّهَا مِنْ سُنَّتِهِ الْقَوْلِيَّةِ، فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَلَّا يَفُوتَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ صِيَامُ يَوْمِ التَّاسِعِ وَصِيَامُ يَوْمِ الْعَاشِرِ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَجُورِ الْعَظِيمَةِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالْإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ] (٨١٨/٢) برقم: [١١٦٢].

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [أَيُّ يَوْمٍ يُصَامُ فِي عَاشُورَاءَ] (٧٩٧/٢) برقم: [١١٣٤].

٣٢

دَعَوَاتٌ غَيْرَتِ هَجْرَةَ الْأَحْدَاثِ

عباد الله ...

مُنْذُ أَنْ نُصْبِحَ حَتَّى نُمْسِيَ وَنَحْنُ نَرَى مَشَاهِدَ بَعْضِهَا يُفْرِحُنَا،
وَتَرْتَفِعُ لَهُ هَامَاتُنَا، وَبَعْضِهَا يُحْزِنُنَا وَتَتَصَاغَرُ لَهُ هَمْمُنَا .

وَمِنَ الْمَشَاهِدِ الْمُؤَثِّرَةِ الَّتِي نَتَأَثَّرُ بِهَا جِدًّا، وَنَفْرَحُ لَهَا مَشَاهِدَةً تَلِكِ
الْأَيْدِي الَّتِي تَرْتَفِعُ إِلَى السَّمَاءِ، وَالْأَفْوَاهِ الَّتِي تَلْهَجُ بِالدُّعَاءِ تَقُولُ: يَا
رَبِّ، يَا رَبِّ، تَرْتَفِعُ يَدُ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ، وَيَدُ الْمَرْأَةِ الْمُسِنَّةِ، وَيَدُ الشَّابِّ،
وَيَدُ الطِّفْلِ الْبَرِيِّ، كُلُّهُمْ يَلْهَجُ بِالدُّعَاءِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، كَمْ هُوَ مُؤَثِّرٌ ذَلِكَ
الْمَنْظَرُ.

كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى هَذَا الْمَشْهَدِ؛ فَرِحْتُ بِهِ كَثِيرًا وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَكَ
الْحَمْدُ أَنْ فِي الْأُمَّةِ خَيْرًا. فَقَدْ أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَنَّ لَهُمْ رَبًّا يَسْمَعُ الدُّعَاءَ،
وَيُجِيبُ، يَسْمَعُ الدَّعْوَةَ فَيُعْطِي، إِنَّهَا دَعَوَاتُ الصَّالِحِينَ.

لِذَا، تَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ تَحْتَ هَذَا الْعُنْوَانِ: «دَعَوَاتٌ غَيَّرَتْ
مَجْرَى الْأَحْدَاثِ»، دَعَوَاتٌ غَيَّرَتْ مَوَازِينَ الْقُوَى، دَعَوَاتٌ دَوَّنَهَا
التَّارِيخُ، وَحَفِظَتْهَا الذَّاكِرَةُ، إِنَّهُ الدُّعَاءُ الَّذِي تَكْمُنُ أَهْمِيَّتُهُ فِي قَوْلِ
الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

عبدالله ... تَأْمَلْ قَوْلَ الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يُرْشَدُونَ ﴿البقرة: ١٨٦﴾.

يَتَلَطَّفُ الْمَوْلَى الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى، فَيَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ
كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«يَنْزِلُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ
الَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ
يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» (١). يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا يَتَحَنَّنُ إِلَيْنَا، فَيَعْرَضُ
كثيْرٌ مِنَ النَّاسِ عَنِ الدَّعَاءِ بِلِ وَيزدريه ويقول بلغة المستكبر: أَنْتُمْ مَا
عِنْدَكُمْ إِلَّا الدُّعَاءُ. فنقول له: سبحان الله! أين أنت عن قولِ نبيِّنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

أَتَهْزَأُ بِالدُّعَاءِ وَتَزْدَرِيهِ وَمَا تَدْرِي بِمَا صَنَعَ الدُّعَاءُ
سَهَامُ اللَّيْلِ لَا تُخْطِي وَلَكِنْ لَهَا أَمَدٌ وَلِلْأَمَدِ انْقِضَاءُ

عباد الله ... فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» تَقُولُ عَائِشَةُ:
إِنَّ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ
فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ، فَيَعْتَلِجَانِ (أَي: فِي السَّمَاءِ) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥])
(١٤٣٩/٩٦) برقم: [٧٤٩٤]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: التَّزْغِيْبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالْإِجَابَةِ فِيهِ)
(٥٢١/١) برقم: [٧٥٨].

بَلْ إِنَّ الْمَوْلَى الْكَرِيمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَحِي إِذَا رَأَى هَذِهِ الْأَيْدِي تَرْتَفِعُ أَنْ يُرَدَّهَا صِفْرًا، فَقَدْ جَاءَ فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِّي كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يُرَدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ».

عباد الله ... هناك دعوات غيرت مجرى الأحداث، فهذا نُوحٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَالَبَتْ عَلَيْهِ قُوَى الشَّرِّ، وَاسْتَهْدَفَتْهُ مُخَطَّطَاتُ الْأَعْدَاءِ، وَأَيْدِي الْغَدْرِ، وَهُوَ فِي ثَلَاثَةِ مُؤْمِنَةٍ قَلِيلَةٍ، وَالشَّرُّ كَثِيرٌ، يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرْ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩-١٤].

التَّنُورُ الْمُشْتَعِلُ نَارًا يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَيَلْتَقِي مَاءُ الْأَرْضِ مَعَ مَاءِ السَّمَاءِ، فَيَحْدُثُ فَيَصَانُ عَظِيمٌ يَدُونُهُ التَّارِيخُ، وَتَحْفَظُهُ الذَّاكِرَةُ، وَيَتَّصِرُ فِيهَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالسَّبَبُ: حِينَمَا طَرَقَ بَابَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: رَبِّ إِنِّي مَظْلُومٌ فَانْتَصِرْ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، إِنَّهَا الدَّعَوَاتُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تُغَيِّرُ مَجْرَى الْأَحْدَاثِ.

وَهَا هُوَ يُؤْنَسُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِأَحَدٍ،
يَلْتَقِمُهُ الْحَوْتُ، فَيَسْتَقِرُّ فِي جَوْفِهِ الْمُظْلِمِ، وَيَسِيرُ بِهِ هَذَا الْحَوْتُ فِي
أَعْمَاقِ الْبِحَارِ فِي جَوْفِهَا الْمُظْلِمِ، فَتَرَاكُمُ عَلَيْهِ الظُّلُمَاتُ، لَكِنَّ يُؤْنَسُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ يُدْرِكُ أَنَّ الدَّعَوَاتِ تُغَيِّرُ مَجْرَى الْأَحْدَاثِ فَإِذَا بِهِ يَطْرُقُ بَابُ
السَّمَاءِ يَقُولُ الْحَقُّ **سُبْحَانَ اللَّهِ** : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ
نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾
[الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وَمُوسَى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَيْضًا تَتَكَالَبُ عَلَيْهِ أَيْدِي الْعَدْرِ وَالشَّرِّ، فَيَقُولُ كَمَا
قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَ اللَّهِ** : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ
عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ
دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

وَأَيُّوبُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** يَبْتَلَى بِالْأَمْرَاضِ، فِيهِجِرُهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَتَتَابَعُ
السُّنُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَرِيضٌ، وَيَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ، وَامْرَأَتُهُ تَقُولُ: ادْعُ
رَبَّكَ ، فَلَمَّا دَعَا الْمَوْلَى؛ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ مُبَاشَرَةً، فَقَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَ اللَّهِ**
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا

لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى

لِلْعَابِدِينَ ﴿﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وَنَبِينًا ﷺ تَحَالَفُ الشَّرَّ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَتَتَحَالَفُ عَلَيْهِ الْأَحْزَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمُخَطَّطَاتٌ مَدْرُوسَةٌ، وَتَعَاوُنٌ ظَاهِرٌ بَيْنَ بَيْنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَنَافِقِينَ، فَيَأْتِي الْأَحْزَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ، وَالْقَوَى بِالْمَنْطِقِ تُرْجِحُ كِفَّةَ الْكُفَّارِ.

لَكِنْ، هَا هُنَا مَنْ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى بَابِ السَّمَاءِ، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا بِهِ يَطْرُقُ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَارِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ» (١).

فَتَنْزَلُ الْآيَاتُ الَّتِي تُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، وَتَرَجَّحَتْ كِفَّةُ النَّبِيِّ

ﷺ وَمِنْ مَعَهُ .

وَفِي مَكَّةَ أَيْضًا تَتَحَالَفُ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ، وَيُؤْذُونَهُ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، فَإِذَا بِهِ يَطْرُقُ بَابَ السَّمَاءِ ﷺ، فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: لَا تَمْنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ) (٦٣/٤) برقم: [٣٠٢٤]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: كَرَاهَةِ مَنِّي لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عِنْدَ اللَّقَاءِ) (١٣٦٢/٣) برقم: [١٧٤٢].

بَسْبَعٍ كَسْبَعِ يُوسُفَ»^(١)، يَعْنِي: قَحَطٌ. قَالَ: فَأَتَتْهُمْ سَنَةٌ، فَأَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجَهْدِ حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجُوعِ.

إِنَّهَا الدَّعَوَاتُ الَّتِي تُغَيِّرُ مَجْرَى الْأَحْدَاثِ.

فِي «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ»: يَرْكَبُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ فِي السَّفِينَةِ وَيَسِيرُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي طَرِيقِهِمْ، فَإِذَا بِالرِّيحِ تَحَرَّكَ وَتَقَوَّى وَتَضَطَّرَبُ السَّفِينَةُ، وَيَكَادُ يَغْرُقُ الْجَمِيعُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا إِسْحَاقَ (إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ)، مَاذَا تَرَى؟ كَيْفَ الْمَخْرُجُ؟ كَيْفَ نَتَصَرَّفُ؟ فَيَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَيَقُولُ: يَا حَيُّ حِينَ لَا حَيٍّ، يَا حَيُّ قَبْلَ كُلِّ حَيٍّ، يَا حَيُّ بَعْدَ كُلِّ حَيٍّ، يَا حَيُّ يَا قِيَوْمُ يَا مُحْسِنُ، قَدْ أَرَيْتَنَا قُدْرَتَكَ، فَأَرِنَا عَفْوَكَ.

قَالَ: فَهَدَاتِ الرِّيحُ، وَسَكَنَتِ السَّفِينَةُ فِي سَاعَتِهَا.

إِنَّهَا الدَّعَوَاتُ الَّتِي تُغَيِّرُ مَجْرَى الْأَحْدَاثِ، وَلَوْ لَا خَشِيَّةُ الْإِطَالَةِ لَذَكَرْتُ لَكُمْ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْعَظِيمَةِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: سُورَةُ الرُّومِ) (١١٤/٦) برقم: [٤٧٧٤]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الدُّخَانِ) (٢١٥٥/٤) برقم: [٢٧٩٨]، واللفظ للبخاري.

٣٣

الانتقال إلى دار القرار

عباد الله ...

مرَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ - رَحِمَهُ اللهُ - بِالْمَدِينَةِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَكَّةَ فَوَقَفَ فِيهَا يَسْأَلُ فَيَقُولُ: هَلْ بَقِيَ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَدْرَكَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فقالوا: نعم. أبا حازم، فأرسل إليه قائلاً: يا أبا حازم! ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم خربتم الآخرة وعمرتُم الدنيا فكبرهتُم أن تتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: أصبت، يا أبا حازم! فكيف القدوم غداً على الله تعالى؟ قال: أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأمّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان ثم قال: ليت شعري فما لنا عند الله؟ قال: اعرض عمالك على كتاب الله، قال: وأين أجد ذلك؟ قال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، قال: يا أبا حازم! فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين. إننا ندرك من خلال هذا الحوار: أنه لا بد من الانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، لا بد أن نتقل فأهل الإحسان ينتقلون، وأهل الإساءة ينتقلون، ولكن يختلف أهل الإحسان عن أهل الإساءة والبهتان والكُلُّ ينتقل من هذه الدنيا كما انتقلنا في يوم من الأيام من بطون أمهاتنا إلى الدنيا، انتقلنا إلى هذه الدنيا ونحن نبكي، نخرج من بطون أمهاتنا ونحن نبكي، وأهلنا حولنا يضحكون سرورًا كما قال الأول:

وُلِدْتَ إِذْ وُلِدْتَكَ أُمُّكَ بَاكِئًا وَالْقَوْمُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُورًا

فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا بَكَوَا فِي يَوْمٍ مَوْتِكَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا
تَتَغَيَّرُ الْمُعَادَلَةُ، وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ، وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا الْمُرُورِ أَيَّ
فِي الْقَبْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ يَمُرُّ بِهَا الْعَبْدُ فِي حَالِ
الانتقالِ، وَحِينَمَا يُوسِّدُ الْإِنْسَانُ فِي قَبْرِهِ يَتَذَكَّرُ قَوْلَ الْحَقِّ ﷻ: ﴿يَوْمَ
تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ
بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:
٣٠]، سَيَقُولُ الْوَاحِدُ مِنَّا: رَبِّ ارْجِعُونِ، رَبِّ أَخْرِجْنِي مِنَ الْقَبْرِ فِي هَذِهِ
اللَّيْلَةِ لِأَعْمَلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ الْحَقُّ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ
قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠]، أَمَّا أَهْلُ
الْإِحْسَانِ، فَيَتَلَذَّذُونَ بِتِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْإِسَاءَةِ فَإِنَّهَا تَمُرُّ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ
مَا يَكُونُ وَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ الْحَقُّ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ
فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الوَاحِدُ مِنَّا إِذَا بَدَّلَ سَرِيرَهُ فِي بَيْتِهِ يَذْهَبُ عَنْهُ النَّوْمُ، إِذَا غَيَّرَ مَكَانَ
إِقَامَتِهِ يَتَغَيَّرُ النَّوْمُ فَكَيْفَ بِالْمَرْقَدِ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ فِي الْقَبْرِ.

فَارَقْتُ مَوْضِعَ مَرْقَدِي فِي يَوْمًا فَفَارَقَنِي السُّكُونُ
الْقَبْرُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ بِاللَّهِ قُلْ لِي مَا يَكُونُ

عباد الله ... جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ فَقَالَ : « يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ »^(١)، عِشْ مَا شِئْتَ، خُذْ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُطِيلُ عَمْرَكَ مَا شِئْتَ، عِشْ مِائَةَ سَنَةٍ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحِبْ مَنْ شِئْتَ، أَحِبْ هَذَا الْبَيْتَ، أَحِبْ هَذَا الْقَصْرَ، أَحِبْ هَذِهِ السَّيَّارَةَ، أَحِبْ هَذَا الْمُتَّجِعَ، أَحِبْ هَذِهِ الْأُسْرَةَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهَا، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ.

مَرَّ عُثْمَانُ رضي الله عنه بِالْقَبْرِ فَبَكَيَ فَيَسْأَلُ عَنْ هَذَا الْبُكَاءِ فَيَقُولُ رضي الله عنه : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلَ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ »^(٢)، إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الْأُولَى إِذَا نَجَا فِيهَا فَلْيَبْشُرْ بِالسَّعَادَةِ، وَإِنْ اذْلَهَمَّتِ الْأُمُورُ وَعَظُمَتِ الْخُطُوبُ وَاخْتَلَفَتْ أَضْلَاعُ الصُّدُورِ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

يَقُولُ الْأَصْمَعِيُّ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ فَقَالَ : أَيُّنَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَأَرْسَلَ نَحْوَهُ فَجَاءَ فَرَأَى هَارُونَ الرَّشِيدَ وَرَأَى النَّعِيمَ مِنْ حَوْلِهِ

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣٠٦/٤) برقم: [٤٢٧٨]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١٢٥/١٣) برقم: [١٠٠٥٧]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٨٠٣/٢) برقم: [٤٣٥٥].

(٢) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [ذِكْرُ الْقَبْرِ وَالْبَلَى] (١٤٢٦/٢) برقم: [٤٢٦٧]، وأخرجه الترمذي في "سننه" برقم: [٥٥٣/٤]، وحصنه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٤٨/١) برقم: [١٣٣].

قَالَ هَارُونُ الرَّشِيدُ: يَا أَبَا الْعَتَاهِيَةِ صِفْ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ هَذِهِ الدُّنْيَا، قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ لِهَارُونَ:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ

قَالَ: أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:

يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ لَدَى الرِّوَّاحِ وَفِي البُكُورِ

قَالَ: أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:

فَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعَّقَعَتْ فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ

فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مَوْقِنًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فِيَبِكِي هَارُونُ الرَّشِيدُ وَيَتَّحِبُّ، فيقول أَحَدُ جُلَسَاءِ هَارُونِ الرَّشِيدِ وهو هَارُونُ بْنُ يَحْيَى: دَعَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِتَسْرَهُ فَأَحْزَنْتَهُ قَالَ: هَارُونُ الرَّشِيدُ: دَعُهُ فَإِنَّهُ رَأَانَا فِي عَمَى فِكْرِهِ أَنْ يَزِيدَنَا، هَكَذَا الْأُمَرَاءُ وَهَكَذَا جُلَسَاؤُهُمْ، يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْفِتْرَةِ وَالْأُخْرَى أَنْ يُذَكَّرَ وَيَتَذَكَّرَ.

وَفِي وَصْفٍ لَطِيفٍ يَصِفُ لَنَا النَّبِيَّ ﷺ وَاحِدَةً مِنَ الْمَرَا حِلِ فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى فِي الْقَبْرِ فَاسْمَعْ يَا مَنْ عَمِلْتَ الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ وَبَعُدْتَ عَنِ الْمَعَاصِي هَذِهِ الْبُشْرَى: « الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوَلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فيَقَالُ: انْظُرْ إِلَيَّ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا

مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» (١)، هَذِهِ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ، زَادَ فِي رِوَايَةِ أَحْمَدٍ قَالَ: «فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طِيْبُ الرِّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي» (٢).

هل تَدَبَّرْتَ يا عبد الله هَذِهِ الْحُفْرَةَ الضَّيِّقَةَ الْمُظْلِمَةَ الْمُوحِشَةَ كَيْفَ تَتَحَوَّلُ إِلَى هَذَا النَّعِيمِ وَهَذِهِ اللَّذَّةِ! يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، يُلْبَسُ مِنْ لِبَاسِ الْجَنَّةِ، يُفْرَشُ لَهُ مِنْ فِرَاشِ الْجَنَّةِ، يَأْتِيهِ مِنْ طِيْبِ الْجَنَّةِ، وَيَمُدُّ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ الْبَصَرِ.

يَقُولُ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: مَرَرْتُ بِالْمَقْبَرَةِ يَوْمًا فَالْتَفَتُّ إِلَيْهَا وَأَنْشَدْتُ فِيهَا بَيْتَيْنِ قُلْتُ:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا
فَأَيْنَ الْمُعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [الْمَيِّتُ يَسْمَعُ حَقَقَ النَّعَالِ] (٩٠/٢) برقم: [١٣٣٨]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [عَرْضُ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ عَلَيْهِ، وَإِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالتَّعَوُّدِ مِنْهُ] (٢٢٠٠/٤) برقم: [٢٨٧٠].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٤٩٩/٣٠) برقم: [١٨٥٣٤]، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٦١٠/١) برقم: [٣٩٠]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٤٥/١) برقم: [١٦٧٦].

وَأَيْنَ الْمُدْلِ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْعَزِيزِ إِذَا مَا افْتَخَرَ

فَجَاءَنِي صَوْتٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَقَابِرِ يَقُولُ:

تَفَانُوا جَمِيعًا فَلَا مُخْبِرٌ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

وَصَارُوا إِلَى مَالِكٍ قَاهِرٍ عَزِيزٍ مُطَاعٍ إِذَا مَا أَمَرَ

تَرْوِحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ الشَّرِيِّ وَتَمْحَى مَحَاسِنُ تِلْكَ الصُّورِ

فَيَا سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضُوا أَمَا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبَرٌ

أقول: أَبْشُرُوا يَا أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالدِّينِ وَالتَّقْوَى، فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ

سَتَجِدُهُ فِي قَبْرِكَ، يَقُولُ نَبِينَا ﷺ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ مِنْ

حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ

حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا، كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ

عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتْ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ

وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُوتَى مِنْ قَبْلِ

رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُوتَى عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ:

مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ يُوتَى عَنْ يَسَارِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ، ثُمَّ

يُوتَى مِنْ قَبْلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ

وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ»^(١)، انْظُرْ كَيْفَ تَحْصِنُكَ تِلْكَ

(١) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" باب: [ذِكْرُ الْخَيْرِ الْمُدْحِضِ، قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ لَا يُحْرَكُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَى أَنْ يَبْلَى] (٣٨٠/٧) برقم: [٣١١٣]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (١٠٥/٣) برقم: [٢٦٣٠]، وحسنه الألباني في "التعليق الرغيب" (١٨٨/٤-١٨٩).

الأعمال الصالحة في قبرك وتدافع عنك أحوج ما تكون إليها .
إِذَا وَأَنْتَ تَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّهَا سَتَكُونُ لَكَ
شَافِعًا نَافِعًا مُدَافِعًا فِي قَبْرِكَ وَ نَجَاةً وَفَوْزًا وَفَلَاحًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَمَا
تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ **سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ** .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣٤

الظلم ظلمات يوم القيامة

عباد الله ...

حديثنا اليومَ عن الذَّنْبِ الَّذِي تَتَفَرَّعُ مِنْهُ جَمِيعُ الذُّنُوبِ وَهُوَ كَالْأَصْلِ لَهَا وَكَالْقَاعِدَةِ لَهَا: إِنَّهُ الظُّلْمُ، سِوَاءِ ظُلْمِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ فِيمَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ شِرْكٍَ أَوْ مَعَاصِي وَذُنُوبٍ، أَوْ ظُلْمِهِ لِلآخِرِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

عباد الله ... إِنَّ الظُّلْمَ هُوَ أَسَاسٌ لِكُلِّ ذَنْبٍ نَقَعُ فِيهَا جَمِيعًا، وَإِنَّ الظَّالِمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ حَمَلَ عَلَى عَاتِقِهِ أَوْزَارَ وَآثَامَ مَنْ ظَلَمَ، وَاسْتَمِعَ إِلَى هَذَا التَّصْوِيرِ الْبَدِيعِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، غَيْرُهُ يَأْتِي مُحْمَلًا بِالْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ وَهُوَ يَأْتِي مُحْمَلًا بِالْآثَامِ الْعَظِيمَةِ، وَاقْرَأْ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]، يَذُكُرُ الْمَوْلَى ﷻ جُمْلَةً مِنَ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ كَمَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ ثُمَّ يَحْذِرُ مِنْهَا، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]، ثُمَّ يُخَاطَبُ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ مِنَ الْحَرَامِ فَيَعْبَثُونَ بِطُونَهُمْ مِنَ الْآثَامِ، أَوْلِيكَ الظَّلْمَةَ الَّذِينَ تَعَدَّوْا عَلَى أَمْوَالِ الْآخِرِينَ خَاصَّةً أَوْلِيكَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْيَتَامَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ [النساء: ١٠].

وقد حذر نبينا ﷺ من الظلم كما جاء في صحيح مسلم فيقول: «اتقوا الظلم»، وما قال: لا تفعلوا الظلم، بل اجعلوا بينكم وبين الظلم مسافة بعيدة «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(١)، ويقول نبينا ﷺ حينما وقف في يوم عرفة، ذلك اليوم العظيم في المشهد العظيم في العبادة العظيمة: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^(٢).

بل كان ﷺ يخاف من أن يظلم أو يظلم، فقد تكررت الروايات عنه ﷺ أنه كان يستعيد بالله من أن يكون ظالماً أو مظلوماً، فيأتي في سنن أبي داود فيقول أبو هريرة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلّة والذلّة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم»^(٣)، تأمل الذي يستعيد من الظلم هو سيّد البشر ﷺ، بل تقول أم سلمة رضي الله عنها: ما خرج النبي ﷺ من بيته قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: «اللهم إني أعوذ بك أن أضلّ، أو أزلّ، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [تحريم الظلم] [١٩٩٦/٤] برقم: [٢٥٧٨].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في "صحيحه" باب: [قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رُبّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»] [٢٤/١] برقم: [٦٧]، وأخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [بُ تَغْلِيظُ تَحْرِيمِ الدَّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ] [١٣٠٥/٣] برقم: [١٦٧٩].

(٣) أخرجه أبو داود في "سننه" باب: [في الإشتعَادَة] [٩١/٢] برقم: [١٥٤٤]، وأخرجه البزار في "مسنده" [٢٧/١٥] برقم: [٨٢١٦]، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" [٣٢٢/٢] برقم: [١٠٢٦].

أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» (١)، كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ.

وَهُنَا رِسَالَةٌ أَرْجُوكَ أَنْ تَنْتَبِهَ إِلَيْهَا جَيِّدًا فَلَوْ لَمْ نَخْرُجْ مِنْ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِلَّا بِهَذِهِ الْفَائِدَةِ فَإِنَّا مِنَ الرَّابِحِينَ: حِينَمَا أَتَكَلَّمُ عَنْ مَسْأَلَةٍ مَا كَمَسْأَلَةِ الظُّلْمِ، هُنَاكَ تَفَكِيرٌ خَاطِئٌ مَعْكُوسٌ عِنْدَ الْبَعْضِ يَقُولُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا تَكَلَّمْتَ عَنِ الظُّلْمِ حَتَّى يَسْمَعَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ لَّا، أَنَا مَا وَقَفْتُ هُنَا لِأُخَاطِبَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَقَفْتُ هُنَا لِأُخَاطِبَ نَفْسِي وَأُخَاطِبَكَ أَنْتَ: إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ الْأُمُورِ حِينَمَا نَسْمَعُ مَوْعِظَةً يَقُولُ قَائِلُنَا: أَكِيدُ الْخَطِيبُ يَقْصِدُ فُلَانًا لَّا، وَاللَّهِ مَا قَصَدْتُ فُلَانًا بَلْ قَصَدْتُكَ أَنْتَ، وَلَا تَلْتَفِتْ يَمَنَةً وَيَسْرَةً وَتَقُولُ: هَلْ فُلَانٌ مَوْجُودٌ لَعَلَّهُ يَسْمَعُ الْخُطْبَةَ لَّا، غَيْرَ هَذَا النَّمَطِ فِي حَيَاتِكَ وَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّنِي مَوْجُودٌ؛ لِأَنَّكَ الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْكَلَامِ.

فَبَعْضُنَا يَقُولُ وَيَتَصَوَّرُ أَنَّ الْخُطْبَةَ إِنَّمَا جُعِلَتْ لِفُلَانٍ أَوْ لِحِجَّةٍ مَا، لَّا، هِيَ لَكَ عَلَيَّ وَجِهَ الْخُصُوصِ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَحْضُرُ مَعِيَ الْآنَ. وَالرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ: وَأَنَا أَتَحَدَّثُ عَنِ الظُّلْمِ تَذَكَّرُ أَنْتَ مَنْ ظَلَمْتَ، مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ ظُلْمُكَ مِنْ زَوْجَتِكَ وَأَوْلَادِكَ وَجَارِكَ وَمَرْؤُوسِيكَ فِي الْعَمَلِ، لِأَنَّكَ أَنْتَ مُكَلَّفٌ وَمُحَاسَبٌ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الظُّلْمُ شَيْئًا يَسِيرًا، جَاءَ فِي

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٣١٦/٤٤) برقم: [٢٦٧٢٩]، وأخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [مَا يَدْعُو بِهِ الرَّجُلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ] (١٢٧٨/٢) برقم: [٣٨٨٤]، وأخرجه أبو داود في "سننه" باب: [مَا يَقُولُ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ] (٣٢٥/٤) برقم: [٥٠٩٤]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٧٥٤/٢) برقم: [٢٤٤٢].

صَحِيحِ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ يَقُولُ: قَالَ نَبِينَا ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ» (١)، لَوْ مِسْوَاكٌ أَخَذَهُ ظُلْمًا فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.

عباد الله ... إن من أشنع صور الظلم قتل النفس المؤمنة لذا فإنني أخطبُ الشَّبَابَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقُودُونَ سَيَّارَاتِهِمْ غير مبالين بأرواح الآخرين، فيتجاوزون السُّرْعَةَ الْمَسْمُوحَ بِهَا فَيَقْتُلُونَ النَّفْسَ الْبَرِيئَةَ سِوَاءَ كَانَتْ مَعَهُمْ أَوْ مَعَ غَيْرِهِمْ، وَيَوْمِيًّا نَقْرَأُ فِي الصُّحُفِ عَنْ حَادِثٍ بَلِيغٍ يَتَّبِعُ عَنْهُ وَفَاةٌ شَخْصٍ أَوْ شَخْصَيْنِ هَذِهِ النَّفْسُ الْمَقْتُولَةُ إِذَا كَانَ الْقَاتِلُ لَهَا مُتَعَدِّيًّا لِلسُّرْعَةِ الْقَانُونِيَّةِ فَإِنَّهُ قَاتِلُ نَفْسٍ مُتَعَمِّدٌ، وَقَاتِلُ النَّفْسِ الْمُتَعَمِّدِ اسْمَعْ مَاذَا قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93].

أوصيك أَيُّهَا الشَّبَابُ! لَا تَذْهَبْ مِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ قَتَلْتَ نَفْسًا بَرِيئَةً، كَمْ رَأَيْنَا مِنْ بَعْضِ الشَّبَابِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الْإِشَارَةَ الْحَمْرَاءَ، فَيَتَّبِعُ عَنْ ذَلِكَ حَادِثٌ وَيَمُوتُ فِيهِ نَاسٌ، هَذَا قَتْلُ عَمْدٍ وَقَتْلُ الْعَمْدِ سَمِعْتُمْ مَاذَا قَالَ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" باب: [وَعِيدِ مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٍ بِالنَّارِ] (١٢٢/١) برقم: [١٣٧]،

فيه.

جاءَ عِنْدَ النَّسَائِيِّ فِي سُنَنِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» (١)، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا» (٢)،

وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ﷺ وَهُوَ يَكْشِفُ لَنَا الْحُجْبَ وَيُرِينَا مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ: «يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا رَأْسُهُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ، مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَشْخُبُ أَوْ دَاجُهُ دَمًا، حَتَّى يَأْتِي بِهِ الْعَرْشَ، فَيَقُولُ الْمَقْتُولُ لِلَّهِ: رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَاتِلِ: تَعَسْتَ، وَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى النَّارِ» (٣).

أَيُّهَا النَّاسُ ... جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، حَتَّى قَالَ لَهُ: أُحْرَجُ عَلَيْكَ إِلَّا قَضَيْتَنِي، فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا: وَيَحَكَ تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ؟ قَالَ: إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي، فَقَالَ

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١١٢/٢٨) برقم: [١٦٩٠٧]، وأخرجه النسائي في "سننه" باب: [تَحْرِيمُ الدَّمِ] (٨١/٧) برقم: [٣٩٨٤]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٢١٩/٥) برقم: [٥١٣٥]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٨٣٢/٢) برقم: [٤٥٢٠].

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب: [الديات] (٢/٩) برقم: [٦٨٦٢].

(٣) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٣٠٦/١٠) برقم: [١٠٧٤٢]، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٤٤٤/٦) برقم: [٢٦٩٧].

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ؟» ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيَّ حَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَ لَهَا: «إِنْ كَانَ عِنْدَكَ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِينَا تَمْرُنَا فَفَقَضِيكَ»، فَقَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَأَقْرَضْتُهُ، فَقَضَى الْأَعْرَابِيُّ وَأَطْعَمَهُ، فَقَالَ: أَوْفَيْتَ، أَوْفَى اللهُ لَكَ، فَقَالَ: «أَوْلَيْكَ خِيَارُ النَّاسِ، إِنَّهُ لَا قُدْسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعَتِعٍ» (١).

الْأُمَّةُ الَّتِي فِيهَا ضَعْفَاءٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنْ يَصِلَ إِلَى حَقِّهِ إِلَّا وَهُوَ مُتَعَتِعٌ يُذَلُّونَهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى حَقِّهِ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ، بِعُضِّ الْمَسْئُولِينَ وَمَنْ بِأَيْدِيهِمُ الْقَرَارُ يُذَلُّونَ أَصْحَابَ الْحَاجَاتِ حَتَّى يَأْخُذَ حَقَّهُ وَهُوَ مُتَعَتِعٌ إِذَا أَخَذَهُ، نَبِينَا ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا قُدْسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعَتِعٍ»، يَدْعُو عَلَيْهَا، وَقَالَ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ» (٢).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" باب: [لِصَاحِبِ الْحَقِّ سُلْطَانٌ] (٨١٠/٢) برقم: [٢٤٢٦]، وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٣٨٥/١٩) برقم: [٩٠٣]، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٧٩/١) برقم: [١٨٥٤].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٠٨/١) برقم: [٢٩]، وأخرجه أبو داود في "سننه" (١٢٢/٤) برقم: [٤٣٣٨]، وأخرجه الترمذي في "سننه" باب: [مَا جَاءَ فِي نُزُولِ الْعَذَابِ إِذَا لَمْ يُغَيَّرِ الْمُنْكَرُ] (٤٦٧/٤) برقم: [٢١٦٨]، وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (١٤٢٢/٣) برقم: [٥١٤٢].

٣٥

المسارعة إلى الخيرات

عباد الله ...

مَا مِنْ عَاقِلٍ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ دَارُ انْتِقَالٍ وَارْتِحَالٍ، وَالْخُلْدُ فِيهَا وَالْبَقَاءُ مِنَ الْمُحَالِ.

هَذِهِ حَقِيقَةٌ يُدْرِكُهَا الْمَرْءُ إِذَا فَارَقَ هَذِهِ الدُّنْيَا، فَيَتَمَنَّى أَنْ لَوْ عَادَ إِلَيْهَا لِيَعْمَلَ صَالِحًا، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

إِنَّهَا حَقِيقَةٌ، أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا خَلَقَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِيَدْخُلَ إِلَىٰ مَيْدَانِ السَّبَاقِ، وَلَا يَدْخُلُ فَحَسْبُ، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ لَيْسَ أَنْ تَكُونَ فِي مَيْدَانِ السَّبَاقِ، بَلْ إِنَّ الْعِبْرَةَ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ خَطِّ النِّهَايَةِ.

فَكَمْ هُمْ الْمُتَسَابِقُونَ الْمُتَسَاقِطُونَ فِي أَنْصَافِ الطَّرِيقِ! مَا يَصِلُ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ مُتَصَفِ الطَّرِيقِ، تَشْغَلُهُ الْأَمْوَالُ، وَيَشْغَلُهُ الْأَوْلَادُ، تَشْغَلُهُ الْمَلذَّاتُ وَالْمَلَاهِي؛ فَيَخْرُجُ عَنْ خَطِّ السَّبَاقِ، أَمَا النَّاجِحُ الْمَوْفِقُ الْمَسَدَّدَ فَهُوَ الَّذِي يَصِلُ إِلَىٰ خَطِّ النِّهَايَةِ، بَلِ الْمَوْفِقُ أَكْثَرُ هُوَ الَّذِي يَصِلُ

إِلَى خَطِّ النَّهْيَةِ قَبْلَ غَيْرِهِ.

عبد الله ... تَدَبَّرَ هَذِهِ الْآيَاتِ، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

لِذَا، تَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ بِهَذَا الْعُنْوَانِ: «الْمَسَارَعَةُ إِلَى الْخَيْرَاتِ»، فَاللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ يَأْمُرُنَا أَنْ نَسَارِعَ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنْ نُبَادِرَ، وَأَلَّا نَلْتَفِتَ يَمِينًا، وَلَا شِمَالًا.

عباد الله ... كَمْ هِيَ الشَّوَاعِلُ الَّتِي تَشْغُلُ هَذَا الْقَلْبَ عَنْ هَدَفِهِ الْأَسَاسِ! قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ يُفَسِّرُ الْآيَةَ الَّتِي مَضَتْ: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]:

يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَنْ سَبَقَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْخَيْرَاتِ؛ فَهُوَ السَّابِقُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى الْجَنَّاتِ». سُبْحَانَ اللَّهِ ... قَاعِدَةٌ مُضْطَرِدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ.

وَيُبَيِّنُ الْحَقُّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَنَّ الَّذِينَ هُمْ فِي هَذَا الْمِيدَانِ وَيَتَطَلَّعُونَ إِلَىٰ خَطِّ النَّهْيَةِ يَعْمَلُونَ، وَفِي الْمَقَابِلِ تَمَلُّقُ قُلُوبِهِمُ الْخَشْيَةَ، وَيَعْتَلِي هَذِهِ الْجَوَارِحَ الْخَوْفُ، يَعْمَلُونَ صَالِحًا، وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ خَائِفُونَ.

يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ

مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٥٧-٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وَالْمَسَارِعَةُ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ شِعَارُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ، شِعَارُ
الْعَامِلِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْحَوَارِيِّينَ،
وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ ﷺ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا
تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا
لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا
لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٨٩، ٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وَالْقَارِئُ فِي سُنَّتِهِ ﷺ يَجِدُ التَّأَكِيدَ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ: أَنَّ عَلَى الْعَبْدِ
أَنْ يُسَارِعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، فَإِمَّا هُوَ مَوْتُ مُفَاجِئٌ يَقَطَعُ الطَّرِيقَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ
يَصِلَ، وَإِمَّا شَوَاغِلٌ مِنَ شَوَاغِلِ الدُّنْيَا، أَوِ الثَّلَاثُ الْأَخْطَرُ الَّذِي تَعِيشُهُ
الْأُمَّةُ الْيَوْمَ، وَهُوَ كَثْرَةُ الْفِتَنِ الَّتِي تَشْغَلُ السَّالِكَ عَنِ مَوَاصِلَةِ الطَّرِيقِ
وَالْوَصُولِ إِلَىٰ نِهَائِهِ الطَّرِيقِ.

لِذَا، يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ،
يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ
دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» (١).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الْحَثُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَطَاهُرِ الْفِتَنِ) (١١٠/١) برقم: [١١٨].

تَصَوَّرْ هَذِهِ الْفِتْنَةَ تَجْعَلُ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ يَبِيعُ أَعْلَىٰ مَا يَمْلِكُ، الدِّينُ
يَبِيعُهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ، يَبِيعُ دِينَهُ.

عباد الله ... يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ،
وَكَثْرَةُ الشَّرْطِ، وَبَيْعُ الْحُكْمِ، وَاسْتِخْفَافُ بِلَدِّمِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَنَشْءٌ
يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغْنِيَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَقْلَهُمْ فَتَقَهَا» (١).

سِتُّ فِتْنٍ فَصَلَّهَا هُنَا، فَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِتْنَةٌ:

وَ«بَيْعُ الْحُكْمِ»، يَعْنِي: مَا تَصِلُ لِحَقِّكَ إِلَّا بِمَالٍ.

وَ«اسْتِخْفَافُ بِلَدِّمِ»، وَهَذَا مُشَاهِدٌ كُلِّ يَوْمٍ أَصْبَحَ الدَّمُّ رَخِيصًا.

وَالسَّادِسَةُ فِتْنَةٌ «وَنَشْءٌ» (يَعْنِي: نَاشِئَةٌ) يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ

يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغْنِيَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَقْلَهُمْ فَتَقَهَا.

حَتَّىٰ هُوَ لِأَنَّ النِّشْءِ الصِّغَارِ الَّذِينَ حَادُوا عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ،

فَاتَّخَذُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ طَرَبًا، وَضَاعُوا بَيْنَ مَقَامَاتِهِ وَالْحَانِهِ، فَغَفَلُوا عَنْ

حُكْمِ تِلَاوَتِهِ، وَالْمَقْصِدِ مِنْ هَذِهِ التَّلَاوَةِ.

حَدِيثٌ ثَالِثٌ عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ،

وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ، يَقُولُ فِيهِ نَبِينَا ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذُكِرَ تَعَوُّذُ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ) (٣٧٢/١٠)

برقم: [٤٥١٤]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٥/١٨) برقم: [٥٩]، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع»

(١٠٣/١) برقم: [٢١٤].

عبد الله ... إذا أردت أن تصل إلى خط النهاية متوجاً بالفوز والنجاح لا بد أن تعلم أن مَطِيَّتَكَ عَمَلُكَ، وَلَيْسَ نَسْبُكَ، «وَمَنْ بَطَّأ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسْبُهُ».

وَجَاءَ فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَتَّصِدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ (أَيُّ: فِي نَفْسِي): الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتَهُ يَوْمًا، الْيَوْمَ أَصِلُ إِلَى خَطِّ النِّهَائَةِ قَبْلَهُ، عِنْدِي فُرْصَةٌ، وَضِعْنَا عَلَى مِيدَانِ السَّبَاقِ، وَقَالَ هُنَاكَ: سَارِعُوا إِلَيَّ هَذِهِ الْخَيْرَاتِ.

قَالَ عُمَرُ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، خَمْسِينَ فِي الْمِائَةِ لَيْسَتْ سَهْلَةً، تَصَوَّرَ لَوْ كَانَ رَاتِبُكَ أَلْفَ دِينَارٍ، يَعْنِي خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ، وَهَذَا لَيْسَ عَنِ الرَّاتِبِ، وَلَكِنَّ الْكَلَامَ عَمَّا يَمْلِكُهُ عُمَرُ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟». قُلْتُ: مِثْلَهُ.

قَالَ: فَاتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ.

فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟».

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فَضْلِ الْاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الدُّكْرِ) (٢٠٧٤/٤) برقم: [٢٦٩٩].

فَقَالَ: أَبَقَيْتُ لَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ.

فَقُلْتُ: لَا أَسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا^(١).

هَكَذَا كَانَ يُفَكِّرُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تُفَكَّرَ: أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ لَيْسَ الْعِبْرَةُ أَنْ تَكُونَ فِيهِ، وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ أَنْ تُسَارِعَ وَتُسَابِقَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى خَطِّ النَّهَائِيَةِ فَائِزًا.

وَجَاءَ فِي «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ»، وَ«مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»، وَغَيْرِهِمَا مِنْ كُتُبِ السُّنَنِ: أَنَّهُ حَصَلَ خِلَافٌ بَيْنَ غُلَامٍ يَتِيمٍ صَغِيرٍ وَجَارِهِ عَلَى نَخْلَةٍ بَيْنَ أَرْضَيْهِمَا، هَذَا يَقُولُ: هَذِهِ لِي، وَالْآخَرُ يَقُولُ: هَذِهِ لِي، تَنَازَعُ حُدُودٍ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ النَّخْلَةَ لِغُلَامٍ، فَبَكَى الْغُلَامُ وَقَدْ كَانَ يَتِيمًا، بَكَى، حَزَنَ أَلَّا تَكُونَ هَذِهِ النَّخْلَةُ لَهُ، فَنَبَّيْنَا ﷺ فَقَضَى أَنَّ هَذِهِ النَّخْلَةَ لِغُلَامٍ الْكَبِيرِ الرَّجُلِ، لَكِنْ بَعْدَ هَذَا قَالَ ﷺ: «أَعْطِهِ إِيَّاهَا بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ»^(٢).

لَوْ كُنْتَ مَكَانَهُ مَاذَا سَتَقُولُ؟ قَالَ: لَا، الْعَرُضُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّخْلَةُ

فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: لَا.

قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ (صَحَابِيُّ جَلِيلٌ): يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ اشْتَرَيْتُ مِنْهُ

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذِكْرُ الْخَبَرِ الْمُدْحِضِ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ سَمَاكَ بْنَ حَرْبٍ لَمْ يَسْمَعْ هَذَا مِنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ) (١١٣/١٦) برقم: [٧١٥٩]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠٠/٢٢)، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١١٣٢/٦).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: فِي الرُّحْصَةِ فِي ذَلِكَ) (١٢٩/٢) برقم: [١٦٧٨]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (٦١٤/٥) برقم: [٣٦٧٥]، وَحَسَّنَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ» (١٦٩٩/٣) برقم: [٦٠٣٠].

هَذِهِ النَّخْلَةَ، وَأَعْطَيْتَهَا هَذَا الْغُلَامَ، أَيَكُونُ لِي نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ؟

قَالَ: «نَعَمْ».

قَالَ لَهُ: أَتَبِيعَنِي نَخْلَتِكَ هَذِهِ بِبُسْتَانِي كُلِّهِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: بَعْتُكَ هَذِهِ النَّخْلَةَ بِبُسْتَانِي كُلِّهِ، وَأَعْطَاهَا الْغُلَامَ، فَقَالَ ﷺ:

«كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَّاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

فَرَجَعَ أَبُو الدَّحْدَاحِ، وَمَا دَخَلَ حَدِيقَتَهُ، بَاعَهَا مِنَ اللَّهِ، وَصَاحَ يَنَادِي زَوْجَتَهُ مِنْ خَارِجِ الْبُسْتَانِ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، اخْرُجِي، فَقَدْ بَعْتُ الْحَائِطَ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَفَرَدَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ قَائِلَةً: رَبِّحِ الْبَيْعُ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ، وَخَرَجَتْ تَنْفُضُ أَكْمَامَهَا إِلَّا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا بَاعُوهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. هَكَذَا كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: في الرُّخْصَةِ فِي ذَلِكَ) (١٢٩/٢) برقم: [١٦٧٨]، وأخرجه الترمذي في «سننه»

(٦١٤/٥) برقم: [٣٦٧٥]، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٩٩/٣) برقم: [٦٠٣٠].

٣٦

الرزق

عباد الله ...

تَأْمَلْتُ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فَوَجَدْتُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَحْتَاجُ مِنَّا إِلَى تَأْمَلٍ وَتَدَبُّرٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ قَضِيَّةَ الرَّزْقِ وَالْأَرْزَاقِ لَا يَزَالُ الْمَفْهُومُ فِيهَا غَيْرَ وَاضِحٍ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

الْحَدِيثُ عَنِ الرَّزْقِ، لِمَاذَا؟

لِغِيَابِ الْمَفْهُومِ الشَّامِلِ، الْمَفْهُومِ الْوَاضِحِ لِمَعَانِي الرَّزْقِ الْحَقِيقِيَّةِ، لِمَا نَرَى مِنْ تَنَاخُرٍ وَاقْتِتَالٍ وَخِصَامٍ وَقَطْعٍ لِلأَرْحَامِ عَلَى فُتَاتِ زَائِلٍ عِلْمًا بِأَنَّ الرَّزْقَ يَطْلُبُنَا أَكْثَرَ مِمَّا نَطْلُبُهُ.

فَقَدْ قَالَ الْحَبِيبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عِنْدَ الْبَزَارِ فِي «مُسْنَدِهِ»: «إِنَّ الرَّزْقَ لِيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ» (١).

عبد الله ... هل تعلم أن الرزق هو الذي يَطْلُبُكَ، وَمَعَ ذَلِكَ نَرَى مَنْ تَقَحَّمُ أَبْوَابَ الْحَرَامِ، وَسَلَكَ السُّبُلَ الْمُتَلَوِيَّةَ لِلْوُصُولِ إِلَى الرَّزْقِ، وَغَفَلَ عَنِ قَضِيَّةِ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ: أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ.

يَقُولُ حُدَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَا النَّاسَ،

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٣٧/١٠) برقم: [٤٠٩٩]، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ قَوْلَهُ: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ دَهَبٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِمَا النَّالِثُ) (٣١/٨) برقم: [٣٢٣٨]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٦/١) برقم: [١٦٢٩].

فَقَالَ: «هَلُمُّوا إِلَيَّ» ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ، فَجَلَسُوا، فَقَالَ: «هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» (١).

في هذه الخطبة أذكر نفسي وإياكم بتنهيات أربعة أراها مهمة، فأقول:

التَّيْبَةُ الْأُولَى: لِنَعْلَمَ جَمِيعًا أَنَّ الرِّزَاقَ هُوَ اللَّهُ ﷻ لَا غَيْرُهُ. سَيَقُولُ لِي قَائِلٌ: مَا أَتَيْتَ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ، الْكُلُّ يَعْلَمُ أَنَّ الرِّزَاقَ هُوَ اللَّهُ. أَقُولُ لَكَ: لَا يَا عَبْدَ اللَّهِ، بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، وَاقِعُهُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ سَبَأٍ: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

وَفِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

مَاتَ زَوْجٌ عَنْ زَوْجَةٍ وَأَوْلَادٍ صِغَارٍ، فَجَاءَ النَّسْوَةُ يُعْزُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَقُولُونَ: مَاتَ أَبُو الْعِيَالِ، مَاتَ الَّذِي يُطْعِمُكُمْ وَيُسْقِيكُمْ، مَاتَ الَّذِي يُؤْنِسُكُمْ وَيُوَاسِيكُمْ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ الْعَاقِلَةُ الْمَتَدِينَةُ: زَوْجِي عَرَفْتُهُ أَكَّالًا

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٣١٤/٧) برقم: [٢٩١٤]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٦/٨) برقم: [٧٦٩٤]، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٥/٦) برقم: [٢٨٦٦].

لَا رَزَاقًا، فَإِنْ مَاتَ أَبُو الْعِيَالِ؛ فَقَدْ بَقِيَ لَنَا الْكَبِيرُ الْمَتَعَالُ.
 عَلِمْتُ أَنَّ الرِّزَاقَ لَيْسَ الزَّوْجُ، وَلَيْسَ فُلَانًا، وَفُلَانًا، فَأَحْشَاهُ أَنْ
 يَقْطَعَ رِزْقِي فَأَتَنَازَلُ لَهُ عَنِ مَبَادِييَ، وَأَتَنَازَلُ لَهُ عَنِ دِينِي وَقَنَاعَاتِي لِيَرْزُقَنِي
 فِتَاتًا، أَعْلَمُ أَنَّ الرِّزْقَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالرِّزَاقَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.
 التَّيْبِيُّهُ الثَّانِي: أَنَّ الرِّزْقَ لَيْسَ مَالًا فَحَسْبُ، الرِّزْقُ أَنْوَاعٌ مُتَعَدِّدَةٌ،
 الْعَافِيَةُ وَالصَّحَّةُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْزَاقِ.

يَقُولُ وَهَبُ بْنُ مُنْبِهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَكْتُوبٌ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: الْعَافِيَةُ
 الْمَلِكُ الْخَفِيُّ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَزِينِيُّ: «يَابْنَ آدَمَ، إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ قَدْرَ مَا أَنْعَمَ
 اللَّهُ عَلَيْكَ؛ فَأَغْمِضْ عَيْنَيْكَ».

جَاءَ رَجُلٌ فَقِيرٌ يَشْكُو الْحَاجَةَ لِيُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ تَابِعِيٍّ مِنَ التَّابِعِينَ
 الْفَقِيرِ يَقُولُ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ وَقَفِيرٌ وَمُحْتَاجٌ، وَالْهَمُّ وَالْغَمُّ.

فَقَالَ لَهُ هَذَا الْعَالِمُ الْمَرْبِيُّ: أَيُّسْرُكَ فِي بَصْرِكَ مِائَةَ أَلْفٍ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَبَسْمِعِكَ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَبَلِّسَانِكَ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَبِعَقْلِكَ؟

قَالَ: لَا.

وَذَكَرَ لَهُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: أَرَى لَكَ مِثَاتِ الْأُكُوفِ
وَأَنْتَ تَشْكُو الْحَاجَةَ.

فَالصِّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ مِنَ أَعْظَمِ الْأَرْزَاقِ، فَمَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَذِهِ
النِّعْمَةِ؛ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، فَوَاللَّهِ، إِنَّ هُنَاكَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلَائِكَةِ يَتَمَنَّوْنَ
أَنْ تُوْخَذَ هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ وَيُعْطُونَ الصِّحَّةَ وَالْعَافِيَةَ، يُعْطَى الْقَدَمَ الَّذِي
يَمْشِي عَلَيْهَا، وَالْيَدَ الَّتِي يَأْكُلُ بِهَا، وَيَتَصَرَّفُ بِهَا، وَيَقُولُ: خُذُوا مَلَائِكِي
وَأَعْطُونِي بَصْرًا أَبْصِرُ بِهِ، خُذُوا مَلَائِكِي وَأَعْطُوا ابْنِي صِحَّةً وَعَافِيَةً يَقُومُ
مِنْ سَرِيرِهِ، الرَّزْقُ لَيْسَ فِي الْمَالِ فَحَسْبُ.

الْأَمْنُ مِنَ أَعْظَمِ الْأَرْزَاقِ: الْأَمَمُ، وَالْمُجْتَمَعَاتُ، وَالْأَسْرُ، وَالْأَفْرَادُ
يُنْحَثُونَ عَنِ الْأَمْنِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ أَعْظَمِ الْأَرْزَاقِ، وَنَبِيْنَا ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَصْبَحَ
مِنْكُمْ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّما حِزَّتْ
لَهُ الدُّنْيَا» (١). لِذَا، لَمَّا قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَ الْحَقِّ ﷺ: «ثُمَّ
لُتْسَأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» [التكاثر: ٨]، قَالَ: النَّعِيمُ الْأَمْنُ وَالصِّحَّةُ.

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: الْقَنَاعَةِ) (١٣٨٧/٢) برقم: [٤١٤١]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (٥٧٤/٤)

برقم: [٢٣٤٦]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٤٤/٢) برقم: [٦٠٣٩].

الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ الْمُؤْمِنَةُ مِنَ الرِّزْقِ، كَمْ أَعْرِفُ وَتَعْرِفُونَ مِنْ الشَّبَابِ مَنْ يَتَمَنَّى زَوْجَةً وَمَا تَزَوَّجَ إِلَى الْآنَ، وَيَقُولُ: كُلُّ شَيْءٍ عِنْدِي جَاهِزٌ، الْمَهْرُ وَالْغُرْفَةُ جَاهِزَةٌ، وَالْأُمُورُ مُتَيَسِّرَةٌ، يَطْرُقُ هَذَا الْبَابَ مَا يَجِدُ، وَهَذَا الْبَابَ مَا يَجِدُ، حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نِعْمَةٍ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ.

جَاءَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» قَالَ: قَالَ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ عَلِمْنَا أَيَّ الْمَالِ خَيْرٍ فَتَّخِذْهُ. قَالَ: «أَفْضَلُهُ لِسَانَ ذَاكِرٍ، وَقَلْبُ شَاكِرٍ، وَامْرَأَةٌ - أَوْ: قَالَ: وَزَوْجَةٌ - مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيْمَانِهِ»، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الرِّزْقِ.

الصَّبْرُ مِنَ الرِّزْقِ، يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدَّخِرُهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعْفَهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعْنِ يُعِنَهُ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» (١).

عباد الله ... أَرَأَيْتُمْ شَرِبَةَ الْمَاءِ هَذِهِ الَّتِي نَشَرَبُهَا ثُمَّ نُخْرِجُهَا، هَذَا مِنْ

الرِّزْقِ الْعَظِيمِ.

دَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ (عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ) عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَجَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ، فَاسْتَسْقَى هَارُونَ الرَّشِيدَ، فَلَمَّا رَفَعَ لِيَشْرَبَ، قَالَ لَهُ ابْنُ السَّمَّاكِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ مُنِعَتْ هَذِهِ الشَّرْبُ كَمْ تَدْفَعُ لَهَا؟

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الصَّبْرُ عَنْ مَخَارِمِ اللَّهِ) (٩٩/٨) برقم: [٦٤٧٠]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فَضْلِ التَّعَفُّفِ وَالصَّبْرِ) (٧٢٩/٢) برقم: [١٠٥٣].

قَالَ: أَدْفَعُ لَهَا نِصْفَ مُلْكِي.

قَالَ: اشْرِبْ هَنِيئًا، فَشَرِبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ لَمَّا انْتَهَى قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ مُنِعَتْ هَذِهِ الشَّرْبَةَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ جَسَدِكَ، كَمْ تَدْفَعُ لَهَا؟
قَالَ: أَدْفَعُ مُلْكِي كُلَّهُ.

فَقَالَ: إِنَّ مُلْكًا قِيمَتُهُ شَرْبَةُ مَاءٍ وَبَوْلَةٌ لَجَدِيرٍ إِلَّا يُنَافَسَ عَلَيْهِ.
وَهَكَذَا يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ نَافَسَكَ فِي دِينِكَ
فَنَافَسَهُ، وَمَنْ نَافَسَكَ فِي دُنْيَاكَ فَالْقِيَاهَا فِي نَحْرِهِ».
وَالْتَّبِيهِ الثَّالِثُ: أَنَّ الْأَرْزَاقَ مَكْتُوبَةٌ وَمُقَدَّرَةٌ.

يَقُولُ حَبِيبُنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ
فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١).

نعم ... مَا قُدِّرَ لَنَا فَقَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ
بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. جَلَسَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَوَضَعَ
بَيْنَ يَدَيْهِ قِطْعٌ مِنَ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَعَشَّى، قَالَ: فَجَاءَتْ قِطْعَةٌ،
فَأَخَذَتْ قِطْعَةً مِنَ اللَّحْمِ وَهَرَبَتْ بِهَا.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: فَأَرَدْتُ أَنْ أَرَى أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الْقِطْعَةُ بِهَذِهِ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: ججاج آدم وموسى عليهما السلام) (٢٠٤٤/٤) برقم: [٢٦٥٣].

الْقِطْعَةَ، فَتَبِعْتُهَا فَوَجَدْتُهَا تَقْفُ بِجَوَارِ مَكَانٍ مَهْجُورٍ، وَتَضَعُ قِطْعَةَ اللَّحْمِ
وَتَذْهَبُ.

فَرَأَيْتُ قِطْعَةَ اللَّحْمِ، فَإِذَا بِشُعْبَانٍ أَعْمَى قَدْ فُقِّتَتْ عَيْنَاهُ يَخْرُجُ وَيَأْخُذُ
قِطْعَةَ اللَّحْمِ، وَيَدْخُلُ بِهَا.

قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قُلْتُ: سُبْحَانَكَ يَا مَنْ سَخَّرْتَ الْأَعْدَاءَ
يَرْزُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

إِنَّ الْأَرْزَاقَ مَكْتُوبَةٌ وَمُقَدَّرَةٌ، قَدَّرَهَا الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ سُبْحَانَهُ الْقَائِلُ
فِي كِتَابِهِ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

التَّيْبَةُ الرَّابِعُ: هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَقَدَّمَ لَا يَعْنِي أَنَّكَ تَجْلِسُ
وَتَقُولُ: يَا رَازِقَ الطَّيْرِ ارْزُقْنِي، لَا، بَلْ تَتَحَرَّكُ وَتَسْعَى وَتُطَوِّرُ مِنْ
وَضِعِكَ الْوِظِيْفِيِّ، وَمِنْ مُؤَهَّلَاتِكَ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَنْ تُحَاوَلَ أَنْ تَتَدَرَّجَ
فِي السُّلَمِ الْوِظِيْفِيِّ فِي الدَّائِرَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا، وَنَوْعِ مَوَارِدِ الدَّخْلِ
عِنْدَكَ، مَا تَجْلِسُ هَكَذَا وَتَقُولُ مُرَدِّدًا: الْمُقَدَّرُ سَيَأْتِي! لَا بَلْ لَا بَدَّ مِنْ
السَّعْيِ وَالْحَرَكَةِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ
النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وَنَبِينًا ﷺ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَيَّ ظَهْرَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ» (١).

عباد الله... يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «عَلَيْكَ بِعَمَلِ الْأَبْطَالِ: الْكَسْبُ مِنَ الْحَلَالِ، وَالْإِنْفَاقُ عَلَى الْعِيَالِ».

وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَهُوَ مِنَ التَّابِعِينَ، دَخَلَ الْمَسْجِدَ لِيُصَلِّيَ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ، وَفِي الْمَسْجِدِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْفَارُوقُ عُمَرُ ﷺ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، وَأَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ التَّفَّتَ عُمَرُ وَمَعَهُ رَجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَرَأَى ابْنَ سِيرِينَ وَرَأَى تَحْتَ إِبْطِهِ رُزْمَةً، فَقَالَ: يَا بْنَ سِيرِينَ، مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ (أَوْ قَالَ: مَا هَذَا؟).

قَالَ: إِنِّي آتِي السُّوقَ، فَأَشْتَرِي وَأَبِيعُ، هَذَا رِزْقٌ. فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَهُ، فَقَالَ: لَا يَغْلِبَنَّكُمْ هَذَا وَأَشْبَاهُهُ عَلَى التَّجَارَةِ، فَإِنَّ التَّجَارَةَ ثُلُثُ الْإِمَارَةِ. انظُرْ إِلَى التَّاجِرِ كَيْفَ يَكُونُ كَالْأَمِيرِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعُمَرُ هُوَ الَّذِي قَالَ: إِنِّي أَرَى الشَّابَّ فَيُعْجِبُنِي، فَاسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ، فَيُقَالُ: لَا عَمَلَ لَهُ، فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِي.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الاستغفار عن المسألة) (١٢٣/٢) برقم: [١٤٧٠]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: كراهة المسألة للناس) (٧٢١/٢) برقم: [١٠٤٢].

وَهَكَذَا يَقُولُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَيْسَتْ الْعِبَادَةُ أَنْ
 تَصِفَ قَدَمَيْكَ وَغَيْرُكَ يَقُوتُ لَكَ، وَلَكِنْ ابْدَأْ بِرَغِيفِكَ، فَأَحْرِزْهَا ثُمَّ تَعَبَّدْ.
 تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ وَلَا تُؤْثِرَنَّ الْعَجْزَ يَوْمًا عَلَى الطَّلَبِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ وَهْزِي إِلَيْكَ الْجَذَعَ يَسَاقُطُ الرُّطْبُ
 وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَئِذَا جَنَّتَهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣٧

إشارات على الطريق

عباد الله ...

حَدِيثُ النَّاسِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَفِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَيَّ وَجْهِ
الْخُصُوصِ حَدِيثٌ عَنِ سِبَاقٍ فِي الدُّنْيَا، رَجُلٌ يَسْبِقُ آخَرَ، وَالْمَحْصَلَةُ
النِّهَائِيَّةُ دُنْيَا زَائِلَةٌ فَانِيَةٌ.

فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُذَكِّرَ نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ عَنْ سِبَاقِ آخَرَ، السَّبَاقِ الَّذِي كُلُّنَا
مُشْتَرِكُونَ فِيهِ، سِبَاقٌ بَدَأْنَاهُ مِنْذُ أَنْ وُلِدْنَا، وَجَرَى قَلَمُ التَّكْلِيفِ عَلَيْنَا.
هَذَا السَّبَاقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نُكْثِرَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهُ، وَالْاِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ،
وَالْاهْتِمَامِ بِمَضْمُونِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْوَلَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْمُعْتَبَرَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ
هُوَ السَّبَاقُ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَالسَّبَاقُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ، وَالسَّبَاقُ إِلَى مَغْفِرَةِ
اللَّهِ.

وَتَصَوَّرْ نَفْسَكَ أَنَّكَ فِي مِيدَانِ السَّبَاقِ وَتَتَنَطَّرُ إِشَارَةَ بَدْءِ الْاِنْطِلَاقِ،
وَهَذِهِ التَّوْجِيهَاتُ بَيْنَ يَدَيْكَ، كُلُّ سَائِقٍ لَهُ مُدَرَّبٌ، وَلَهُ مُدِيرٌ أَعْمَالٍ يُعْطِيهِ
قَبْلَ إِشَارَةِ بَدْءِ الْاِنْطِلَاقِ تَوْجِيهَاتٍ، يُعْطِيهِ قَبْلَ إِشَارَةِ بَدْءِ الْاِنْطِلَاقِ
إِشَارَاتٍ، فَخُذْ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ وَالتَّوْجِيهَاتِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ فِي هَذَا السَّبَاقِ
الَّذِي يَقُودُكَ إِمَّا إِلَى حُفْرَةٍ ضَيِّقَةٍ تَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُ الْبَعِيدِ، أَوْ إِلَى حُفْرَةٍ
عَرْضُهَا مَدُّ الْبَصَرِ.

التَّوْجِيهُ الْأَوَّلُ: اعْلَمْ أَنَّ هَذَا السَّبَاقَ حَتْمٌ لَازِمٌ، مُجْبِرُونَ عَلَيْهِ كُلُّنَا،

فَالْكُلُّ فِي مِيدَانِ هَذَا السَّبَاقِ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَاقْرَأْ فِي سُورَةِ الْأَنْشِقَاقِ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ دَلِيلٍ، فَاعْلَمْ وَاقْرَأْ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فَالْكُلُّ مُشْتَرِكٌ فِي هَذَا السَّبَاقِ، لَكِنَّ الدَّرَجَاتِ مُتَفَاوِتَةٌ، وَالتَّرْتِيبُ مُتَفَاوِتٌ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ، مِنْهُمْ مَنْ سَيَصِلُ هُنَاكَ عَلَىٰ مَنَصَّةِ التَّوْبِجِ عَلَىٰ سِرِّ مُتَقَابِلِينَ كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]. أَيْنَ يُقَرَّبُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٢-١٦].

إِنَّ هَذَا السَّبَاقَ حَتْمٌ لَا زِمٌّ، فَالْحَقُّ يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ [الحديد: ٢١].

وَالْتَّيَجَةُ بِيدِكَ أَنْتَ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَهَدَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، أَنْتَ إِنْ شِئْتَ
أَنْ تَتَقَدَّمَ؛ فَبِيدِكَ أَنْ تَتَقَدَّمَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فَتَتَأَخَّرْ،
فَذَلِكَ كُلُّهُ بِيدِكَ.

وَاقْرَأْ قَوْلَ الْحَقِّ ﷻ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ

أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

الْقِيَادَةَ بِيدِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَكُونَ مُتَقَدِّمًا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ، فَذَلِكَ
بِيدِكَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَكُونَ مُتَأَخِّرًا مَعَ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَذَلِكَ بِيدِكَ ﴿لِمَنْ
شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

وَهَكَذَا يَقُولُ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَالِكٍ

الْأَشْعَرِيِّ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا».

الْكُلُّ مُشْتَرِكٌ فِي هَذَا السَّبَاقِ، وَكُلُّهُمْ سَيَغْدُو يَعْنِي يَخْرُجُ مُبَكَّرًا،

بَائِعُ نَفْسِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ اللهُ، فَهُوَ مُعْتَقُهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَوْ بَائِعُ نَفْسِهِ لِلْهُوَى

وَالشَّيْطَانِ؛ فَهُوَ مُوْبِقُهَا أَيُّ مُهْلِكُهَا.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وَيَكْبُرُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَائِمُ

فَإِنْ كُنْتَ صَاحِبَ عَزْمٍ وَقُوَّةٍ فَسَتَتَقَدَّمُ عَلَى غَيْرِكَ، وَإِنْ كُنْتَ تَخَافُ

وتتردد وتكثر من الالتفات فستكون من المتأخرين .

التوجيه الثاني: اعلم أن الوقت في هذا السباق عزيز، ويُقاس بجزء من الثانية.

نعم، إنهم يقيسون مساحة السباق وزمن السباق في جزء من الثانية، فيقولون: هذا تقدم على ذلك بجزء من الثانية، والوقت في سباقنا إلى الله أعز من ذلك، فلا تلتفت إلى بنيات الطريق، لا تلتفت إلى الشواغل، فإن العبد في سباقه إذا التفت يمناً ويسرة، تأخر في سباقه.

يذكر أن رجلاً خرج ثم تاه في الطريق، وأوشك على الهلاك وهو يصارع الخوف من الموت إذا به يُبصر محملاً من بعيد (رفقة)، فيشير إليهم أن قفوا أنقذوني، فيركض نحوهم فتصيبه شوكة، فيشغل بإخراجها، فيرفع رأسه فإذا بهذا المحمل يختفي عن ناظره.

نعم، إن الذي يُكثر الالتفات في هذا السباق يودع، لذا هذا الرجل سمع صوتاً يقول:

لحظة يا صاحبي إن تغفل
ألف ميل زاد بعد المنزل
رام نقش الشوك حيناً رجلاً
فاختفى عن ناظره المحمل

يقول الحسن رحمه الله يُخاطب نفسه يقول: «إتما أنت أيام مجموعة، إذا مضى منك يوم مضى بعضه».

كُلَّمَا مَضَى يَوْمٌ مَضَى بَعْضُنَا، وَهَكَذَا يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَحِمَهُ اللَّهُ،
وَيُنْسَبُ هَذَا الْقَوْلُ لِلْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولَانِ: يَا بَنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَمْ تَزَلْ تَهْدِمُ
فِي عُمْرِكَ مُنْذُ أَنْ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ، نَحْنُ نَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا، فَهَذَا
شَابٌ يَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ يَنْتَظِرُ الْأَيَّامَ تَمُرُّ بِسُرْعَةٍ حَتَّى يَأْخُذَ رُخْصَةَ قِيَادَةٍ، وَهَذَا
شَبَابٌ يَنْتَظِرُ الْأَيَّامَ يُرِيدُهَا أَنْ تَمْضِيَ بِسُرْعَةٍ حَتَّى يُنْهِى الدِّرَاسَةَ الْجَامِعِيَّةَ
وَيَتَزَوَّجَ، وَذَلِكَ يَنْتَظِرُ الْأَيَّامَ تَمُرُّ بِسُرْعَةٍ حَتَّى يُحْصَلَ وَحَدَّةً سَكَنِيَّةً تَأْتِي
عَلَى مَوْعِدِهَا، وَلَا نَدْرِي كُنَّا أَنْ هَذِهِ الْأَيَّامُ إِنَّمَا تَمْضِي مِنْ أَعْمَارِنَا.

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ طُولَ الْيَوْمِ مُجْتَهِدًا فَإِنَّمَا الرَّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ

التوجيه الثالث: اعلم أن السباق ليس سباق الأبدان والجوارح،
وإنما هو سباق القلوب والأرواح، إن المعول عليه يوم القيامة من أتى
الله بقلب سليم، من أتى الله بقلب منيب.

وقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله على بغيره في يوم عرفة والناس
يتقدمون وينطلقون ويتسابقون، فإذا به يقول كلمة في غاية الروعة، يقول
لهم منادياً: «ليس السابق اليوم من سبق بغيره وجمله، وإنما السابق من
غفر له».

نعم، إن المعول عليه في يوم القيامة هو ذلك القلب السليم الذي

يَأْتِي بِهِ صَاحِبُهُ كَمَا قَالَ الْحَقُّ ﷻ: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ
 * هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ
 بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا
 وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

التَّوْجِيهُ الرَّابِعُ: قَبْلَ أَنْ تَنْطَلِقَ إِشَارَةٌ بَدءِ السَّبَاقِ اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ
 الْأَرْوَاحَ وَالْقُلُوبَ لَا تَقْطَعُ هَذِهِ الْفِيَّافِي وَالذُّرُوبَ إِلَّا بِوَقُودٍ يَظُلُّ مُشْتَعِلًا،
 وَيُعْطِيهَا مَادَّةَ الْاِشْتِعَالِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى رَبِّهَا، فَكُلُّ مُتَسَابِقٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَقِفَ
 بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ لِيَتَزَوَّدَ، وَأَعْظَمُ مَا نَتَزَوَّدُ بِهِ تَقْوَى اللَّهِ.

تَزَوَّدَ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الْفَجْرِ
 فَكَمْ مِنْ صَاحِبِ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
 وَكَمْ مِنْ فَتَى أَمْسَى وَأَصْبَحَ صَاحِكًا وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي
 هُنَاكَ مَحَطَاتٌ لِلتَّزَوُّدِ فِي طَرِيقِكَ إِلَى اللَّهِ، قِفْ بِهَا، قِفْ بِمَحَطَّةِ

ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَتَذَكَّرْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ» يَعْنِي
 الْمَوْتَ . قِفْ بِمَحَطَّةِ الْخَوْفِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَارْتِكَابِ الذُّنُوبِ،
 وَتَذَكَّرْ قَوْلَ الْحَقِّ ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾

[الأنعام: ١٥، ١٦].

قِفْ بِمَحَطَّةِ الْخَوْفِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ.
 عبد الله... لَيْسَ الْعِبْرَةُ أَنْ تَصِلَ، وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ كَيْفَ تَصِلُ.
 لَيْسَ الْعِبْرَةُ أَنْ نَصِلَ إِلَى نِهَآيَةِ خَطِّ السَّبَاقِ، وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ كَيْفَ
 أَصِلُ.

فَكَمْ مِنْ وَاحِدٍ وَصَلَ إِلَى خَطِّ النِّهَآيَةِ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ، وَهُوَ كَافِرٌ
 بِاللَّهِ، وَهُوَ فِي حَالِ رِدَّةٍ وَنِفَاقٍ، لَيْسَ الْعِبْرَةُ أَنْ تَصِلَ، وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ كَيْفَ
 تَصِلُ.

لِذَا، يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «وَأِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» (١).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الْعَمَلُ بِالْخَوَاتِيمِ) (١٢٤/٨) برقم: [٦٦٠٧].

٣٨

المتساقون على جراح الأمة

عباد الله ...

فِي خِصْمِ الْأَزْمَاتِ وَالْآلَامِ وَالْآهَاتِ وَالنَّكَبَاتِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَى الْأُمَّةِ
الإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَنِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَزْمَانِ الْمَاضِيَّةِ، أَوْ اللَّاحِقَةِ،
تَبْرُزُ دَائِمًا ظَاهِرَةٌ نَرَاهَا دَائِمًا، وَرَاهَا مِنْ قَبْلُنَا، وَسَيَرَاهَا مِنْ بَعْدُنَا، ظَاهِرَةٌ
تَبْرُزُ عِنْدَ الْأَزْمَاتِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَى الْأُمَّةِ: إِنَّهَا ظَاهِرَةٌ التَّسَلُّقِ عَلَى الْجِرَاحِ،
وَعَلَى الْآهَاتِ وَالنَّكَبَاتِ، وَعَلَى الْآلَامِ.
تَبْرُزُ ظَاهِرَةٌ الْمَتَسَلِّقِينَ عَلَى جِرَاحِ الْأُمَّةِ عِنْدَ كُلِّ أَزْمَةٍ أَوْ فِتْنَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ
تَمُرُّ بِالْأُمَّةِ.

يَبْرُزُ هَؤُلَاءِ الْمَتَسَلِّقُونَ عَلَى جِرَاحِ الْأُمَّةِ، عَلَى حِسَابِ جِرَاحِهَا
وَأَلَامِهَا وَعَوَاطِفِهَا وَحَاجَاتِهَا.
يَبْرُزُ هَؤُلَاءِ الْمَتَسَلِّقُونَ النَّفْعِيُّونَ الْمَتَاجِرُونَ فِي قَضَايَا الْأُمَّةِ غَيْرِ
عَابِئِينَ بِتِلْكَ الصَّرَخَاتِ وَالْآهَاتِ، بَلْ يَجْعَلُونَ مِنْ تِلْكَ الصَّرَخَاتِ
وَالْآهَاتِ سُلْمًا نَحْوَ مَصَالِحِ شَخْصِيَّةٍ، وَمَطَامِعِ دُنْيَوِيَّةٍ.
إِنَّ حَدِيثَنَا الْيَوْمَ عَنِ الْمَتَسَلِّقِينَ عَلَى جِرَاحِ الْأُمَّةِ، إِنَّهَا الظَّاهِرَةُ
الْمُتَكَرِّرَةُ عِنْدَ كُلِّ أَزْمَةٍ، وَفِي كُلِّ أَزْمَةٍ انْظُرْ فَسَتَجِدُ عَلَى السَّطْحِ هَؤُلَاءِ
النَّفْعِيِّينَ تَجَارِ الْقَضَايَا يَبْرُزُونَ دَائِمًا عَلَى السَّطْحِ، هَؤُلَاءِ الْمَرْضِي الَّذِينَ
أُصِيبُوا بِدَاءِ حُبِّ الظُّهُورِ، وَالتَّصَدُّرِ، وَالزَّرْعَامَةِ.

هُؤُلَاءِ الْمَصَابُونَ بِدَاءِ حُبِّ الصَّدَارَةِ وَالزَّرْعَامَةِ، وَلَا يَرُوقُ لَهُمْ بَالٌ
حَتَّى يَعْتَلُوا الْمَنْصَبَاتِ، وَيَقْفُوا خَلْفَ مَكْبَرَاتِ الْأَصْوَاتِ، وَتَحْتَ وَهَجِ
الإِضَاءَاتِ.

عباد الله... أين هؤؤلاء عن سير سلف الأمة فهذا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ
سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه يخرج إِبَانَ الْأَزْمَةَ وَالْفِتْنَةَ يَعْتَزِلُ الْفِتْنَةَ، وَيَعْتَزِلُ
الْأَزْمَةَ وَهُوَ يَرَى النَّاسَ يَتَقَاسِمُونَ الْمُلْكَ، فَيُخْرِجُ بِإِيلِهِ وَغَنَمِهِ فَارًّا
بِدِينِهِ هَارِبًا مِنَ الْأَضْوَاءِ، فَيَلْحَقُ بِهِ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى أَبِيهِ سَعْدٍ،
قَالَ: يَا أَبِي، نَزَلَتْ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَقَاسِمُونَ الْمُلْكَ
بَيْنَهُمْ؟ فَضْرَبَ سَعْدُ صَدْرَ عُمَرَ ابْنَهُ، وَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيِّ الْخَفِيَّ» (١).

هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ أَهْلُ الْخَفَاءِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ تَحْتَ الْأَضْوَاءِ،
أَوْ دُونَهَا، فَوْقَ الْمَنْصَبَاتِ أَوْ تَحْتَهَا، يَعْمَلُونَ وَلَا يَنْتَظِرُونَ تَصْفِيرَ الْجُمَاهِيرِ
وَتَصْفِيقَهَا وَهَتَافَاتِهَا.

لِذَا، جَاءَتْ وَصِيَّةُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ لِلْعَالِمِ الشَّهِيرِ الزَّاهِدِ الْعَابِدِ
الْمُجَاهِدِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: «إِيَّاكَ وَالشُّهْرَةَ، فَمَا أَتَيْتُ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ نَهَى عَنِ
الشُّهْرَةِ».

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ) (٢٢٧٧/٤) برقم: [٢٩٦٥].

وَقَدْ نَهَى عَنْهَا نَبِينَا ﷺ، وَبَيَّنَّ أَنَّ حُبَّ الرَّئَاسَةِ وَالتَّطَلُّعَ إِلَيْهَا أَخْطَرُ مَا يَكُونُ عَلَى الدِّينِ، فَقَالَ كَمَا جَاءَ فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ ابْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ: «مَا ذُبَّانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»^(١).

انظُرْ إِلَى هَذَا التَّوْصِيفِ، إِنَّهَا الْخُطُورَةُ الَّتِي حَدَرَ مِنْهَا شَدَّادُ بَنِ أَوْسٍ حِينَمَا قَالَ: «يَا بَقَايَا الْعَرَبِ، إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ». قِيلَ لِأَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ: وَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ؟ قَالَ: حُبُّ الرَّئَاسَةِ.

ذَلِكَ الْمَطْمَعُ الْخَبِيثُ الَّذِي يَكُونُ فِي الصُّدُورِ، الَّذِي يَجْعَلُ صَاحِبَهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا إِذَا تَطَلَّعَ إِلَى الْمَنْصِبِ الْعَالِيِّ، وَالْمَكَافَاتِ الْعَالِيَةِ. يَقُولُ سُفْيَانُ وَهُوَ يَفْضَحُ هَوْلًا لِمُتَسَكِّينَ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ بِثِيَابِ الزُّهْدِ، وَبِثِيَابِ الْوَرَعِ، وَبِثِيَابِ الْخَشْيَةِ، يَضْحَكُونَ عَلَى النَّاسِ، يَفْضَحُهُمْ سُفْيَانُ، فَاسْمَعْ مَاذَا يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: «رَأَيْنَاهُمْ يَزْهَدُونَ فِي الطَّعَامِ، وَالشَّرَابِ، وَاللِّبَاسِ، وَإِذَا نُوزِعَ أَحَدُهُمْ عَلَى الرَّئَاسَةِ، نَاطَحَ نِطَاحَ الْكِبَاشِ».

سبحان الله تجد أحدهم يزهد في الطعام، واللِّباسِ، والشَّرَابِ،

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا ذُبَّانِ جَائِعَانِ) (٥٨٨/٤) برقم: [٢٣٧٦]، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٣٨٦/١٠) برقم: [١١٧٩٦]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ» (١٤٣١/٣) برقم: [٥١٨١].

فَإِذَا نُوزِعَ فِي الرَّئَاسَةِ الْمَحَكَّ الْخَطِيرِ، فَإِذَا هُوَ يُنَاطِحُ، نِطَاحَ الْكِبَاشِ .
 عباد الله امتدح نبينا ﷺ العبد الذي يعمل في أي مكان، وتحت أي
 ظرف، ولا يتطلع إلى تصفيق فلان، ولا إلى هتاف فلان، ولا إلى وعود
 فلان، فاسمع ماذا قال عنه ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ
 الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا
 شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَثَ
 رَأْسَهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي
 السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشْفَعْ» (١).

إن من أعظم أسباب الإصابة بهذا الداء، وهو التسلق على جراح
 الأمة : الغفلة عن العاقبة المرة، أعني به يوم القيامة، إنك حينما تتطلع
 إلى الصدارة، اعلم أنك مسؤل عنها يوم القيامة، نعم، قد تأخذك نشوة
 يافلان تم تعينك مسؤلًا على، لكنك تغفل أنك مسؤلًا عنها يوم القيامة.
 يقول حبيبنا ﷺ كما جاء في «صحيح ابن حبان»: «وَيْلٌ لِلْأَمْرَاءِ،
 لَيْتَمَنِينَ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعَلِّقِينَ بِذَوَائِبِهِمْ بِالثَّرِيَّا وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا وُلُؤَا
 شَيْئًا قَطُّ» (٢).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الحِرَاسَةِ فِي الْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (٣٤/٤) برقم: [٢٨٨٦].

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٥/١٤) برقم: [٨٦٢٧]. وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذِكْرُ الْإِخْتِبَارِ
 عَمَّا يَتَمَنَّى الْأَمْرَاءُ أَنَّهُمْ مَا وُلُؤُوا مِمَّا وُلُؤُوا شَيْئًا) (٣٣٥/١٠) برقم: [٤٤٨٣]. وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح»
 برقم: [١٠٩٢/٢].

يَتَمَنَّى أَنَّهُ تَعَلَّقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَوَلَّى شَيْئًا؛ لِأَنَّ الْوِلَايَةَ أَمْرَهَا عَظِيمٌ، فَكَيْفَ بِهَذَا الْمَسْكِينِ الَّذِي يَكِدُّ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَيُوغِرُ صُدُورَ النَّاسِ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَجْلِسٍ إِلَى آخَرَ يَعِيبُ فُلَانًا، وَيَعِيبُ فُلَانًا حَتَّى يَصِلَ هُوَ إِلَى تِلْكَ الصَّدَارَةِ.

مِسْكِينٌ! مَا عَلِمَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ خَطِيرَةٌ، وَهُنَاكَ مَنْ يَتَسَلَّقُ عَلَى جِرَاحِ النَّاسِ وَالْأَمِيمِ، وَعَلَى حَاجَاتِهِمْ وَعَوَاطِفِهِمْ.

السَّبَبُ الثَّانِي: الطَّمَعُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، اسْمَعْ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ، اللَّهُ ﷻ يُبَيِّنُ لَنَا مَنْظَرَ قَارُونَ صَاحِبِ الْمَالِ، وَالجَاهِ، وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الزِّيْنَةِ فِي هَذَا الْمَوْكِبِ الْعَظِيمِ، فَلَمَّا شَاهَدَهُ الْجَهْلَةُ، قَالُوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصاص: ٧٩].

وَأَنَا أَفْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هُوَ لَأَفْضَلُ مِنَّا الْيَوْمَ، الْيَوْمَ نَحْنُ نَضْحَكُ عَلَى أَنْفُسِنَا وَنَضْحَكُ عَلَى النَّاسِ، وَنَقُولُ: نَحْنُ مَا نُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْمَنْصِبِ شَيْئًا، مَا نُرِيدُ دُنْيَا، نُرِيدُ خِدْمَةَ الْآخِرِينَ، نُرِيدُ نَفْعَ النَّاسِ، أَوْلَيْكَ صَدَقُوا، قَالُوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصاص: ٧٩]. صَرَّحُوا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الدُّنْيَا، وَأَصْحَابُنَا كَذَبُوا وَقَالُوا: نُرِيدُ خِدْمَةَ النَّاسِ، وَالْقِيَامَ عَلَى شُئُونِ النَّاسِ، وَهَذَا الْفَارِقُ الْكَبِيرُ.

يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[القصص: ٧٩].

تَقْرَأُ بَعْدَهَا بآيَاتِ يَقُولِ الْحَقِّ ﷺ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ

لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وَالسَّبَبُ الثَّلَاثُ: الْغَفْلَةُ عَنْ تَبَعِيَّةِ التَّصَدُّرِ وَالزَّعَامَةِ، التَّصَدُّرُ لَهُ

تَبَعَاتٌ، كُلُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَعَّمْتَهُمْ كُلُّ هَؤُلَاءِ فِي رَقَبَتِكَ، أَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَعَلَّقُونَ فِي رَقَبَتِكَ.

يَقُولُ نَبِيْنَا ﷺ فِي حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عِنْدَ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ فِي

«صَحِيحِهِ»: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرَعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحْطُهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ

يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» (١). مَسْئُولٌ عَلَى جَمَاعَةٍ وَمَا نَصَحَ لَهَا؛ مَا يَجِدُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: أَنَّا نَعِيشُ فِي زَمَنِ انْقَلَبَتْ فِيهِ الْأَفْكَارُ، نَعِيشُ فِي

زَمَنِ انْتَكَسَتْ فِيهِ الْفِطْرُ، نَعِيشُ فِي زَمَنِ أَهْلُهُ يُفَكِّرُونَ بِالْمَقْلُوبِ.

لِذَا، وَجَدَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَسَلَّقُونَ عَلَى جِرَاحِ الْأُمَّةِ السَّاحَةَ مَفْتُوحَةً

لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْفِطْرَ مَنكُوسَةً.

مَرَّ بِنَا مِنْ قَبْلُ هُنَا حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ الْعَظِيمِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي

«صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: مَنْ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فَلَمْ يَنْصَحْ) (٦٤/٩) برقم: [٧١٥٠].

السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالْبُخْلُ، وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، وَيَهْلِكَ الْوَعُولُ، وَتَظْهَرَ التَّحَوُّتُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَعُولُ وَالتَّحَوُّتُ؟ قَالَ: «الْوَعُولُ: وَجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَالتَّحَوُّتُ: الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ»^(١).

نعم لقد أَصْبَحَ التَّحَوُّتُ فِي أَعْلَى الْمَرَكَزِ وَالرَّتْبِ وَفِي صُدُورِ الْمَجَالِسِ، وَصَارَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقُودُونَ الْجَمَاهِيرَ، التَّحَوُّتُ الَّذِينَ تَضِجُ أَرْوَاقُهُ الْمَحَاكِمُ بِسِرِّقَاتِهِمْ، وَاخْتِلَاسَاتِهِمْ، وَخَزَائِمِهِمْ، وَعَارِهِمْ، أَصْبَحُوا هُمْ الَّذِينَ يَتَّصِدَّرُونَ الْمَجَالِسِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي «سُنَنِهِ» يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيَكْذِبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرَّوَيْضَةُ». قِيلَ: وَمَا الرَّوَيْضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافَهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»^(٢).

لذا لابد من الحذر من هؤلاء المتسلقين على جراح الأمة وعدم الاغترار بأقوالهم وأفعالهم الزائفة
والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذُكِرَ أَمَارَةٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ) (٢٥٨/١٥) برقم: [٦٨٤٤]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢٨/١) برقم: [٧٤٨]، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٣٩/٧) برقم: [٣٢١١].

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: الصِّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ) (١٣٣٩/٢) برقم: [٤٠٣٦]، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٦٨١/١) برقم: [٣٦٤٧].

٣٩

عذراً أبا حفص

عباد الله...

عُذْرًا أَبَا حَفْصٍ، سَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ سِيرَتِكَ، تَدْفَعُنَا إِلَى ذَلِكَ رِدَّةً

الْأَفْعَالِ.

عُذْرًا أَبَا حَفْصٍ، سَتَحَدَّثُ عَنْ سِيرَتِكَ فِي دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ نُوجِزُ فِيهَا

الْمَقَالَ.

عُذْرًا أَبَا حَفْصٍ، إِنْ تَطَاوَلَ إِلَى شَامِخِ قِمَّتِكَ أَقْزَامُ الْبِغَالِ مِنَ
الْمَعْتُوهِينَ مِنْ بَعْضِ الْمَدُونِيِّينَ وَالْمَغْرَبِيِّينَ أَشْبَاهِ الرَّجَالِ.

عُذْرًا أَبَا حَفْصٍ، أَنْ يَتَحَدَّثَ مِثْلِي عَنْ مِثْلِكَ وَقَدْ رَفَعَ ذِكْرَكَ وَشَأْنَكَ

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ.

أَيُّهَا الْفَارُوقُ عُمَرُ، يَكْفِيكَ شَرَفًا وَفَخْرًا وَعِزًّا أَنْ قَالَ فِيكَ سَيِّدُ

الْخَلْقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

إِلَّا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ» (١).

أَيُّهَا الْفَارُوقُ عُمَرُ، لَقَدْ كُنْتَ مُتَمَيِّزًا فِي إِسْلَامِكَ، مُتَمَيِّزًا فِي دِينِكَ،

مُتَمَيِّزًا فِي عِلْمِكَ، مُتَمَيِّزًا فِي حَيَاتِكَ وَمَمَاتِكَ، مُتَمَيِّزًا فِي حُكْمِكَ

وَفُتُوْحَاتِكَ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٠/٢) برقم: [٦٠٢]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: فَضْلُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (٣٦/١) برقم: [٩٥]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (٦١٠/٥) برقم: [٣٦٦٤]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «مَشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ» (١٧٠٩/٣) برقم: [٦٠٥٩].

أَيُّهَا الْفَارُوقُ عُمَرُ، تُسَلِّمُ فَيَكُونُ فِي إِسْلَامِكَ عِزٌّ لِلْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَكَذَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي
«سُنَنِهِ»: «اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ
بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» (١).

وَهَكَذَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانٍ»،
يَقُولُ: «مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ».

وَيَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ مُثْنِيًا وَذَاكِرًا لِفَضَائِلِ عُمَرَ: «إِنَّ إِسْلَامَ عُمَرَ كَانَ
فَتْحًا، وَهَجْرَتَهُ كَانَتْ نَصْرًا، وَإِمَارَتَهُ كَانَتْ رَحْمَةً، وَلَقَدْ كُنَّا لَا نُصَلِّي
عِنْدَ الْكَعْبَةِ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ؛ قَاتَلَ قُرَيْشًا حَتَّى صَلَّى عِنْدَ
الْكَعْبَةِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ».

إِنَّهُ عُمَرُ الَّذِي فِي سِيرَتِهِ قِصَّةٌ وَغُصَّةٌ فِي حُلُوقِ أَعْدَائِهِ، إِنَّهُ عُمَرُ
الَّذِي حِينَما أَسْلَمَ لَمْ يَسْتَحِجِ، وَيَطَأُ طَأْ رَأْسُهُ، وَيَخْتَبِئُ بِدِينِهِ، وَإِنَّمَا حَمَلَ
شِعَارًا عَظِيمًا، وَافْتَخَرَ بِهُوَيْتِهِ الْجَدِيدَةِ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا الشِّعَارُ الَّذِي
يُنْبَغِي أَنْ يَرْفَعَهُ شَبَابُ الْأُمَّةِ، وَمُؤَسَّسَاتُ الْأُمَّةِ، مُسْلِمٌ وَأَفْتَخِرُ لَا غَيْرُهُ
مِنَ الشُّعَارَاتِ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥٠٦/٩) برقم: [٥٦٩٥]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» باب: (في مناقب أبي حفص
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (٦١٧/٥) برقم: [٣٦٨١]، وَحَسَنَهُ الْأَبْنَانِيُّ فِي «التعليقات الحسان على صحيح ابن
حبان» (٢٩/١٠) برقم: [٦٨٤٢].

لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ قَالَ: أَيُّ قُرَيْشٍ أَنْقَلُ لِلْحَدِيثِ؟ قَالُوا: جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ الْجُمَحِيُّ، فَجَاءَهُ عُمَرُ، وَقَالَ: أَعَلِمْتَ يَا جَمِيلُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَدَخَلْتُ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

فَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ جَمِيلٌ يَصِيحُ فِي مَكَّةَ، وَيَأْتِي قُرَيْشًا فِي أُنْدِيَّتِهَا يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَدْ صَبَأَ، وَعُمَرُ خَلْفَهُ يَقُولُ: كَذَبٌ، وَلَكِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَشَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

إِنَّهَا عِزَّةُ الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَخْجَلِ مِنْ إِسْلَامِهِ بَلْ رَدَدَ رَافِعًا صَوْتَهُ: أَنَا مُسْلِمٌ. عُمَرُ الْفَارُوقُ كَانَ حَاضِرًا فِي وَجْدَانِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرَاهُ فِي الْمَنَامِ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، فَلَقَدْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي مَنَامِهِ كَثِيرًا.

جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَمَرَّ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ».

قَالُوا: مَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الدِّين»^(١).

هَذَا دِينُ عُمَرَ بِالنِّسْبَةِ لِتَدِينِ غَيْرِهِ، هَذَا إِيمَانُ عُمَرَ بِالنِّسْبَةِ لِإِيمَانِ غَيْرِهِ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: القَمِيصِ فِي الْمَنَامِ) (٣٥/٩) برقم: [٧٠٠٨]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: مِنْ فَصَائِلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ) (١٨٥٩/٤) برقم: [٢٣٩٠].

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرَّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي - يَعْنِي - عُمَرَ». قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْعِلْمُ» (١).

فَعُمَرُ مُتَمَيِّزٌ فِي إِسْلَامِهِ وَدِينِهِ، فِي مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، فِي عِلْمِهِ، وَانظُرْ إِلَى تَمَيُّزِهِ فِي فُتُوخَاتِهِ، فَكَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ، فَزَعْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَنْزِعَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي فُحَّافَةَ، فَزَعَ ذُنُوبًا أَوْ ذُنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا عُمَرُ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرِ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ حَوْلَهُ بِعَطَنٍ» (٢).

إِنَّهُ عُمَرُ الْفَارُوقُ، الَّذِي قَالَ فِيهِ نَبِيُّنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِيَّاهُ يَأْتِي الْخَطَابُ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ» (٣). هَذَا هُوَ عُمَرُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُقْرَأَ سِيرَتُهُ، وَأَنْ تُعْلَمَ سِيرَتُهُ، وَأَنْ تُتَّخَذَ سِيرَتُهُ مِنْهَجًا وَكِتَابًا وَدَرْسًا يَتَعَلَّمُ مِنْهُ أَبْنَاءُ الْأُمَّةِ.

عِبَادَ اللَّهِ ... جَاءَ فِي «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ»: أَنَّ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْسَلَ عَمْرَوَ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: فضل العلم) (٢٧/١) برقم: [٨٢].

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: في المشيئة والإرادة: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}) (١٣٩/٩) برقم: [٧٤٧٥].

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٤٩/١٦) برقم: [٩٠٨٨].

ابن العاصِ على رأسِ جيشٍ إلى ذاتِ السَّلاسلِ. فرجعَ عمرو بنُ العاصِ
 رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ هَذَا التَّكْلِيفِ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَعْلَهَا فُرْصَةً يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ سُؤَالَ
 لَعَلَّهُ يَفْرَحُ بِهِ. فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ
 قَالَ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». فَقُلْتُ: مِنَ الرَّجَالِ؟ فَقَالَ:
 «أَبُوهَا». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، فَعَدَّ رَجَالًا (١).

هَذِهِ مَكَانَتُهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذِهِ مَكَانَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﷻ، وَمَا ضَرَّ
 عُمَرَ مَا قَالَهُ السُّفَهَاءُ فِي عُمَرَ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ، وَالرَّشَدَ كُلَّ الرَّشَدِ
 فَيَمَنْ اتَّخَذَ مِنْ سِيرَةِ عُمَرَ مَنَهْجًا، وَوَضَعَ قَدَمَيْهِ عَلَى خُطَاهُ مُتَبِعًا.

والحمد لله رب العالمين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»)
 (٥/٥) برقم: [٣٦٦٢]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (١٨٥٦/٤)
 برقم: [٢٣٨٤].

٤٠

قواعد الحساب يوم القيامة

عباد الله ...

مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّفٌ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ **سُبْحَانَ اللَّهِ** لِلْحِسَابِ؛ كَبِيرُنَا
وَصَغِيرُنَا، ذَكَرْنَا وَأُنْثَانَا، الْمُسْلِمُ وَغَيْرُهُ سَيِّفُونَ كُلُّهُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ **سُبْحَانَ اللَّهِ**
لِلْحِسَابِ.

وَقَدْ جَعَلَ الْمَوْلَى **سُبْحَانَ اللَّهِ** لِيَوْمِ الْحِسَابِ قَوَاعِدَ لَا تَبَدُّلَ، وَلَا تَتَّعِيرُ
بِنَاءً عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي يَقِفُ، سَوَاءً كَانَ صَاحِبَ جَاهٍ وَسُلْطَانٍ، أَوْ
كَانَ فَقِيرًا فِي الدُّنْيَا، أَوْ مُهَانًا، صَاحِبَ غِنَى وَثَرْوَةٍ أَوْ صَاحِبَ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ
وَعَوَزٍ، هِيَ قَوَاعِدُ لِلْجَمِيعِ.

عباد الله ... يقول الحق **سُبْحَانَ اللَّهِ**: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ
فَلَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ويقول نبينا **ﷺ**: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ
يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (١).

فَمَا هِيَ هَذِهِ الْقَوَاعِدُ الَّتِي تَكُونُ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ؟

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدُّبَ) (١١٢/٨) برقم: [٦٥٣٩]، وأخرجه
مسلم في «صحيحه» (باب: الْحَثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ) (٧٠٣/٢) برقم:
[١٠١٦]، واللفظ للبخاري.

القاعدة الأولى: العدل التام الذي لا تشوبه أي شائبة.

في يوم الحساب يبرز العدل التام، فمن كانت له حسنة ستأتي وإن كانت في مثاقيل الذر، ومن كانت عليه سيئة، فستأتي وإن كانت أقل من مثاقيل الذر، يقول **سبحان الله**: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ويقول **سبحان الله**: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

ويقول **سبحان الله**: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

انظر إلى هذا الحشد من الآيات الذي يبين فيه المولى **سبحان الله** أن العدل في يوم الحساب هو العلامة البارزة.

وفي الحديث العظيم الذي جاء في «صحيح مسلم» بطوله في الحديث القدسي من حديث أبي ذر **رضي الله عنه** أن الله قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا. يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم».

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،
فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ فَضْرُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي،
فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى
قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجْرٍ
قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ
وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا
كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ
وَجَدَ خَيْرًا، فَلِيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» (١).

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَسَيَجِدُ هَذِهِ الْحَسَنَةَ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَسَيَجِدُ
هَذِهِ السَّيِّئَةَ، وَلَا يَلُومُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

إِذَا، الْقَاعِدَةُ الْأُولَى فِي قَوَاعِدِ الْحِسَابِ فِي يَوْمِ التَّنَادِ: الْعَدْلُ التَّامُّ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: تحريم الظلم) (٤/١٩٩٤) برقم: [٢٥٧٧].

الَّذِي لَا تَشُوبُهُ أَيُّ شَائِبَةٍ.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ أَعْمَالَنا تُعْرَضُ عَلَيْنَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لِلْبَارِّ

بِوَالِدَيْهِ: انظُرْ هَذَا بَرُّكَ.

يُقَالُ لِلْمُرَكِّي: هَذِهِ زَكَاتُكَ.

يُقَالُ لِلْمُصَلِّي: هَذِهِ صَلَاتُكَ.

يُقَالُ لِلْمُحْسِنِ: هَذَا إِحْسَانُكَ.

يُقَالُ لِلْمُفْلِحِينَ: هَذَا فَلَاحُكُمْ.

وَفِي الْمَقَابِلِ يُقَالُ لِلْمُسِيءِ: هَذِهِ إِسَاءَتُكَ، وَهَذَا عُقُوبُكَ لِوَالِدَيْكَ،

أَتَذْكُرُ حِينَما قُلْتَ لِوَالِدَيْكَ: «أَفٌّ»، هَذِهِ الْأَفُّ الَّتِي قُلْتَهَا.

أَتَذْكُرُ حِينَما لَوَّحْتَ وَأَشْحَتَ بِيَدِكَ فِي وَجْهِهَا وَقُلْتَ: رُوحِي عَنِّي،

سَتَجِدُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

حِينَما صَرَخْتَ فِي وَجْهِ وَالِدِكَ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «الْوَالِدُ

أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ» (١).

حِينَما رَفَعْتَ صَوْتَكَ فِي وَجْهِهِ سَتَجِدُ هَذَا الصَّوْتَ الْمَرْتَفِعَ فِي

يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥٠٤/٤٥) برقم: [٢٧٥١١]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: الرَّجُلُ يَأْمُرُهُ أَبُوهُ

بِطَلَّاقِ امْرَأَتِهِ) (٦٧٥/١) برقم: [٢٠٨٩]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ مِنَ الْفَضْلِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ)

برقم: [٣١١/٤].

مَنْ زَنَا سَيَجِدُ زِنَاهُ.

مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ سَيَجِدُ شُرْبَهُ لِلْخَمْرِ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ.

السُّرَّاقُ سَيَجِدُونَ سَرِقَتَهُمْ.

الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعِبَادَ سَيَجِدُونَ ظُلْمَهُمْ.

الَّذِي يُغْلِقُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ وَيَعْتَابُ النَّاسَ سَيَجِدُ غَيْبَتَهُ.

الَّذِي يَتَحَرَّكُ مِنْ تَحْتِ الطَّائِلَةِ فَيُفْسِدُ عَلاَقَاتِ الْأَزْوَاجِ فِيمَا بَيْنَهُمْ

سَيَجِدُ هَذَا التَّخْرِيبَ.

القَاعِدَةُ الثَّلَاثَةُ : إِطْلَاعُ الْعِبَادِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ

تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

[آل عمران: ٣٠]. آيَةٌ عَظِيمَةٌ يَقُولُ فِيهَا الْحَقُّ ﷻ: ﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ

طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ اِقْرَأْ كِتَابَكَ

كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مِنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٣-١٥].

طَائِرُهُ يَعْنِي عَمَلَهُ الصَّالِحِ، وَعَمَلَهُ الطَّالِحِ، بَعْضُ النَّاسِ إِذَا أَرَادَ أَنْ

يَتَكَلَّمَ بِالسُّوءِ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ يَلْتَفِتُ لِيَرَىٰ هَلْ يَسْمَعُهُ مِنْ أَحَدٍ، نَقُولُ:

اللَّهُ يَسْمَعُكَ، وَتَسْجِدُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

بَلْ يَقُولُ الْحَقُّ ﷺ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ *
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ﴾ [التكوير: ١٢-١٤].

وَيَقُولُ فِي سُورَةِ الْانْفِطَارِ: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا
قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

هَذِهِ قَوَاعِدُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

القاعدة الرابعة: الشهود في يوم الحساب:

يَبْرُزُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْمُجَادِلُ، وَيَبْرُزُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْمَرَاوِعُ، وَيَبْرُزُ هَذَا
الْإِنْسَانُ الْكَذَّابُ يَقُولُ: أَنَا مَا فَعَلْتُ، وَيُجَادِلُ وَيِرَاوِعُ.

فَيَقِيمُ اللَّهُ عَلَيْهِ الشُّهُودَ، فَيَأْتِي الشُّهُودُ يَشْهَدُونَ عَلَى مَا قَدَّمَ، فَلَا
يَنْفَعُ بَعْدَ ذَلِكَ مُرَاوَعَةٌ، وَلَا مُجَادَلَةٌ، وَلَا كَذِبٌ، وَلَا مُخَادَعَةٌ؛ لِأَنَّ الشَّاهِدَ
الْأَوَّلَ اللَّهُ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

ثُمَّ يَشْهَدُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، ثُمَّ يَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرِيمَاتُ الْكَاتِبُونَ،
ثُمَّ تَشْهَدُ الْأَرْكَانُ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ
قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا
يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

يَشْهَدُ اللَّهُ ﷻ، ثُمَّ تَشْهَدُ الرُّسُلُ، وَمِنْهُمْ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ فِي

سُورَةَ النِّسَاءِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ * يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿[النساء: ٤٢].

وَمَعَ ذَلِكَ تَبْلُغُ هَذِهِ الْمُجَادَلَةَ بِالْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ، لَا أَرْضِي بِشَاهِدٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، كَمَا جَاءَ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» لِلْحَاكِمِ وَعِنْدَ غَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يَوْمٍ، أَوْ تَبَسَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تَسْأَلُونِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتُ؟».

فَقَالَ: «عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تَظْلِمَنِي؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ عَلَيَّ شَهَادَةَ شَاهِدٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ: أَوْ لَيْسَ كَفَىٰ بِي شَهِيدًا، وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ قَالَ: فَيَرُدُّ هَذَا الْكَلَامَ مَرَّاتٍ. فَيُخْتَمُ عَلَيْهِ فِيهِ، وَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ. فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُمْ وَسُحْقًا، عَنْكُمْ كُنْتُمْ أَجَادِلُ» (١).

عباد الله ... إن الإنسان قد يبلغ من الدهاء أنه لا يظهر سيئته لأحد أبداً، تبقى الأركان معه ستشهد يوم القيامة، وهذا ما جاء في كتاب الله في سُورَةِ فَصَّلَتْ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ * حتى إذا

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٦٤٤/٤) برقم: [٨٧٧٨]، وقال: رجاله علی شرط مسلم، ولم یخرجاه.

مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 * وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
 وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ
 عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ
 كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
 مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ
 الْمُعْتَبِينَ ﴿ [فصلت: ١٩-٢٤].

عباد الله... وَمِنْ قَوَاعِدِ الْحِسَابِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ: مُضَاعَفَةُ الْحَسَنَاتِ
 دُونَ السَّيِّئَاتِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ عَلَيْنَا، أَنَّ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَسَيَجِدُ
 هَذِهِ الْحَسَنَةَ مُضَاعَفَةً عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ، وَالسَّيِّئَةُ تَأْتِي سَيِّئَةً، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ
 قَوْلُ الْحَقِّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ
 جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ
 يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وَمِمَّا يُثَلِّجُ الصُّدُورَ، وَيَفْتَحُ بَابَ التَّوْبَةِ وَاسِعًا لِلْعَصَاةِ مِنْ أَمْثَالِنَا أَنْ
 يُسَارِعُوا بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ: أَنَّ اللَّهَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِ التَّائِبِينَ إِلَى

حَسَنَاتٍ .

أَرَأَيْتُمْ هَذِهِ السَّيِّئَاتِ الْكَثِيرَةَ إِذَا تَابَ الْعَبْدُ؛ بَدَّلَهَا اللَّهُ **سُبْحَانَ اللَّهِ** لَهُ حَسَنَاتٍ، نَعَمَ سَيِّئَاتٌ كَالْجِبَالِ إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحًا، بَدَّلَ اللَّهُ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ إِلَى حَسَنَاتٍ، يَقُولُ الْحَقُّ **سُبْحَانَ اللَّهِ** : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:

.[٧٠-٦٨]

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٤١

كيف تتصرف إذا ظلمت

عبد الله ...

إِذَا وَقَعَ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنَ الْآخِرِ؛ بَعِيدٌ هَذَا الْآخِرُ أَوْ قَرِيبٌ، عَدُوٌّ أَوْ حَبِيبٌ، كَيْفَ تَتَصَرَّفُ إِذَا وَقَعَ عَلَيْكَ الظُّلْمُ؛ سَوَاءً كُنْتَ رَجُلًا صَالِحًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، مُتَدَيِّنًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، كَيْفَ تَتَصَرَّفُ إِذَا ظَلِمْتَ؟

وَبَيْنَ يَدَيَّ هَذِهِ الْإِجَابَةُ أَذْكَرُكُمْ وَنَفْسِي بِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ الَّذِي جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمُ أَبَا مَسْعُودٍ، لِلَّهِ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفْتُ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ حُرٌّ لِرُؤُوسِهِ اللَّهُ، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لِلْفَحْتِكَ النَّارُ»، أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ»^(١).

وَبِمَا جَاءَ فِي «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يَكْتُبُ إِلَى عُمَّالِهِ (أَي: أَمْرَاءِ الْأَمْصَارِ)، يَكْتُبُ لَهُمْ دَائِمًا هَذِهِ الْعِبَارَةَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِذَا دَعَتِكَ قُدْرَتُكَ عَلَى النَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَادْكُرْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ».

نعم ... كَيْفَ تَتَصَرَّفُ إِذَا ظَلِمْتَ: أَجْعَلْ هَذِهِ الْإِجَابَةَ فِي أَرْبَعَةِ

نِقَاطٍ:

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: صُحْبَةِ الْمَمَالِكِ، وَكَفَّارَةَ مَنْ لَطَمَ عَبْدَهُ) (١٢٨١/٣) برقم: [١٦٥٩].

التَّصَرَّفُ الْأَوَّلُ: إِذَا وَقَعَ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنَ الْآخِرِ؛ فَتَذَكَّرِ الْآيَاتِ
الْمَتْلُوءَةَ، وَتَذَكَّرِ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْغُلُ عَنِ
الظَّالِمِينَ، فَإِذَا أَمَّهَلَهُمْ، فَإِنَّهُ لَا يُهْمِلُهُمْ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ سَلْوَى وَسَكِينَةَ
تَنْزِلَ عَلَى قَلْبِكَ أَيُّهَا الْمَظْلُومُ!

تَذَكَّرِ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا انْتِقَامُ اللَّهِ مِنَ الظَّالِمَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَقْتَصُّ لَكَ
مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ غَيْرِ هَذَا الْيَوْمِ، سَتَجِدُ رَاحَةً تَأْتِي عَلَى قَلْبِكَ.

يَقُولُ الْحَقُّ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا
يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ
الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ وَقَدْ
مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ
غَيْرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ *
لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ

كيف تتصرف إذا ظلمت

﴿٤١٥﴾

وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٤١٥﴾ [إبراهيم:

٤٢-٥٢]. آيَاتٌ عَظِيمَةٌ تَنْزَلُ عَلَى قَلْبِ الْمَظْلُومِ، فَيُنْجِلِي هَمَّهُ وَحُزْنَهُ؛

لَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَقُولُ لَهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

إِلَى مَتَى يَا رَبِّ؟ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ.

وَهَكَذَا يَأْتِي فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى أَنَّ النَّبِيَّ

ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

[هود: ١٠٢] «(١)».

إِذَا، التَّصَرَّفُ الْأَوَّلُ إِذَا وَقَعَ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ غَيْرِكَ، تَذَكَّرْ هَذِهِ

الآيَاتِ، وَاللَّهُ سَتَجِدُ فِي نَفْسِكَ سُرُورًا وَأَنْتَ تَعِيشُ هَذِهِ الْآيَاتِ.

ضَعْ هَذَا الْحَدِيثَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ

لَمْ يُفْلِتْهُ».

التَّصَرَّفُ الثَّانِي: إِذَا وَقَعَ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنَ الْآخِرِينَ، فَتَذَكَّرِ أَنْتَ مَنْ

ظَلَمْتَ، إِذَا وَجَدْتَ حَرَارَةَ ظُلْمِ الْآخِرِينَ فِي فُؤَادِكَ فَتَذَكَّرِ حَرَارَةَ ظُلْمِكَ

فِي فُؤَادِ الْآخِرِينَ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: قَوْلِهِ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢]) (٧٤/٦) برقم: [٤٦٨٦]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: تَحْرِيمُ الظُّلْمِ) (١٩٩٧/٤) برقم: [٢٥٨٣].

يَأْتِي وَاحِدٌ وَيَقُولُ: رَيْسِي فِي الْعَمَلِ مُتَسَلِّطٌ عَلَيَّ يُؤْذِينِي، نَقُولُ لَهُ:
تَذَكَّرَ تَسَلُّطَكَ وَظُلْمَكَ عَلَيَّ زَوْجَتِكَ فِي الْبَيْتِ؛ نَقُولُ: إِذَا كُنْتَ تَشْتَكِي
مِنْ ظُلْمِ الْمَسْئُولِ فِي الْعَمَلِ؛ تَذَكَّرْ مَنْ ظَلَمْتَ أَنْتَ.

إِذَا كُنْتَ تَشْتَكِي مِنْ ظُلْمِ تَأَخَّرِ مُعَامَلَتِكَ فِي إِحْدَى الدَّوَائِرِ؛ فَتَذَكَّرْ
أَنْتَ هَؤُلَاءِ الْمَرَاغِبِينَ الَّذِينَ تَتَلَاعَبُ بِهِمْ فِي دَائِرَتِكَ.

تَشْتَكِي مِنْ ظُلْمِ الْآخِرِينَ تَذَكَّرْ أَنْتَ مَنْ ظَلَمْتَ، هِيَ رِسَالَةٌ. وَلَا
أَقُولُ: تَذَكَّرْ فَقَطْ، بَلْ تَذَكَّرْ مَنْ ظَلَمْتَ، وَتَحَلَّلْ مِنْهُ الْيَوْمَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
يَقُولُ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ
وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ
أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ» (١).

فَهَذِهِ رِسَالَةٌ مُهِمَّةٌ، إِذَا وَقَعَ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنَ الْآخِرِينَ، أَرْجُوكَ أَنْ
تَفْتَحَ ذَاكِرَتَكَ، وَتَذَكَّرَ أَنْتَ مَنْ ظَلَمْتَ.

كَيْفَ تَتَصَرَّفُ إِذَا ظَلَمْتَ؟

اصْبِرْ، وَلَكِنْ صَبْرًا تَحْتَسِبُ فِيهِ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ. اصْبِرْ مُحْتَسِبًا الْأَجْرَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْهَمَّ وَالْحُزْنَ الَّذِي يَعْتَرِيكَ، لَقَدْ قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ
ﷺ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ، وَلَا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: القصاص يوم القيامة) (١١١/٨) برقم: [٦٥٣٤].

وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنَ، وَلَا أَذَى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا
كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(١)، فَاحْتَسِبِ الْأَجْرَ.

اِحْتَوَى هَذَا الْحَدِيثُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُصِيبُكَ، نَصَبٌ وَوَصَبٌ،
وَهُمْ وَحُزْنٌ وَأَذَى وَغَمٌّ، ثُمَّ فَتَحَ الْبَابَ «حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». اِحْتَسِبِ الْأَجْرَ وَقُلْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

كَيْفَ تَتَصَرَّفُ إِذَا ظَلِمْتَ؟

اطْرُقْ بَابَ السَّمَاءِ بِالِدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَكَ أَيُّهَا الْمَظْلُومُ دَعْوَةً
مُسْتَجَابَةً، إِمَّا أَنْ تَدْعُو عَلَى مَنْ ظَلَمَكَ، أَوْ تَدْعُو لِمَنْ ظَلَمَكَ، أَوْ تَكْتَفِي
بِالدُّعَاءِ أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْمَظْلَمَةَ.

يَذْهَبُ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَيُوصِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ
الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ
لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(٢).

أَيُّهَا الْمَظْلُومُ هَلْ تَعْلَمُ بِأَنَّكَ تَمْتَلِكُ سِلَاحًا خَطِيرًا ، تَسْتَطِيعُ أَنْ
تُدْمِرَ بِهِ مَنْ ظَلَمَكَ، أَوْ أَنْ تُصْلِحَ مَنْ ظَلَمَكَ، أَوْ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ أَنْ تَرْفَعَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ الْمَرِيضِ) (١١٤/٧) برقم: [٥٦٤١]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: ثَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرِيضٍ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا) (١٩٩٢/٤) برقم: [٢٥٧٢]، واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الْإِنْتِقَاءِ وَالْحَذَرِ مِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ) (١٢٩/٣) برقم: [٢٤٤٨]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الدُّعَاءُ إِلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَشُرَائِعِ الْإِسْلَامِ) (٥٠/١) برقم: [١٩].

الْمَظْلَمَةَ عَنكَ، اسْتِخْدِمَهُ قُلْ: يَا اللَّهُ، لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ، «فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ».

الْحَدِيثُ الْآخَرُ: كَمَا جَاءَ فِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ» يَقُولُ ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لِهِنَّ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لَوَلَدِهِ»^(١).

الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ: جَاءَ فِي «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ ﷺ: «وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي، لَا نُصْرَتَكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(٢). سَيَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَكَ، الْآنَ أَوْ بَعْدَ شَهْرٍ، أَوْ بَعْدَ سَنَوَاتٍ، وَاللَّهُ لَتُصِيبَنَّ مَنْ ظَلَمَكَ «وَعِزَّتِي لَا نُصْرَتَكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

الْحَدِيثُ الرَّابِعُ: جَاءَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ ﷺ: «اتَّقُوا دَعَوَاتِ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارٌ»^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: دَعْوَةُ الْوَالِدِ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ) (١٢٧٠/٢) برقم: [٣٨٦٢]، وأخرجه أبو داود في «سننه» (باب: الدُّعَاءُ بِظَهْرِ الْعَيْبِ) (٨٩/٢) برقم: [١٥٣٦]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِي دَعْوَةِ الْوَالِدَيْنِ) (٣١٤/٤) برقم: [١٩٠٥]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٨٢/١) برقم: [٣٠٢٩].

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: فِي الصَّائِمِ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُ) (٥٥٧/١) برقم: [١٧٥٢]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا) (٦٧٢/٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ» (٦٩٥/٢) برقم: [٢٢٤٩].

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک على الصحيحين» (٨٣/١) برقم: [٨١]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (٥٢٨/٢) برقم: [٨٧١].

وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ

نَامَتْ عِيُونُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ

حَدِيثٌ خَامِسٌ: جَاءَ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَعْوَةُ

الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ» (١).

أَيُّ: لَا تَسْمَحْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَظْلِمَ فَاجِرًا أَوْ كَافِرًا، فَدَعْوَتُهُ مُسْتَجَابَةٌ،
وَأَنْتَ إِذَا رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ تَقْصِيرًا فِي الطَّاعَةِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا ظَلِمْتَ؛
دَعْوَتُكَ أَيْضًا مُسْتَجَابَةٌ، لَا تَتَصَوَّرْ أَنَّ الَّذِي تُسْتَجَابُ دَعْوَتُهُ هُمُ الصَّالِحُونَ
فَقَطُّ، لَا، فَالْمَظْلُومُ يُسْتَنْبِئُ مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا، أَوْ كَافِرًا، أَوْ مُقْصِرًا،
فَدَعْوَتُهُ مُسْتَجَابَةٌ.

وَبِالتَّالِي إِذَا كَانَ الكَافِرُ وَالفَاجِرُ وَالعَاصِي الْمَظْلُومُ دَعْوَتُهُ مُسْتَجَابَةٌ؛
فَكَيْفَ بِالتَّقِيِّ الصَّالِحِ الْوَلِيِّ! لَا بُدَّ أَنْ نَحْذَرَ هَؤُلَاءِ، أَحْذَرَ أَنْ تَكُونَ ظَالِمًا
لِتَقِيٍّ، أَوْ صَالِحٍ، أَوْ وَلِيِّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.

عباد الله ... هذا أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ رَجُلٌ صَالِحٌ عَابِدٌ زَاهِدٌ،
كَانَتْ لَهُ عَادَةٌ إِذَا خَرَجَ مِنْ مَسْجِدِهِ إِلَى الْبَيْتِ وَوَصَلَ إِلَى بَابِ الْبَيْتِ
كَبَّرَ، فَكَبَّرَتْ امْرَأَتُهُ فِي الْبَيْتِ، فَإِذَا اسْتَوَى فِي صَحْنِ الْمَرْأَةِ، كَبَّرَ فَكَبَّرَتْ

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩٨/١٤) برقم: [٨٧٩٥]، وأخرجه الطبراني في «الدعاء» (٣٩٣/١) برقم: [١٣١٨]،

وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٧/١) برقم: [٣٣٧٧].

المرأة، فإذا وصل إلى داره كبر فكبرت المرأة، ثم تأخذ رداءه ونعله، ثم توقد سراجاً وتضع له الطعام، وكانت هكذا حياتها.

في يوم من الأيام جاءت لامرأته امرأة سوء، وقالت: أبو مسلم قريب من معاوية، ويجلس عنده، لو طلب خادمًا له يخدمكم، لو طلب وظيفة مرموقة له، لو طلب أن يحسن وضعكم المادي، بدأت ترن في رأس هذه المرأة.

فجاء أبو مسلم الخولاني على عادته فكبر، فما كبرت المرأة، وفعل ذلك في صحن الدار، وعند باب الغرفة فما جاءت المرأة، وما أخذت رداءه، وما جهزت طعامه، وما أوقدت السراج، فأدرك أبو مسلم الخولاني أن هناك من أفسد عليه امرأته، أتدرون ماذا صنع؟

ما تكلم، وما حقق، ولا اتهم، ولا سخط، فاتجه إلى القبلة، فقال كلمات يسيرة: «اللهم من أفسد علي امرأتي فأعم بصره»، لم يحدد الدعوة لفلان أو فلانة، هكذا الأولياء.

فإذا بالمرأة في بيتها تنكر بصرها، قالت: أطفأتم السراج؟ قالوا: سراجنا مشتعل، فأدركت المرأة ذنبها، فجاءت إلى أبي مسلم الخولاني لتحلله، وتقول: ظلمتكم يا أبا مسلم، فادع الله أن يرده علي بصري. قال: اللهم رد عليها بصرها؛ فرد الله عليها بصرها.

فإذا كان الفاجر والكافر دعوته مستجابةً عندما يظلم، فدعوة الولي

التَّقِيّ الصَّالِحِ الْمُؤْمِنِ لَا شَكَّ أَنَّهَا مُسْتَجَابَةٌ.
فَالْحَذَارَ الْحَذَارَ أَنْ نَقَعَ فِي ظُلْمِ الْآخِرِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٤٢

كيف نهمر آخرتنا

عباد الله ...

قال الفاروق عمر رضي الله عنه: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ، يَعْنِي عَلَى سَرِيرٍ مَنْسُوجٍ مِنْ حِبَالٍ وَسَعْفٍ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَرَ الرِّمَالُ فِي جَنْبِهِ - أَوْ: بِجَنْبِهِ - مُتَّكِيٌّ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ، حَشْوُهَا لَيْفٌ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعْتُ بَصْرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يُرَدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهْبَةِ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَيَّ أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطُوا الدُّنْيَا، وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَانَ مُتَّكِيًّا، فَقَالَ: «أَوْفِي شَكِّ أَنْتَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ؟! أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (١).

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عِنْدَ الْبُخَارِيِّ يَقُولُ صلى الله عليه وسلم: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَلَنَا الْآخِرَةُ» (٢).

وها هو سليمان بن عبد الملك رحمه الله خرج حاجًا إلى بيت الله، فيخطر على باله سؤال، يبحث عن إجابة له، فيقول لمن معه: انظروا هل بقي أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لعله يجد جوابًا لسؤاله عنده. فيقولون: لا، ماتوا كلهم. فيقول: انظروا هل بقي أحد ممن رأى أصحاب النبي

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: العُرْفَةُ وَالْعُلْيَةُ الْمَشْرِفَةُ وَغَيْرُ الْمَشْرِفَةِ فِي السُّطُوحِ وَغَيْرِهَا) (١٣٣/٣) برقم: [٢٤٦٨].

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: {تَبْتَعِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ}) (١٥٦/٦) برقم: [٤٩١٣].

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: عَلَيَّ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ. فَيَأْتِيهِ التَّابِعِيُّ أَبُو حَازِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ، فَيَجْلِسُهُ بِجِوَارِهِ، وَيُوجِّهُ لَهُ هَذَا السُّؤَالَ الَّذِي أَشْغَلَهُ، قَالَ: يَا أَبَا حَازِمٍ، مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَنُحِبُّ الْحَيَاةَ؟ فَإِذَا بِأَبِي حَازِمٍ لَا يَتَرَدَّدُ فِي الْجَوَابِ، وَلَا يُجَامِلُ عَلَيَّ حِسَابِ الدِّينِ، فَيَقُولُ: يَا سُلَيْمَانَ؛ لِأَنَّكُمْ عَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ، وَخَرَبْتُمْ أُخْرَاكُمْ، فَتَكْرَهُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعَمَارِ إِلَى الْخَرَابِ، عَمَّرْتُمُ الدُّنْيَا وَخَرَبْتُمُ الْآخِرَةَ، فَتَكْرَهُ الْمَوْتَ؛ لِئَلَّا تَنْتَقِلَ مِنَ الْعَمَارِ إِلَى ذَلِكَ الْخَرَابِ.

عباد الله ...

كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى عِمَارَةِ الْآخِرَةِ؟

كَيْفَ تُعَمِّرُ لَكَ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ؟

كَيْفَ تَبْنِي لَكَ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ؟

كَيْفَ تُكثِرُ الْبُيُوتَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ؟

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ لَنَا وَسَائِلَ عَدِيدَةً يَسْتَطِيعُهَا الْفَقِيرُ وَالْغَنِيُّ عَلَيَّ

حَدِّ سَوَاءٍ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالذَّكَرُ وَالْأُنْثَى.

عباد الله... إذا عجز أحدنا عن بناء بيت في الدنيا فلا يعجز أن يبني

له بيتاً في الآخرة بل بيوتاً وقصوراً كثيرة

الوسيلة الأولى: بناء المساجد:

الإِنْسَانُ إِذَا بَنَى مَسْجِدًا فِي الدُّنْيَا بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ.

جاء في سنن ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان أن النبي ﷺ

قال: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَتَّعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ» (١)،

وجاء عند أحمد في «مسنده» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ

قال: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ لِيُضِيهَا، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي

الْجَنَّةِ» (٢).

فلو ساهمت أنت وأحد أحبائك، ليس بالضرورة أن تبني مسجداً

بمائة ألف دينار، أو بمائتي ألف دينار، هناك في بلاد الدنيا من يبني فيها

المسجد بالألف والألفي دينار تشترك مع زملائك وتبني لك مسجداً،

فلا تفوت على نفسك هذه الوسيلة.

فإن لم تستطع فانظر لمسجد يبني في حيك ومنطقتك، وساهم فيه

بكيس أسمنت، بلبنة واحدة، لا تفوت على نفسك هذه الوسيلة، لا يمر

عليك عام إلا وتبني أو تساهم فيه ببناء مسجداً واجعل نيتك خالصة لله

عز وجل.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: مَنْ بَنَى مَسْجِدًا) (٩٧/١) برقم: [٤٥٠]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فَضْلُ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ) (٢٢٨٧/٤)، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٤/٤) برقم: [٢١٥٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٥٦/٢) برقم: [٦١٢٧]، واللفظ لأحمد.

الْوَسِيلَةُ الثَّانِيَةُ: المشي إلى المساجد لصلاة الجماعة، فكلما ذهبت إلى المسجد ورجعت أعد الله لك منزلاً وضيافة في الجنة، ففي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة يقول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»^(١).

وَالنُّزْلُ هُوَ ذَاكَ الْمَكَانُ الَّذِي يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لِضَيْفِهِ مِنَ الْكِرَامَةِ «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ».

الْوَسِيلَةُ الثَّلَاثَةُ: ثِنْتَا عَشْرَةَ رَكْعَةً تُصَلِّيهَا كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتُحَافِظُ عَلَيْهَا، يُبْنَى لَكَ بِهَا بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ، يَقُولُ صلى الله عليه وسلم فِي حَدِيثِ أُمِّ حَبِيبَةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ، يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتِي عَشْرَةَ رَكْعَةً، بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ: أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ»^(٢).

الْوَسِيلَةُ الرَّابِعَةُ: صلاة الضحى، فقد جاء في حديث أبي موسى عند الطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى أَرْبَعًا، وَقَبِلَ الْأَوْلَى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: فَضْلُ مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَمَنْ رَاحَ) (١٣٣/١) برقم: [٦٦٢]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الْمَشْيُ إِلَى الصَّلَاةِ تُمَحَّى بِهِ الْأَخْطَايَا، وَتُرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتُ) (٤٦٣/١) برقم: [٦٦٩]، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِيمَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتِي عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنَ السُّنَّةِ، مَا لَهُ فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ) (٢٧٤/٢) برقم: [٤١٥]، أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (باب: ذِكْرُ الْإِخْتِلَافِ عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ فِيهِ) (١٨٨/٢) برقم: [١٤٨٨]، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٦٥/١) برقم: [١١٥٩]، واللفظ للترمذي.

أَرْبَعًا، بُنِيَ لَهُ بِهَا بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ» (١).

وَالأُولَى هِيَ صَلَاةُ الظُّهْرِ، وَهَذَا خَيْرٌ عَظِيمٌ، وَفَضْلٌ عَمِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ.
 الوَسِيلَةُ الحَامِسَةُ: سَدُّ الفِرْجِ التي في صفوف المصلين ، لما جاء
 في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «مَنْ سَدَّ فُرْجَةً فِي
 صَفٍّ، رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» (٢).

هَذِهِ الخُطْوَةُ الَّتِي تَتَقَدَّمُ بِهَا مِنَ الصَّفِّ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ إِلَى الصَّفِّ
 الَّذِي أَمَامَكَ، تَسُدُّ بِهَا فُرْجَةً ؛ ترفع بِهَا دَرَجَةً، وَيُنَى لَكَ بِهَا بَيْتٌ فِي
 الْجَنَّةِ؟

وعند الطَّبْرَانِيِّ، وَهُوَ فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» عِنْدَ الأَلْبَانِيِّ قَالَ
 نَبِينَا ﷺ: «مَا مِنْ خُطْوَةٍ أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ خُطْوَةِ مَشَاهَا رَجُلٌ إِلَى فُرْجَةٍ فِي
 صَفٍّ فَسَدَّهَا» (٣).

الْوَسِيلَةُ السَّادِسَةُ: حُسْنُ الخُلُقِ يُبْنَى لَكَ بِهِ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ:
 يَقُولُ أَبُو أَمَامَةَ كَمَا جَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ يَقُولُ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي

(١) أخرجه الطبراني في «العجم الأوسط» (٨٨/٥) برقم: [٤٧٥٣]، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٦١/٥) برقم: [٢٣٤٩]، واللفظ للطبراني.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١/٦) برقم: [٥٧٩٧]، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٣/٦)، واللفظ للطبراني.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٤٦/٥) برقم: [٥٢١٧]، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٤/٦) برقم: [٢٥٣٣]، واللفظ للطبراني.

رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» (١).

أَنَا زَعِيمٌ (أَي: ضَامِنٌ)، لَا يُحِبُّ الْجِدَالَ، وَيَكْرَهُ الْمِرَاءَ، الْحَقُّ مَعَهُ
أَوْ مَعَ غَيْرِهِ، مَا يُجَادِلُ، «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ
وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا
وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ» (٢)، أُجُورٌ عَظِيمَةٌ.

الْوَسِيلَةُ السَّابِعَةُ: الصبر على فقد الأحبة، يَقُولُ نَبِينَا ﷺ فِي حَدِيثِ
أَبِي مُوسَى عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ
وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمْرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ.
فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرَجَعَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا
لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ» (٣).

الْوَسِيلَةُ الثَّامِنَةُ: عيادة المرضى وزيارة الأحبة في الله، فَإِذَا زَارَ الْأَخَ
أَخَاهُ فِي اللَّهِ أَوْ عَادَ مَرِيضًا؛ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ يَقُولُ
ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: أَنْ طُبْتَ وَطَابَ

(١) أخرجه أبي داود في «سننه» (باب: فِي حُسْنِ الْخُلُقِ) (٢٥٣/٤) برقم: [٤٨٠٠]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٩/١) برقم: [٨٧٨]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (٥٥٢/١) برقم: [٢٧٣]، وَاللَّفْظُ لِأَبِي دَاوُدَ.

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: فِي حُسْنِ الْخُلُقِ) (٢٥٣/٤) برقم: [٤٨٠٠]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٩/١) برقم: [٨٧٨]، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (٥٥٢/١) برقم: [٢٧٣]، وَاللَّفْظُ لِأَبِي دَاوُدَ.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٠١/٣٢)، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: فَضْلُ الْمُصِيبَةِ إِذَا اخْتَسَبَ) (٣٣٢/٣) برقم: [١٠٢١]، وَضَعَفَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ» (٥٤٤/١) برقم: [١٧٣٦]، وَاللَّفْظُ لِلتِّرْمِذِيِّ.

مَمَّشَاكَ، وَتَبَوَّأَتْ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا» (١).

يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ لِيُزَوِّرَهُ، لَا لِحَاجَةٍ، يُزَوِّرُهُ لِلَّهِ، مَا يُزَوِّرُهُ لِحَاجَةٍ أُخْرَى.
وَبِالنِّسْبَةِ لِلْمَرِيضِ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَعُودَهُ فِي الْمُسْتَشْفَى، قَدْ
يَعُودُهُ فِي الْبَيْتِ، أَوْ فِي الْمَكْتَبِ.

الْوَسِيلَةُ التَّاسِعَةُ: دعاء دخول السوق ، فَإِذَا دَخَلْتَ السُّوقَ، فَكَرَّرْ
دُعَاءَ السُّوقِ، اكْتُبْهُ وَعَلِّقْهُ فِي سَيَّارَتِكَ، أَوْ قَمِ بِتَوَزِعِهِ عَلَى الْمَحَلَّاتِ
فِي الْأَسْوَاقِ، يَقُولُ نَبِيْنَا ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: «مَنْ دَخَلَ
السُّوقَ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ،
يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،
كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ
أَلْفِ دَرَجَةٍ» (٢).

الْوَسِيلَةُ الْعَاشِرَةُ: قراءة سورة الإخلاص، أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»
مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ:

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٢/١٤) برقم: [٨٣٢٥]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِي زِيَارَةِ الْإِخْوَانِ) (٣٦٥/٤) برقم: [٢٠٠٨]، وَصَّغَفَهُ الْأَبْنَائِيُّ فِي «مَشْكَاتِ الْمَصَابِيحِ» (٤٩٥/١) برقم: [١٥٧٥]، وَاللَّفْظُ لِلتِّرْمِذِيِّ.
(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (باب: مَا يَقُولُ إِذَا دَخَلَ السُّوقَ) (١٧٦٢/٣) برقم: [٢٧٣٤]، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِ» (باب: مَا يَقُولُ إِذَا دَخَلَ السُّوقَ) (٤٩١/٥) برقم: [٣٤٢٨]، وَحَسَّنَهُ الْأَبْنَائِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (١٠٧٠/٢) برقم: [٦٢٢٧]، وَاللَّفْظُ لِلتِّرْمِذِيِّ.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ» (١).
كَانَ عُمَرُ جَالِسًا يَسْمَعُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِذَا،
نَسْتَكْثِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ
وَأَطْيَبُ» (٢).

تُكْثِرُ، يُعْطِيكَ اللَّهُ أَكْثَرَ.

هَذِهِ وَسَائِلُ عَشْرِ نَعْمٍ بِهَا أُخْرَانَا، فَإِذَا عَمَّرْتَ الْآخِرَةَ طَابَتِ الدُّنْيَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧٦/٢٤) برقم: [١٥٦١٠]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٣/٢٠)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٦/٢) برقم: [٥٨٩]، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧٦/٢٤) برقم: [١٥٦١٠]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٣/٢٠)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٦/٢) برقم: [٥٨٩]، واللفظ لأحمد.

٤٣

كيف نواجه مشكلات الحياة

عباد الله ...

مَنْ عَاشَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ وَجَدَ مِنْ لَأْوَائِهَا وَحَرِّهَا وَشِدَّتِهَا، وَمِنْ نَارِهَا وَسَمُومِهَا وَضَرِّهَا، وَعَانَى الكَبَدَ وَالْمَصَائِبَ فِيهَا وَلَا شَكَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْنَا عَبَثًا، وَإِنَّمَا جَعَلَنَا مُسْلِمِينَ وَلَا أَمْرَهُ مُسْتَسْلِمِينَ، فَإِذَا أَصَابَ الْوَاحِدَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَصَائِبِ وَاللَّأْوَاءِ وَالْجَهْلِ وَمَا يُؤْلِمُ فُؤَادَهُ، وَيُزْعِجُ مِرَاجَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ لَهُ أُسُوةً فِي الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالصَّالِحِينَ .

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا
جُبِلَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
لَيْسَ الزَّمَانُ وَإِنْ حَرِصْتَ مُسَالِمًا
خُلِقَ الزَّمَانُ عِدَاوَةً الْأَحْرَارِ
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ
حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

سَيِّئَتِكَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مَا يُؤْلِمُكَ وَيُزْعِجُكَ..

فِي الْبَيْتِ قَدْ تَجِدُ الزَّوْجَةَ الْمُؤْذِيَةَ، أَوْ تَجِدُ الْمَرْأَةَ الزَّوْجَ الْمُؤْذِي.

وَقَدْ تَجِدُ مَا يَسُوؤُكَ مِنْ أَبْنَائِكَ.

أَوْ قَدْ تَجِدُ مَا يَسُوؤُكَ مِنْ آبَائِكَ.

وَيَأْتِيكَ السُّوءُ رُبَّمَا مِنْ جَارِكَ، أَوْ انْتَقَلَ مِنْكَ إِلَى جَارِكَ.
 قَدْ يَأْتِيكَ السُّوءُ مِنْ إِنْسَانٍ لَا يَفْهَمُ مَا تَقُولُ، وَيَسِيءُ الظَّنَّ بِكَ عَلَى
 الدوام .

قَدْ يَأْتِيكَ السُّوءُ مِنْ عَدُوِّكَ فَتُصْبِحُ فِي لَأْوَاءٍ، وَتُمْسِي فِي جَهْدٍ وَبَلَاءٍ.
 فَكَيْفَ تَتَصَرَّفُ أَمَامَ هَذَا الْكَمِّ الْهَائِلِ مِنَ الْأَذَى؟
 اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَضَعَ لَنَا مَنَهْجًا، وَكَوَّنَا مُسْلِمِينَ فَلَا بُدَّ أَنْ نَسْتَسَلِمَ لِهَذَا
 الْمَنَهْجِ الْمُبَارَكِ.

لِذَا، تَأْتِي هَذِهِ الْخُطْبَةُ: كَيْفَ تُوَاجِهُ مُشْكَلاتِ الْحَيَاةِ؟
 عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ الْآنَ قَدْ تُوَاجِهُكَ مُشْكَلةٌ، فَتَذَكَّرُ هَذِهِ الْأَسْبَابَ
 وَالَّتِي هِيَ عِلَاجٌ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَشْكَلاتِ أَيَّا كَانَتْ هَذِهِ الْمُصِيبَةُ كَبِيرَةً أَوْ
 صَغِيرَةً، مِنْ قَرِيبٍ أَوْ مِنْ بَعِيدٍ، أَوْ مِنْ حَبِيبٍ أَوْ عَدُوٍّ، وَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا
 مَنَهْجًا.

فَمَا هِيَ هَذِهِ الْخُطُواتُ؟
 كُلُّ خُطْوَةٍ أَذْكَرُهَا فَإِنْ فِيهَا بَرَكةٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهَا مُعْتَقِدًا بِأَنَّهَا سَبَبُ
 شَرِّعِي نَوَاجِهُ بِهِ مَشْكَلاتِ الْحَيَاةِ لَا أَخَذَ الْمَجْرَبِ، خُذْ بِهَذِهِ الْخُطُواتِ
 أَخَذَ الْوَاتِقِ الْمَتَيْقِنِ لَا الْمَجْرَبِ:

الْخُطْوَةُ الْأُولَى: إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ اسْتَرْجِعْ، قُلْ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ».

هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا فِيهَا بَرَكَةٌ تَعْمُرُكَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿وَلَنْبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

هَذَا هُوَ الْأَسْتِرْجَاعُ، تَقُولُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» (١).
وَفِي رِوَايَةٍ قَالَتْ: قَالَ: «إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا».

مِنِ الرَّابِعِ فِي مُوَاجَهَةِ هَذِهِ الْمَشْكِلَةِ؟

أَنْتَ وَأَنَا إِذَا رَدَدْنَا هَذَا الْكَلَامَ الرَّبَّانِيَّ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»، حَتَّى لَوْ كَانَ الْمَصَابُ الَّذِي أَصَابَكَ شَيْئًا مُحْتَقَرًا فِي نَظْرِكَ.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: مَا يُقَالُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ) (٦٣١/٢) برقم: [٩١٨].

بل إن النبي ﷺ قَالَ: «لِيَسْتَرْجِعْ أَحَدُكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي شَيْءٍ نَعْلِهِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَصَائِبِ».

لَوْ انْقَطَعَتْ نَعْلُ الْوَاحِدِ مِنَّا أَوْ خَرِبَ حِذَاؤُهُ، فَلْيَقُلْ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» حَتَّى يُؤَجَرَ فِي مُصِيبَتِهِ، وَيُخْلَفَ لَهُ بِخَيْرٍ، سَيُخْلَفُ لَهُ بِخَيْرٍ جَزْمًا، «حَتَّى فِي شَيْءٍ نَعْلِهِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَصَائِبِ».

إِذَا، الْخُطُوءَةُ الْأُولَى: اسْتَرْجِعْ فِي كُلِّ شَيْءٍ. الْخُطُوءَةُ الثَّانِيَةُ: حِينَمَا تُوَجِّهُكَ الْمَشَاكِلُ تَرْفَقُ، وَعَلَيْكَ بِاللِّينِ، وَالتُّودَةِ، وَالتَّانِي، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُعَالِجَ مَشَاكِلَكَ تَرْفَقُ، وَتَأَنَّ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ، وَعَلَيْكَ بِالتُّودَةِ.

اليَوْمَ أَكْثَرَ مَا يَقَعُ مِنْ حَالَاتِ الطَّلَاقِ مِنْ أَشْخَاصٍ لَمْ يَأْخُذُوا بِهَذِهِ الْخُطُوءَةِ، وَلَا بِالْخُطُوءَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، فَأَكْثَرَ حَالَاتِ الطَّلَاقِ تَجِدُهَا مِنْ هَذَا الْمُسْتَعْجِلِ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ تَقُولُ: «الْيَهُودُ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. قَالَ: «وَعَلَيْكُمْ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «السَّامُ عَلَيْكُمْ» (١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُسْتَجَابُ لَنَا فِي الْيَهُودِ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا» [٨٥/٨] برقم: [٦٤٠١]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: النَّهْيِ عَنِ ابْتِدَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالسَّلَامِ وَكَيْفِ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ) (١٧٠٦/٤) برقم: [٢١٦٤]، واللفظ للبخاري.

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ وَيَدْعُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمْ بِشِدَّةٍ وَبِغِلْظَةٍ، وَأَنْ يُعَاقِبَهُمْ، يَدْعُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ عَلَى مَسْمَعٍ مِنْهُ وَمِنْ أَصْحَابِهِ، «السَّامُ عَلَيْكُمْ»، فيَقُولُ ﷺ فِي رِفْقٍ وَلِينٍ وَتُؤَدَّةٍ: «وَعَلَيْكُمْ»، فَقَطُّ.

انظُرْ إِلَى حِلْمِهِ، هُمْ يَأْتُونَ عَلَيْهِ تِبَاعًا، تَقُولُ: أَتَى الْيَهُودُ النَّبِيَّ يَعْني مُتَتَابِعِينَ، كُلَّمَا دَخَلَ وَاحِدٌ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، أَيُّ: الْمَوْتُ عَلَيْكَ، وَهُوَ يَقُولُ فِي رِفْقٍ وَلِينٍ وَتُؤَدَّةٍ: «وَعَلَيْكُمْ».

فَإِذَا بَعَايَشَةَ ﷺ تَغَضَّبُ، وَتَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَلَعْنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فيَقُولُ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ، أَوْ الْفُحْشَ». قَالَتْ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوْلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ، رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ» (١).

فَقَهُ عَظِيمٌ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَحْدَاثِ، تَرَفَّقَ لَا تَسْتَعَجِلُ.

إِذَا، اسْتَرْجِعْ وَتَرَفَّقْ.

الْخُطُوَةُ الثَّلَاثَةُ: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ، فَالصَّبْرُ شِعَارُ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ قَرِينُ الْفَرَجِ، إِذَا ذُكِرَ الصَّبْرُ قُرِنَ الْفَرَجُ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُسْتَجَابُ لَنَا فِي الْيَهُودِ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا» [(٨٥/٨) برقم: [٦٤٠١]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: النَّهْيُ عَنِ ابْتِدَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالسَّلَامِ وَكَيْفَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ) (١٧٠٦/٤) برقم: [٢١٦٤]، واللفظ للبخاري.

لَذَا، يَقُولُ نَبِينَا ﷺ فِي حَدِيثِ صُهَيْبٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

فَهُوَ يَدُورُ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ لِلَّهِ ﷻ، شَاكِرٌ لِلَّهِ، وَصَابِرٌ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَإِذَا وَاجَهْتَكَ الْمَشَاكِلُ، اصْبِرْ، فَإِنَّكَ تَنْتَظِرُ الثَّوَابَ مِنَ اللَّهِ ﷻ.

الْخُطْوَةُ الرَّابِعَةُ: لَا تَشْكُ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، إِذَا وَقَعَتِ الْمُصِيبَةُ عَلَيْكَ قُلْ: يَا اللَّهُ، قُلْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ الصَّالِحُ يَعْقُوبُ ﷺ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وَهَذَا الْأَخْنَفِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «لَقَدْ ذَهَبَتْ عَيْنِي مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ أَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ». يَعِيشُ مَعَ النَّاسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَعْمَى مَا قَالَ: ذَهَبَتْ عَيْنِي! وَهَكَذَا يَقُولُ شَقِيقُ الْبَلْخِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ شَكَأ مُصِيبَةً إِلَى غَيْرِ اللَّهِ؛ لَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ الطَّاعَةِ».

الْخُطْوَةُ الْخَامِسَةُ: اسْتَشْمِرِ الْمَصَائِبَ، وَأَنْظِرْ إِلَى الْجَانِبِ الْمُضِيِّ فِيهَا، فَوَاللَّهِ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا وَفِيهَا جَوَانِبُ مُضِيئَةٌ، مَا مِنْ بَلْوَى إِلَّا وَرَاءَهَا خَيْرٌ، هَذَا لَيْسَ كَلَامِي بَلْ كَلَامُ الْحَقِّ ﷻ، وَتَقَرُّوْنَهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ، يَقُولُ ﷻ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ) (٢٢٩٥/٤) برقم: [٢٩٩٩].

تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١٦﴾.

وَيَقُولُ: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

[النساء: ١٩].

يَقُولُ الْقَاضِي شَرِيحُ رَحْمَةِ اللَّهِ: «إِنِّي لِأَصَابُ بِالْمُصِيبَةِ، فَأَحْمَدُ اللَّهَ عَلَيْهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ:

أَحْمَدُ إِذْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمُ مِنْهَا (يَعْنِي: جَاءَتْني بِهَذَا الْحَجْمِ، مَا جَاءَتْ أَكْبَرَ). وَأَحْمَدُ إِذْ رَزَقَنِي الصَّبْرَ عَلَيْهَا. وَأَحْمَدُ إِذْ وَفَّقَنِي لِلاِسْتِرْجَاعِ لِمَا أَرْجُو مِنَ الثَّوَابِ. وَأَحْمَدُ إِذْ لَمْ يَجْعَلْهَا فِي دِينِي». سبحان الله ، يَفْرَحُ بِالْمُصِيبَةِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهَا مِنْ جَانِبِهَا الْمُضِيِّ ، فِيرُدُّ الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا جَاءَتْ بِهَذَا الْحَجْمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ رَزَقَنِي الصَّبْرَ عَلَيْهَا، وَوَفَّقْتُ لِلاِسْتِرْجَاعِ، وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي، فِي مَالٍ، فِي وَلَدٍ، فِي نَفْسٍ، مَا كَانَتْ فِي الدِّينِ.

الْخُطُوَّةُ السَّادِسَةُ: إِذَا وَقَعَتِ الْمَصَائِبُ عَلَيْكَ فَلَا تُعَالَجْهَا بِمَا حَرَّمَ

اللَّهُ.

وَاقِعُ النَّاسِ الْيَوْمَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ، فَرَّ إِلَى الْحَرَامِ، تَكُونُ مُشْكَلَةٌ عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ، فَيَذْهَبُ لِشُرْبِ الْخَمْرِ.

تَكُونُ هُنَاكَ مُشْكَلَةٌ مَعَ وَلَدِهِ، فَيَطْرُدُهُ مِنَ الْبَيْتِ.

تَكُونُ عِنْدَهُ مُشْكَلَةٌ فِي الْبَيْتِ، فَيُعَالَجُهَا بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْإِيذَاءِ

وَالضَّرْبِ وَالتَّقْيِيحِ .

تَكُونُ عِنْدَهُ مُشْكِلَةٌ فِي الْبَيْتِ، فَيَذْهَبُ إِلَى سَاحِرٍ يَصْنَعُ لَهُ عَمَلًا .
تَكُونُ عِنْدَهُ مُشْكِلَةٌ فِي الْبَيْتِ، حَاجَةٌ وَعِوَزٌ وَضَعْفٌ وَفَقْرٌ، يَذْهَبُ
إِلَى الرَّبَّاءِ، يَذْهَبُ إِلَى صَالَاتِ الْقِمَارِ، إِلَى السَّرْقَةِ وَالتَّحَايِلِ عَلَى أَكْلِ
أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .

عبد الله ... إِذَا وَاجَهْتَكَ الْمَصَائِبُ فَتَرَفَّقْ، وَعَلَيْكَ بِالِاسْتِرْجَاعِ
وَالصَّبْرِ، وَلَا تَشْكُ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَاسْتَمِرَّهَا، وَاحْذَرْ أَنْ تُعَالَجَهَا بِالْحَرَامِ .
وتذكر ما جاء في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة، أن نبينا
ﷺ قال: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ
إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ»^(١) .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ)
(١٠٢/٨) برقم: [٦٤٩٠]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: كِتَابُ الرُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ) (٢٢٧٥/٤) برقم: [٢٩٦٣]،
واللفظ للبخاري.

٤٤

الخطوات الأربع في تغيير الطباع

عباد الله ...

جَاءَ فِي «مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْأَوْسَطِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ» (١).

إِنَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ قِيَمَةً أَخْلَاقِيَّةً عَظِيمَةً، مَنْ تَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ بِهَا؛ رَشَدًا وَأَفْلَحَ، وَمَنْ صَرَفَ نَفْسَهُ وَوَجْهَهُ عَنْهَا؛ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ.

أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لَنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ: إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ طَبَاعِكَ، وَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتَدَرَّعَ بِالكَسَلِ وَالْعَجْزِ وَالخَوَرِ بِأَنْ تَقُولَ: هَذَا طَبْعِي، أَوْ أَنْ تَرْتَكِبَ المَعَاصِي وَالدُّنُوبَ، وَتُوبِقُ نَفْسَكَ فِي المُوبِقَاتِ، ثُمَّ تَقُولَ: هَذَا طَبْعِي، وَتَتَخَلَّفُ عَنِ المَكْرُمَاتِ، وَعَنْ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ، ثُمَّ تَقُولَ: هَذَا طَبْعِي، لَا، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ عَلَيْنَا الحُجَّةَ، فَقَالَ: «مَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»، فَجَعَلَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ بَعْدَ إِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ.

عباد الله ... إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ النَّاسَ وَلَهُمْ طَبَائِعٌ مُخْتَلِفَةٌ كَاخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَالأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ مُتَشَكِّلِينَ كَتَشَكُّلِ الأَرْضِ كَمَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (باب: مَنْ اسْمُهُ إِبرَاهِيمُ) (١١٨/٣) برقم: [٢٦٦٣]، أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩ / ١٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١/١) برقم: [٢٣٣٦]، واللفظ للطبراني.

مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ»^(١)، مِنْهُمْ الثَّمِينُ، وَمِنْهُمْ الرَّخِيسُ، مِنْهُمْ مَنْ لَهُ قِيَمَةٌ، وَمِنْهُمْ الْخَسِيسُ.

وَجَاءَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِيضًا أَكْثَرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزَنُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَيْثُ وَالطَّيْبُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ»^(٢)، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمٍ قَلْبَتْهَا فَأَصَبْتُ مِنْهَا فِضَّةً وَزُيُوفًا

تَجِدُ مَنْ هُوَ ذَا قِيَمَةٍ عَالِيَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُزَيَّفٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ.

إِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعَ الَّتِي جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا الْخَلْقَ جَبَلَهُمْ عَلَيْهَا، وَمَكَّنَهُمْ مِنْ تَغْيِيرِهَا إِلَى الْأَحْسَنِ، فَلَا يُتَذَرَعُ أَحَدٌ بِأَنَّ يَقُولَ هَذَا طَبْعِي. يتردد على ألسنة الناس: إِنَّ الطَّبْعَ غَلَابٌ، وَأَنَّ الطَّبْعَ غَلَبَ التَّطَبُّعِ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا، وَذَكَرُوا قِصَصًا.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ) (٢٠٣١/٤) برقم: [٢٦٣٨].

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٣/٣٢) برقم: [١٩٦٤١]، وأخرجه أبي داود في «سننه» (باب: في القَدْرِ) (٢٢٢/٤) برقم: [٤٦٩٣]، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣٦/١) برقم: [١٠٠]، واللفظ لأحمد.

بَيِّدَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَقُولُ لَكَ: أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيَّ تَغْيِيرِ طَبْعِكَ وَالتَّغْلِبِ
عَلَيَّ طِبَاعِكَ .

يَقُولُ الْأَصْمَعِيُّ: دَخَلْتُ بَادِيَةً، فَوَجَدْتُ عَجُوزًا حَكَتْ لِي حِكَايَةً:
أَنَّهَا وَجَدَتْ جَرَوْ ذَيْبٍ وَجَدْتُهُ فِي فَلَاةٍ، فَقَالَتْ: أُنْقِذْ هَذَا الْجَرَوْ وَأُرَبِّبِهِ
فِي خِبَائِي، يَعْيشُ يَرْضَعُ مِنْ شَاتِي، فَكَرَّبْتُ هَذَا الْجَرَوْ إِلَى الشَّاةِ يَرْضَعُ
مِنْهَا، جَرَوْ لَمْ يَعْرِفْ أَبَاهُ، وَلَا أُمَّهُ، أُمَّهُ الَّتِي رَأَاهَا وَأَبْصَرَهَا هَذِهِ الشَّاةُ.
فَلَمَّا كَبُرَ الذُّبُّ وَقَوِيَ، عَدَا عَلَى الشَّاةِ فَبَقَرَ بَطْنَهَا وَأَكَلَهَا، فَأَنْشَأَتِ الْمَرْأَةُ
تَقُولُ لِتَغْرِسَ هَذَا الْمَفْهُومَ أَنَّ الطَّبَاعَ لَا تَتَغَيَّرُ:

بَقَرْتُ شُوَيْهَتِي وَفَجَعْتُ قَلْبِي
وَأَنْتَ لِشَاتِنَا ابْنُ رَبِيبٍ
غُذِيتَ بِدَرِّهَا وَرُبِيتَ فِيْنَا
فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذَيْبٌ
إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طِبَاعٌ سُوءٍ
فَلَا أَدَبٌ يُفِيدُ وَلَا حَلِيبٌ

إِنَّ الدِّينَ قَائِمٌ بِأُصُولِهِ عَلَيَّ أَنْ الْإِنْسَانَ قَادِرٌ عَلَيَّ تَغْيِيرِ طَبْعِهِ، وَإِلَّا
مَا نَفَعَتِ الْوَصَايَا وَالْمَوَاعِظُ، وَانظُرْ إِلَى قَوْلِ الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

جاء في «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني. قال: «لا تغضب»^(١)، فردد مراراً، قال: «لا تغضب»^(١).

وكما جاء في «سنن الترمذي»، أن النبي ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٢)، فالإنسان قادر على تغيير طبيعته.

إنني أتألم كثيراً حينما أسمع من يقول: لا أستطيع، عبد الله هل تعلم أنك إذا قلت: لا أستطيع، فإنك تجني على نفسك بهذه الكلمة، قالها رجل بين يدي النبي ﷺ لما رآه يأكل بشماله، قال: «كل بيمينك»، قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعت»^(٣).

لا تقل: لا أستطيع، فإنك تستطيع، يأتي شارب الدخان ويقول: لا أستطيع ترك الدخان، طبعاً أنا تطبعت عليه من سنين، ويأتي المعتاب يقول: لا أستطيع أن أغير طبعي، ويأتي الكذاب ويقول: الكذب يجري على لساني لا أستطيع تركه، ويأتي الخامل العاجز عن المكرّمات

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الحدّ من الغضب) (٢٨/٨) برقم: [٦١١٦].

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٩/٣٥) برقم: [٢١٤٠٤]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (باب: ما جاء في معاشرّة الناس) (٣٥٥/٤) برقم: [١٩٨٧]، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٠٩/٣) برقم: [٥٠٨٣]، واللفظ لأحمد.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: آداب الطّعام والشّراب وأحكامهما) (١٥٩٩/٣) برقم: [٢٠٢١].

وَيَقُولُ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الْهَمِّ وَالْمَكْرَمَاتِ .

يَقُولُ أَحَدُهُمْ: فِي أَوَّلِ أَيَّامِ زَوْاجِي وَقَبْلَ الدُّخُولِ جَلَسْتُ مَعَ زَوْجَتِي فَقُلْتُ لَهَا: أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ مِنَ الْبِدَايَةِ أَنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ مِنْ طَبْعِي .

فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ: إِنْ كَانَتْ طِبَاعُكَ خَيْرَةً، فَانْعِمْ وَأَكْرِمْ، إِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّرَ طِبَاعَكَ الْحَسَنَةَ ؛ فَيَا لَيْلٍ، قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، صَلَاةً فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، بَرَّ الْوَالِدَيْنِ، أَنْعِمْ وَأَكْرِمْ .

قَالَ: لَا، أَنَا أَدَخِنُ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ طَبْعِي، وَأَسْهَرُ خَارِجَ الْبَيْتِ، مُتَطَبِّعٌ عَلَى ذَلِكَ، وَمُتَعَوِّدٌ أَلَا أَعُودَ إِلَّا بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ طَبْعِي .

قَالَتْ: قُمْ وَاخْرُجْ، فَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْتَبِطَ بِإِنْسَانٍ مُكَبَّلٍ وَأَسِيرٍ بِقُيُودِ طَبْعِهِ، هَذَا أَنْتَ لَا تَصْلِحُ أَنْ تَكُونَ زَوْجًا .

وَكَذَلِكَ الْحَيَاةُ كُلُّهَا تَقُولُ: إِنَّ الْمُكَبَّلَ بِقُيُودِ الطَّبَعِ وَالْمَأْسُورَ فِي سِجْنِ الْعَادَةِ لَيْسَ لَهُ قِيَمَةٌ فِي الْحَيَاةِ، لَا تَقُلْ: لَا أَسْتَطِيعُ، بَلْ قُلْ: أَسْتَطِيعُ. لَا تَقُلْ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْفَظَ الْقُرْآنَ، بَلْ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ .

لِأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامٌ نَفِيسٌ، يَقُولُ فِي «إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ»: لَوْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ لَا تَقْبَلُ التَّغْيِيرَ لَبَطَلَتِ الْوَصَايَا وَالْمَوَاعِظُ

والتأديبات، وكيف يُنكر على الأدمي تغيير خلقه، وتغيير خلق البهيمة
ممكن، فالباز يُنقل من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل
إلى التأدب والإمساك والتخليّة، والفرس من الجمّاح إلى السلاسة
والانقياد.

إننا نرى في واقعنا الذي نراه، نرى الأسد الضاري وهو في المسرح
يقبله صاحبه بعصا في يده، ويصفق له الجمهور.
ونرى الفيل العظيم الحجم يداعب كرة هنا وهناك، يصبوب في
هذا الهدف.

ونرى الجمّل بقامته الشامخة نراه يرقص على دقات طبل بيد طفل.
من روض هؤلاء، من غير طباع هؤلاء وهي بهائم، فهل يعجز
الإنسان عن تغيير طبيعه؟

إذا سألت: كيف السبيل إلى أن أُغير طبيعي؟
أقول: إن كانت طباعك محمودّة، فزد منها، وإن كانت طباعنا
مذمومة، فلنغيرها بهذه الخطوات الأربع، وليست هذه الخطوات
بالجديدة علينا، وليست أول مرة نسمع بها، وليست هي ابتكاراً مني،
لا، بل سمعناها كثيراً، ولكن ليس العبرة بالسمع والعلم، ولكن العبرة
بالعلم والعمل؛ لأن الله سُبْحَانَهُ يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

[العصر: ٣]، فَايْمَانٌ وَعَمَلٌ.

وَهَذِهِ الْخُطُواتُ الْأَرْبَعُ هِيَ :

الْخُطُوةُ الْأُولَى: الْعَزِيمَةُ الْقَوِيَّةُ، وَالرَّغْبَةُ الصَّادِقَةُ، فَبِغَيْرِ عَزِيمَةٍ قَوِيَّةٍ،
وَرَغْبَةٍ صَادِقَةٍ، لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُغَيِّرَ مِنْ طَبْعِكَ، إِذَا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ رَاغِبًا مِنْ
الدَّاحِلِ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِكَ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَغَيِّرَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

لَا تُحَاوِلْ أَنْ تَتَّظَاهَرَ أَمَامَ الْآخِرِينَ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ هَذَا
الطَّبْعِ، لَنْ تَغَيِّرَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ الدَّاحِلِ رَاغِبًا فِي التَّغْيِيرِ، كَمَا جَاءَ فِي
حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَأِنَّهُ مَنْ
يَسْتَعْفُ يُعْفَهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ
تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» (١).

أَخْلَقَ بذي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنَ الْقِرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا
لَا بُدَّ مِنَ الْبَدْلِ، وَالْبَدْلُ بِقُوَّةٍ، وَالرَّغْبَةُ أَنْ تَكُونَ فِي أَعْلَى السَّلْمِ.
أَعْجَبَنِي أَحَدُ الشَّبَابِ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا لَا أَبْحَثُ عَنِ النَّاجِحِينَ لِأَمْشِي
مَعَهُمْ، فَالْناجِحُونَ كَثُرُ، بَلْ أَنَا أَبْحَثُ عَنِ الْمُتَفَوِّقِينَ لِأَمْشِي مَعَهُمْ.

وَمَنْ يَتَهَيَّبْ صُعودَ الْجِبَالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحُفْرِ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الصَّبْرِ عَنْ مَخَارِمِ اللَّهِ) (٩٩/٨) برقم: [٦٤٧٠].

الَّذِي يَقُولُ: أَنَا مَا أَقْدِرُ، وَلَا أَسْتَطِيعُ؛ سَيَبْقَى بَيْنَ الْحَفْرِ لَا يَتَحَرَّكُ.
وَالْخُطْوَةُ الثَّانِيَةُ: بَعْدَ الْعَزِيمَةِ وَالرَّغْبَةِ الصَّادِقَةِ، نَفْسُكَ إِذَا تَأَبَّتْ
وَتَمَرَّدَتْ فَعَاقِبَهَا، ضَعُ لَهَا عِقَابًا.

يَقُولُ ابْنُ وَهْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَذَرْتُ أَنِّي كُلَّمَا اغْتَبْتُ إِنْسَانًا أَنْ أَصُومَ
يَوْمًا». انظُرْ إِلَى هَذَا التَّأْدِيبِ وَالتَّوْبِيخِ لِهَذِهِ النَّفْسِ، كُلَّمَا جَلَسَ مَجْلِسَ
اغْتِيَابٍ، فَصَامُ يَوْمًا. قَالَ: «فَأَجْهَدُنِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ أَعْتَابُ وَأَصُومُ حَتَّى
أَجْهَدُنِي ذَلِكَ، فَانْتَقَلْتُ بِهَا إِلَى الْعِقَابِ الْآخِرِ، فَنَذَرْتُ أَنِّي كُلَّمَا اغْتَبْتُ
إِنْسَانًا أَنْ أَتَصَدَّقَ، قَالَ: فَأَدْبَبْتُهَا الدَّرَاهِمُ».

الرَّغْبَةُ الصَّادِقَةُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعَيِّرَ فِي طِبَاعِ نَفْسِهِ.
الْخُطْوَةُ الثَّلَاثَةُ: لَا تُصَاحِبِ الْمَرَضَى فَتَصَابُ بِالْمَرَضِ، الْإِنْسَانُ
الَّذِي يُصَاحِبُ الْعَاجِزِينَ الْكُسَالَى عَنْ تَغْيِيرِ طِبَاعِهِمْ يُعَدِّي بِمَرَضِهِمْ.
كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ تَرَكَ الدُّخَانَ سِتَّةَ شُهُورٍ، أَوْ سَنَةً كَامِلَةً، ثُمَّ إِذَا عَادَ
إِلَيْهَا وَسُئِلَ: لِمَاذَا عُدْتَ؟ قَالَ: لِأَجْلِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، أَنَا أَجْلِسُ مَعَ فُلَانٍ
وَفُلَانٍ، وَهُوَ لَاءٍ رَدُّونِي إِلَى الدُّخَانِ.

وَرَجُلٌ تَابَ مِنَ الزُّنَا، وَعَادَ إِلَى الزُّنَا بِسَبَبِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ.
وَاسْأَلْ فُلَانًا الَّذِي لَا يَزَالُ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، مَنْ أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ الْآفَةِ؟
سَتَجِدُ أَنَّهُ يَقُولُ: مَشَيْتُ مَعَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَقَدِيمًا كَانَ الْآبَاءُ يُحَذِّرُونَ

أَبْنَاءَهُمْ إِذَا خَرَجُوا مِنَ الْبَيْتِ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، أَمَّا الْآنَ فَفُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ
الْفَجْرَةِ وَالْفَسَاقِ فِي الْبُيُوتِ مَعَنَا فِي هَذِهِ الْأَجْهَزَةِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ الْأَبْنَاءُ
الْخَنَا وَالْفُجُورَ.

لِذَا، نَبِيَّنَا ﷺ أَعْطَانَا جُمْلَةً عَظِيمَةً وَخَطِيرَةً، قَالَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ
خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (١).

أَبْنَائِي الطَّلَبَةُ الَّذِي سَيَسَافِرُونَ إِلَى الْخَارِجِ لِيَدْرِسُوا، انْتَبِهْ أَيُّهَا الْابْنُ
الْغَالِي وَأَنْتَ تَسَافِرُ، وَأَنْتَ تَضَعُ قَدَمَكَ الْأُولَى خَارِجَ بَيْتِكَ وَطَنِكَ، ضَعُ
هَذَا الْحَدِيثَ أَمَامَكَ، «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ».

لَا تَقُلْ: أَنَا وَائْتِقْ مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا قَوِيٌّ، لَا، بَلْ قُلْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (٢).

وَ لَقَدْ أَنْشَدَ الشَّاعِرُ قَائِلًا:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمَقَارِنِ يَقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِيِّ

وَالْخُطُوبَةُ الرَّابِعَةُ: اطْرُقْ بَابَ السَّمَاءِ، قُلْ: يَا اللَّهُ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ، قُلْ: يَا اللَّهُ، وَاسْتَلِّهِمْ هَذَا

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٢/١٤) برقم: [٨٤١٧]، وأخرجه أبو داود في «سننه» (باب: مَنْ يُؤْمَرُ أَنْ يُجَالِسَ)
(٢٥٩/٤) برقم: [٤٨٣٣]، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٣٩٧/٣) برقم: [٥٠١٩]، واللفظ لأحمد.

(٢) سبق تخريجه.

الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ:

يَقُولُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ:
«وَاهِدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي
سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(١)، فاستعن بالله على تغيير طباعك
السيئة واسأل الله العون والسداد

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ) (٥٣٤/١) برقم: [٧٧١].

٤٥

القواعد السبع
فج تحصيل الأجور

عباد الله ...

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَجْعَلُ اللَّهُ عَبْدًا أَسْرَعَ إِلَيْهِ كَعَبْدٍ أَبْطَأَ عَنْهُ، لَا يَسْتَوِيَانِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، الْعَبْدُ الْمُسْرِعُ إِلَيْهِ بِالطَّاعَاتِ كَالْعَبْدِ الْمُتَبَاطِئِ إِلَيْهِ بِالطَّاعَاتِ، وَلَا يُسْرِعُ الْمُسْرِعُ فِي عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ».

لِذَا، قِيلَ عَلَى لِسَانِ أَحَدِ سَلَفِ الْأُمَّةِ: «مَنْ لَاحَ فَجَرَ الْأَجْرُ؛ هَانَتْ عَلَيْهِ مَشَقَّةُ التَّكْلِيفِ».

إِنَّا فِي دُنْيَانَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُقَدِّمَ عَلَى مَشْرُوعٍ، نَسْأَلُ عَنِ الْجَدْوَى أَوَّلًا، وَنَقُولُ: مَا الْجَدْوَى مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ؟ وَرَبَّنَا ﷻ عَلَّمَ هَذِهِ النُّفُوسَ الَّتِي خَلَقَهَا، فَجَعَلَ لَهَا حَوَافِزَ وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالتَّعْبِيرِ الشَّرْعِيِّ: أُجُورًا.

إِنَّ الْعَامِلَ إِذَا تَطَلَّعَ إِلَى الْجَدْوَى، وَإِلَى الْحَافِزِ؛ نَشَطَتْ نَفْسُهُ، وَالْجَدْوَى وَالْحَافِزُ فِي لُغَةِ الْعَصْرِ يُقَابِلُهُمَا فِي لُغَةِ الشَّرْعِ: الْأَجْرُ، فَمَنْ لَاحَ فَجَرَ الْأَجْرُ؛ هَانَتْ عَلَيْهِ مَشَقَّةُ التَّكْلِيفِ.

بِمَعْنَى: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْشِطَ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ؛ فَانظُرْ إِلَى أُجُورِ أَعْمَالِكَ، وَغَالِبُ الْأَعْمَالِ ذَكَرَ لَنَا أَجْرُهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

لِذَا، نَقَرْنَا فِي قَوْلِ الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

عَرَضَهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣]، حَافِزٌ.
نَقَرَأُ فِي سُورَةِ «الْحَدِيدِ»: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرَضَهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وَ حَدِيثُنَا فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ يَأْتِي تَحْتَ هَذَا الْعُنْوَانِ: «القَوَاعِدُ السَّبْعُ
فِي تَحْصِيلِ الْأَجُورِ».

وَأَنْتَ تَتَطَلَّعُ إِلَى الْأَجْرِ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَى أَعْمَالِكَ، اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ
الْأَجُورَ لَهَا قَوَاعِدٌ لَا تَتَغَيَّرُ، وَلَا تَتَبَدَّلُ، وَأَذْكَرُ لَكُمْ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ سَبْعَ
قَوَاعِدَ لِلْأَجُورِ:

القَاعِدَةُ الْأُولَى: لَا يَنَالُ الْأَجْرَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْمُوَحِّدُونَ:

الْكُلُّ يَعْمَلُ هُنَا، الْمُسْلِمُ يُحْسِنُ، وَالْكَافِرُ يُحْسِنُ، هَذَا يَرْحَمُ الْيَتِيمَ،
هَذَا يُقَدِّمُ لِلنَّاسِ مَعْرُوفًا، وَذَلِكَ يُقَدِّمُ لِلنَّاسِ مَعْرُوفًا، فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا
يُحْصَلُ الْأَجُورَ إِلَّا الْمُسْلِمُ، فَالْكَافِرُ مَا يُحْصَلُ أَجْرًا، غَيْرُ الْمُوَحِّدِ لَا
يُحْصَلُ الْأَجْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ يَعْمَلُ وَهُوَ يَرْجُو الثَّوَابَ كَمَا
قَالَ ﷺ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

يَقُولُ ﷻ فِي آيَةٍ عَظِيمَةٍ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا
كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

أَعْمَالُهُمْ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَرَمَادٍ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ.

وَيَقُولُ ﷻ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

نَعَمْ، هُمْ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْأَجْرِ، وَلَكِنَّهُمْ يُحْجِزُونَ عَنِ تَحْصِيلِ تِلْكَ
الْأَجُورِ بِكُفْرِهِمْ، وَاقْرَأْ فِي قَوْلِ الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ
إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إِذَا، الْقَاعِدَةُ الْأُولَىٰ فِي تَحْصِيلِ الْأَجُورِ: لَا يَنَالُ الْأَجْرَ إِلَّا مَنْ كَانَ
مُوحِّدًا لِلَّهِ.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْأَجُورُ الَّتِي يَنَالُهَا الْعَامِلُونَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ هِيَ
مِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ، وَتَفْضُلٌ لَا عِوَضًا لِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا ثَمَنًا لِأَعْمَالِهِمْ، فَأَعْمَالُهُمْ
أَقْلٌ مِنْ هَذَا الْعِوَضِ الْكَبِيرِ، وَهَذَا الثَّمَنِ الْكَبِيرِ، فَلَا يَتَصَوَّرُ الْعَامِلُ أَنَّهُ
يَنَالُ الْأَجْرَ بِفَضْلِ عَمَلِهِ، أَيْ: عِوَضًا لِعَمَلِهِ، وَثَمَنًا لِعَمَلِهِ، الْأَعْمَالُ سَبَبٌ
لَا غَيْرَ.

جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»، وَ«صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، وَغَيْرِهِمَا، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ نَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلَا أَنَا، إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ» (١).

لِذَا، الْعَامِلُ وَهُوَ يَعْمَلُ لَا يَغْتَرُّ، وَإِنَّمَا يَسْأَلُ الْمَوْلَى فَضْلَهُ وَرَحْمَتَهُ. الْقَاعِدَةُ الثَّلَاثَةُ: خَصَّ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِتَضْعِيفِ أَجْرِ الْعَامِلِينَ فِيهَا، أُمَّةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا خَاصِّيَةً بِأَنْ جَعَلَ أَجُورَ أَعْمَالِهَا مُضَاعَفَةً، عَشْرًا، سَبْعِينَ، سَبْعِمِائَةً، إِلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، وَتَقْرَأُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةِ أَنْبَتٍ سَبْعِ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: لَا يُحْصَلُ الْأَجْرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَخْلَصَ فِي عَمَلِهِ، بِغَيْرِ إِخْلَاصٍ لَا تُنَالُ الْأَجُورُ، لَوْ عَمِلَ الْعَامِلُ الْمُسْلِمُ لِيَلَهُ وَنَهَارَهُ، وَأَنْفَقَ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالطَّاقَاتِ وَالْأَوْقَاتِ وَصَحْحِي بِنَفْسِهِ وَبِأَوْلَادِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ مَا يُوجَرُ.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى) (٢١٧١/٤) برقم: [٢٨١٧].

إِذَا صَلَّى فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ؛ فَلْيُصَلِّ لِه. .

إِذَا قَامَ خَطِيبًا فِي النَّاسِ فَلْيَخُطُبْ لِه. .

إِذَا أَدَّنَ؛ فَلْيُؤَدِّنْ لِه. .

إِذَا أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَلْيَجْعَلْ ذَلِكَ لِه. .

إِذَا ذَهَبَ يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ فَلْيَجْعَلْهُ لِه. .

لَا يُصَلِّي مِنْ أَجْلِ وَالِدِهِ أَنْ يُعَاتِبَهُ، وَلَا يَتَصَدَّقُ لِيُقَالَ: فُلَانٌ

مُتَصَدِّقٌ، وَلَا يَذْهَبُ يُغِيثُ الْمَلْهُوفِينَ لِيُحْصَلَ ثَنَاءً وَيُحْصَلَ مَصَالِحَ

شَخْصِيَّةً، اجْعَلْهَا لِه فَقَطْ.

يَقُولُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ

بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ

اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

مَفْهُومُ الْمَخَالَفَةِ: إِذَا فَعَلَ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ؛ لَا يَجِدُ شَيْئًا مِنَ الْأَجْرِ،

وَأَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ:

جَاءَ فِي «سُنَنِ النَّسَائِيِّ»، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ

رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ

وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟

قَالَ نَبِينَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا،

وَابْتِغِي بِهِ وَجْهَهُ» (١). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، يُرِيدُ أَجْرًا وَذِكْرًا، يَعْنِي أَشْرَكَ . إِذَا، هَذِهِ مُهِمَّةٌ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْصَلَ الْأَجُورَ؛ فَلْيَجْعَلْ عَمَلَهُ خَالِصًا مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ تُبْطِلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَجُورَ.

القَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَجْرُ الْعَامِلِ لَا يَتَوَقَّفُ، وَإِنْ تَوَقَّفَ الْعَامِلُ لِعَجْزٍ أَوْ سَفَرٍ:

إِنْسَانٌ لَهُ عَادَةٌ يُصَلِّي الضُّحَى، فَمَرَضَ أَيَّامًا؛ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ صَلَاةِ الضُّحَى.

إِنْسَانٌ لَهُ عَادَةٌ يَتَصَدَّقُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَافْتَقَرَ؛ يُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ يَوْمِيًّا. إِنْسَانٌ لَهُ عَادَةٌ يَفْعَلُهَا، فَمَنَعَهُ مِنْ فِعْلِهَا الْعَجْزُ (أَي: الْمَرَضُ)، أَوْ السَّفَرُ؛ يُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ.

دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» (٢)، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﷻ.

القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: اِحْرَاضُ أَيُّهَا الْعَامِلُ عَلَى الْأَعْمَالِ ذَاتِ الْأَجُورِ الْعَظِيمَةِ.

(١) أخرجه النسائي في «سننه» (باب: مَنْ غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذَّكْرَ) (٢٥/٦) برقم: [٣١٤٠]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٠/٨) برقم: [٧٦٢٨]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٩/١) برقم: [١٨٥٤]، واللفظ للنسائي.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: يُكْتَبُ لِلْمُسَافِرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي الْإِقَامَةِ) (٥٧/٤) برقم: [٢٩٩٦].

هُنَاكَ أَعْمَالٌ لَا تَأْخُذُ مِنَ الْوَقْتِ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَلَا تَأْخُذُ مِنَ الْجُهْدِ إِلَّا الْيَسِيرَ، الْمُسْتَشْمِرُ الذَّكِيُّ هُوَ الَّذِي يَحْرِصُ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ، مَا تَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ كَثِيرٍ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى جُهْدٍ كَبِيرٍ؛ احْرِصْ عَلَيْهَا.

جَاءَ فِي حَدِيثِ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ خَرَجَ، وَعِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْبَيْتِ وَجَدَهَا فِي مُصَلَّاهَا بَعْدَ أَنْ صَلَّتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ تَذَكُّرُ اللَّهِ، فَخَرَجَ عَنْهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ تَذَكُّرُ اللَّهَ، وَأَنْهَى حَوَائِجَهُ وَأَعْمَالَهُ.

فَلَمَّا ارْتَفَعَ الضُّحَى دَخَلَ عَلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ فِي مُصَلَّاهَا لَا تَزَالُ تَذَكُّرُ اللَّهَ، فَأَرْشَدَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ السَّادِسَةِ، قَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتِكِ عَلَيْهَا؟». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ قُلْتِ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِينَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ» (١).

إِذَا، احْرِصْ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ ذَاتِ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ، وَلَا تُعَابُ عَلَى ذَلِكَ، فَتَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْشَدَ إِلَى ذَلِكَ.

القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ: عَلَى الْعَامِلِ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ النَّفْعِ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: التَّسْبِيحِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَعِنْدَ النَّوْمِ) (٤/٢٠٩٠) برقم: [٢٧٢٦].

أَكْثَرَ مِنْ أَعْمَالِهِ الْقَاصِرَةَ عَلَى نَفْسِهِ.

هُنَاكَ أَعْمَالٌ مُتَعَدِّيةٌ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا الْآخَرُونَ، صَلَاتُكَ لَكَ، صِيَامُكَ لَكَ، لَكِنَّكَ حِينَما تُعَلِّمُ غَيْرَكَ الصَّلَاةَ، هَذَا عَمَلٌ مُتَعَدِّ، تُعَلِّمُ غَيْرَكَ الصِّيَامَ؛ هَذَا عَمَلٌ مُتَعَدِّ.

جَاءَ فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟». قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ» ^(١).

وَعِنْدَ ابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَيْتُنِي أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا» ^(٢).

هَذِهِ قَوَاعِدُ سَبْعٍ فِي تَحْصِيلِ الْأَجُورِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: في إصلاح ذات البين) (٢٨٠/٤) برقم: [٤٩١٩]، وأخرجه الترمذي في «سننه» (٦٦٣/٤) برقم: [٢٥٠٩]، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٠١/٣) برقم: [٥٠٣٨]، واللفظ لأبي داود.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٦/٢) برقم: [٨٦١]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧/١) برقم: [١١٧٥]، واللفظ للطبراني.

٤٦

والصلح خير

عباد الله ...

أَمَرَنَا اللَّهُ ﷻ بِعِبَادَتِهِ، وَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِنَا هِيَ عِبَادَتُهُ ﷻ،
فَقَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَبَيَّنَ لَنَا الْمَوْلَى ﷻ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ أَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْهَا مَا هُوَ
قَاصِرٌ نَفْعُهُ عَلَى الشَّخْصِ، وَمِنْهَا مَا كَانَ نَفْعُهُ مُتَعَدِّيًّا إِلَى الْآخِرِينَ.
وَالْعِبَادَةُ الَّتِي نَفْعُهَا مُتَعَدِّ إِلَى الْآخِرِينَ هِيَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ أَفْضَلُ مِنَ
الْعِبَادَةِ الَّتِي نَفْعُهَا يَعُودُ بِالنَّفْعِ عَلَى الْعَابِدِ فَحَسَبُ.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ
أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ؟ وَمَا أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ؟

قَالَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ
سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ
تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلِأَنَّ أَمْسِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ
أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ (يَعْنِي: مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ) شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ
سَرَّ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ،
أَثَبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ» (١).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٣٩/٦) برقم: [٦٠٢٦]، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧/١) برقم: [١٧٥].

إِذَا، هُنَاكَ عِبَادَةٌ قَاصِرَةٌ، وَنَفْعُهَا لَا يَتَعَدَّى الْعَابِدَ، وَهُنَاكَ عِبَادَةٌ نَفْعُهَا مُتَعَدِّ، وَهَذِهِ أَجْرُهَا أَعْظَمُ.

وَحَدِيثِي فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ عَنْ عِبَادَةِ عَظِيمَةِ الْقَدْرِ وَالْأَجْرِ، الْعَامِلُ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ قَلِيلٌ، وَالْغَافِلُ عَنْهَا كَثِيرٌ، هِيَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ فِي الْأَجْرِ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ، وَأَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصِّيَامِ، وَأَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصَّدَقَاتِ، عَلِمًا بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لَنَا أَجْرَ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ فِي بَعْضِهَا: «رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (١).

بَيَّنَ لَنَا نَوَافِلَ الصِّيَامِ، فَقَالَ فِي بَعْضِهَا: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

بَيَّنَ لَنَا فَضْلَ الصَّدَقَاتِ فَقَالَ فِي بَعْضِهَا: «وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ، خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلُ الْجَنَّةِ» (٣).

وَمَعَ ذَلِكَ هَذِهِ الْعِبَادَةُ الَّتِي أُحَدِّثُكُمْ بِهَا هِيَ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ، وَنَوَافِلِ الصِّيَامِ، وَنَوَافِلِ الصَّدَقَاتِ؛ لِأَنَّ نَفْعَهَا مُتَعَدِّ، فَمَا هِيَ هَذِهِ الْعِبَادَةُ؟

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: اسْتِحْبَابِ رَكَعَتَيْ سُنَّةِ الْفَجْرِ، وَالْحَتِّ عَلَيْهِمَا وَتَخْفِيفِهِمَا، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَيْهِمَا، وَبَيَانِ مَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِمَا) (٥٠١/١) برقم: [٧٣٥].

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الصَّوْمِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (١٦٧/٤) برقم: [١٦٢٤]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١١٢/٥) برقم: [٤٨٢٦]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (١٠٦/٢) برقم: [٥٦٣].

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٥٠/٣٨) برقم: [٢٣٣٢٤]، وَصَحَّحَهُ لغيره شعيب الأرنؤوط في «تحقيقه على مسند أحمد».

جَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا يُبَيِّنُهَا لَنَا، فَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ فِي مَحْضَرِ الصَّحَابَةِ وَهُوَ يُمَارِسُ مَعَهُمْ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ
وَأُسْلُوبًا مِنْ أَسَالِيبِ التَّرْغِيبِ وَتَثْبِيتِ الْمَعْلُومَةِ، : «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ
مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ:
«إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ».

إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ،
هَذَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ .

تُصْلِحُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ؛ فَتَفُوزُ بِهَذَا الْأَجْرِ، تُصْلِحُ بَيْنَ الزَّوْجَةِ
وَزَوْجِهَا، بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَالِدِهِ وَوَالِدَتِهِ، بَيْنَ الْوَالِدَيْنِ وَوَالِدِهِمَا، بَيْنَ الْجَارِ
وَالْجَارِ، الْمُؤَوِّظِ وَالْمُؤَوِّظِ، بَيْنَ الطَّالِبِ وَالطَّالِبِ.

تَكُونُ أَنْتَ الْمَتَسَبِّبَ فِي هَذَا الْإِصْلَاحِ، تُحَاوِلُ جَاهِدًا بِقَدْرِ مَا
عِنْدَكَ مِنَ الْجَاهِ وَالْمَالِ وَالْوَقْتِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ أَنْ تُنْشِئَ جِهَازًا لِإِصْلَاحِ
ذَاتِ الْبَيْنِ فِي بَيْتِكَ، أَوْ حَيْكِكَ، أَوْ دَائِرَةِ عَمَلِكَ، أَوْ مِنْطِقَتِكَ، أَوْ مُجْتَمَعِكَ؛

لِأَنَّ هَذِهِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ بِالِاتِّحَامِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ
اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. هُوَ الْمُؤَلِّفُ ﷻ بَيْنَ
الْقُلُوبِ.

لَوْ حَاوَلَ أَحَدُنَا أَنْ يَبْذُلَ الدِّينَارَ وَالذَّرْهَمَ لِيُوَلِّفَ بَيْنَ قَلْبَيْنِ؛ لَنْ يَتِمَّكَانَ إِلَّا إِذَا اسْتَعَانَ بِالْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْقَائِلِ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فَهَذِهِ الْعِبَادَةُ (عِبَادَةُ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ) نَتَحَدَّثُ عَنْهَا فِي هَذِهِ الْخُطُوبَاتِ السَّتِّ:

الْخُطُوبَةُ الْأُولَى: فَاللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَعَلَ مِنْ لَوَازِمِ التَّقْوَى: إِصْلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ، بِمَعْنَى أَنَّكَ مِنْ لَوَازِمِ تَقْوَاكَ أَنْ تُمَارِسَ عِبَادَةَ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ لِأَنَّهَا عَظِيمَةُ الْأَجْرِ، هَذَا الَّذِي يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَيَصُومُ النَّهَارَ كُلَّهُ، يَأْتِي ذَاكَ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلُ مِنْهُ دَرَجَةً، قَالَ اللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

هُنَاكَ عِلَاقَةٌ ثَابِتَةٌ مُضْطَرِدَّةٌ بَيْنَ التَّقْوَى، وَبَيْنَ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ. فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي سُورَةِ الْحُجْرَاتِ يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

إِذَا، مِنْ لَوَازِمِ التَّقْوَى: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ. وَالْخُطُوبَةُ الثَّانِيَّةُ: الْأَجْرُ الْعَظِيمُ الْمُرْتَبُّ عَلَى ذَلِكَ، سَمِعْنَا قَبْلَ قَلِيلٍ

حَدِيثَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَالآنَ نَسْمَعُ هَذِهِ الآيَةَ العَظِيمَةَ فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ،
يَقُولُ المَوْلَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

لَنْ يَضِيعَ أَجْرُكَ، تَوَصَّلْتَ إِلَى الهَدَفِ وَهُوَ الإِصْلَاحُ بَيْنَ
الْمُتَخَاصِمِينَ أَوْ لَا؟ شَكَرَكَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ أَمْ لَا؟ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُضْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

يَقُولُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: «يَا أَبَا أَيُّوبَ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ
يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا، وَتَفَاسَدُوا» (١).
عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، قَلَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا، بَلِ الكَثِيرُ مَنْ يَعْمَلُ بِضِدِّهَا، وَهِيَ
إِفْسَادُ ذَاتِ البَيْنِ.

فَإِذَا تَحَرَّكَتْ نَفْسُكَ لِهَذِهِ العِبَادَةِ، وَرَغِبْتَ أَنْ تَتَعَاطَاهَا بَعْدَ هَذِهِ
الْحُطْبَةِ، وَأَنْ تُمَارِسَهَا عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ فِي بَيْتِكَ، بَيْنَ أَخَوَيْنِ، إِذَا رَأَيْتَ
مُتَخَاصِمِينَ تَدَخَّلْتَ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ فِي المَسْجِدِ الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ، فَقَدْ
يَكُونُ هَذَا المَصْلِي فِي خُصُومَةٍ مَعَ هَذَا المَصْلِي، أَوْ يَكُونُ المُوَظَّنُّ فِي
حَالِ خُصُومَةٍ مَعَ الإِمَامِ، تَدَخَّلْ وَاسْتَحْضِرِ الأَجْرَ.

الْحُطْبَةُ الثَّلَاثَةُ: اجْعَلْ عَمَلَكَ اللهُ سُبْحَانَ اللهِ، هَذِهِ الخُطْبَةُ الثَّلَاثَةُ، لَا تَبْغِ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٨/٤) برقم: [٣٩٢٢]، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣١/١٣) برقم: [١٠٥٨٣].

أَجْرًا مِنْ فُلَانٍ، وَلَا ثَنَاءً مِنْ فُلَانٍ، وَلَا مَحْمَدَةً مِنْ فُلَانٍ، وَلَا أَنْ يُخْلَعَ
عَلَيْكَ لَقَبٌ: فُلَانُ الْمُصْلِحِ الْكَبِيرِ، لَا تَنْتَظِرْ هَذَا، أَنْتَظِرِ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ
؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ
أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

اللَّهُ يَقُولُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾
[النساء: ٣٥].

الْخُطْوَةُ الرَّابِعَةُ: أَوْصِيكَ بِالْعَدْلِ، وَأَنْ تُمَارِسَ دَوْرَ الْمُصْلِحِ، الْآنَ
تَهَيَّأَتْ نَفْسُكَ لِتَعْمَلَ، وَاحْتَسَبْتَ الْأَجْرَ إِذَا بَدَأْتَ تُمَارِسُ دَوْرَ الْمُصْلِحِ
بَيْنَ وَالِدِكَ وَأَخِيكَ، وَبَيْنَ الْجَارِ وَالْجَارِ، أَوْصِيكَ بِهَذِهِ الرَّابِعَةِ.
عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ، لَا تَنْتَصِرْ لِفُلَانٍ عَلَى حِسَابِ فُلَانٍ، لَا تَنْتَصِرْ
لِلصَّغِيرِ، وَتَقُولُ: أَرْحَمُهُ وَأَعْطِفُ عَلَيْهِ عَلَى حِسَابِ الْكَبِيرِ.
وَلَا تَنْتَصِرْ لِلْكَبِيرِ، تَقُولُ: أَوْفَرُهُ وَأَحْتَرِمُهُ وَأَقْدِرُهُ عَلَى حِسَابِ
حُقُوقِ الصَّغِيرِ، لَا.

لَا تَنْتَصِرْ لِلْمَرْأَةِ، وَتَقُولُ: ضَعِيفَةٌ مَكْسُورَةٌ الْجَنَاحِ عَلَى حِسَابِ
الرَّجُلِ.

وَلَا تَنْتَصِرْ لِلرَّجُلِ، وَتَقُولُ: أَنْتَصِرُ لِمُرُوءَتِهِ وَقَوَامَتِهِ عَلَى حِسَابِ

المرأة، لا.

عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ، وَقَدْ أَوْصَى اللهُ ﷻ فَقَالَ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فَأَخْلِصْ وَاعْدِلْ، فَإِنَّكَ إِذَا أَخْلَصْتَ وَفَقَّتَ، وَإِذَا عَدَلْتَ؛ نِلْتَ
الْأَجْرَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

الْخُطْوَةُ الْخَامِسَةُ: فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ
يَتَأَلَّفَ الْمُجْتَمِعُ وَيَتَرَابَطُ، أَجَازَ لَكَ أَيُّهَا الْمُصْلِحُ أَنْ تَرْتَكِبَ كَبِيرَةً مِنْ
كَبَائِرِ الذُّنُوبِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُصْلِحَ، أَجَازَ لَكَ الْكَذِبَ مِنْ
أَجْلِ الْإِصْلَاحِ، نَعَمْ، فَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ
فِيْنَمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» (١).

يَقُولُ: فَلَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكَ، وَيَمْدُحُكَ، وَأَنَّهُ مُتَأَسِّفٌ عَلَى مَا حَصَلَ،
وَهُوَ مَا قَالَ، مِنْ أَجْلِ أَنْ تُصْلِحَ.

تَقُولُ: فَلَنْ يَذْكُرَكَ فِي الْمَجْلِسِ الْفُلَانِيِّ وَهُوَ يَقُولُ: لَيْتَ تِلْكَ
السَّاعَةَ مَا حَصَلَتْ، وَلَيْتَنِي لَمْ أُغْضِبْ فُلَانًا، وَهُوَ مَا قَالَ مِنْ أَجْلِ أَنْ
تُصْلِحَ.

الْخُطْوَةُ السَّادِسَةُ: وَأَخْتِمِ بِهَا وَأَوْجِهُهَا لِلْمُتَخَاصِمِينَ، وَالْمَتَهَا جَرِينِ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: لَيْسَ الْكَاذِبُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ) (١٨٣/٣) برقم: [٢٦٩٢].

الآن في المسجد، هذه الألوْفُ أقول لها: هَبْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ مُصْلِحٌ يُصْلِحُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ، الآنَ وَأَنْتَ تَسْمَعُ حَدِيثِي رَبِّمَا يَأْتِيكَ مَنْ يُصْلِحُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ وَيُزِيلُ مَا فِي صَدْرِكَ مِنْ شَحْنَاءٍ وَبَغْضَاءٍ، لَكِنْ هَبْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ أَحَدٌ، أَرْجُوكَ فَبَادِرْ أَنْتَ حَتَّى تَنَالَ الْأَجْرَ ، وَابْدَأْ بِإِصْلَاحِ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ أَنْتَ، فَتَكُونُ أَنْتَ الْفَائِزَ.

عِنْدَنَا أَحَادِيثٌ عَظِيمَةٌ نَطَقَ بِهَا ﷺ لَا نُرِيدُهَا حَيْسَةَ الْأَرْفَفِ وَالْكُتْبِ، نُرِيدُهَا هُنَا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ.

يَقُولُ نَبِينَا ﷺ: «لَا تَحِلُّ الْهَجْرَةُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَإِنَّ التَّقِيَا فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، فَردَّ عَلَيْهِ الْآخَرُ السَّلَامَ، اشْتَرَكَ فِي الْأَجْرِ، وَإِنْ أَبَى الْآخَرُ أَنْ يردَّ السَّلَامَ، بَرَى هَذَا مِنَ الْإِثْمِ، وَبَاءَ بِهِ الْآخَرُ، وَقَدْ خَشِيتُ إِنْ مَاتَا وَهُمَا مُتَهَاجِرَانِ إِلَّا يَجْتَمِعَا فِي الْجَنَّةِ» (١).

تَأْسَفُ حَقِيقَةً حِينَمَا تَرَى أَقْرَبَ النَّاسِ وَهُمْ فِي حَالِ خُصُومَةٍ: وَالِدٍ مَعَ وَلَدِهِ، زَوْجٍ مَعَ زَوْجَتِهِ، يَقُولُ: لِي ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ الْآنَ وَأَنَا فِي الْبَيْتِ لَا أَكَلِّمُ زَوْجَتِي، وَلَا تُكَلِّمُنِي، كَيْفَ يَعِيشُ هَذَا؟!

يَقُولُ: لِي ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ أَوْ أَرْبَعٌ لَا أَكَلِّمُ وَالِدِي، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟ كَيْفَ يَحْضُلُ إِلَّا يَتَكَلَّمَ الْإِمَامُ وَالْمَوْذَنْ فِي الْمَسْجِدِ الْوَاحِدِ!

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٧٨/٨) برقم: [٨٩٣٠]، وصحَّه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» برقم: [١٨٠/٤]. [٧٢٩١].

كَيْفَ يَحْصُلُ إِلَّا يَتَكَلَّمَ الرَّئِيسُ وَالْمَرْوُوسُ فِي الدَّائِرَةِ الْوَاحِدَةِ؟ كَيْفَ يَتَفَاهَمُونَ؟ كَيْفَ تَنْهَضُ الْأُمَّةُ؟

وَأَخْتِمُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ - قَالَ مَعْمَرٌ: وَقَالَ غَيْرُ سُهَيْلٍ - وَتُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، فَيَغْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، إِلَّا الْمُتَشَاحِنِينَ، يَقُولُ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ذَرُوهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا» (١).

الْأُمَّةُ كُلُّهَا يُغْفَرُ لَهَا إِلَّا الْمُشْرِكِ، وَهَذَا الْمُشَاحِنَ الَّذِي شُحِنَ صَدْرُهُ غَيْظًا، وَغِيلاً، وَحَسَدًا، وَبُغْضًا لِأَخِيهِ.

إِذَا، هَذِهِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، أَرْجُو أَنْ نَجِدَ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا، وَيَفْعَلُهَا، وَيَجْعَلُ لَهَا مَرَائِزَ وَهَيْئَاتٍ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الْعَظِيمَةِ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَائِيَاهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَضْحَكَكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟! قَالَ: «رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثِيًا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّ الْعِزَّةِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ، خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي. فَقَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِلطَّالِبِ: فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي». قَالَ: وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ ذَاكَ الْيَوْمَ عَظِيمٌ، يَحْتَاجُ النَّاسُ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٧٧/١٣) برقم: [٧٦٣٩]، وأخرجه أبو داود في «سننه» (باب فِيمَنْ يَهْجُرُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)

(٢٧٩/٤) برقم: [٣٩١٦]، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٣٨٢/١٠) برقم: [٧٣٣٨].

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ: اِرْفَعْ بَصْرَكَ، فَانظُرْ فِي الْجَنَانِ.
 فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَرَى مَدَائِنَ مِنْ ذَهَبٍ، وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ،
 مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ، لِأَيِّ نَبِيِّ هَذَا؟ أَوْ لِأَيِّ صَدِيقٍ هَذَا؟ أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟
 قَالَ: هَذَا لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ
 تَمْلِكُهُ. قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ
 عَنْهُ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَخُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: «اتَّقُوا اللهَ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ
 تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَقَالَ:
 هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ»،
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا الْقِصَاصُ فِي الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٦٢٠/٤)، برقم: [٨٧١٨].

٤٧

كونوا محه

عباد الله ...

عُنْوَانُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ: «كُونُوا مَعَهُ».

كُونُوا مَعَهُ، فَإِنَّهُ فِي حَاجَتِكُمْ، كُونُوا مَعَهُ وَلَا تَخْلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ،
فَإِنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ.

كُونُوا مَعَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَعَهُ.

كُونُوا مَعَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِلَهُ، وَفَرِحَ بِهِ، وَفَتَحَ لَهُ بَابًا عَظِيمًا.

كُونُوا مَعَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَهُ.

كُونُوا مَعَ التَّائِبِ الْعَائِدِ الْمُنِيبِ.

كُونُوا مَعَ الْمُسْتَغْفِرِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ رِقِّ جِنَايَتِهِ.

فَلنُكُنْ مَعَ التَّائِبِ الَّذِي أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتُوبَ إِلَيْهِ.

لَا بُدَّ أَنْ نَكُونَ مَعَهُ، نَحْتَوِيهِ، وَنَحْتَضِنُهُ.

كُونُوا مَعَ التَّائِبِ، فَإِنَّهُ فِي حَاجَتِكُمْ، لَا تَتْرُكُوهُ إِلَى أَعْدَائِهِ الَّذِينَ

يَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ.

قَدْ يَكُونُ هَذَا التَّائِبُ وَالَّذِي كَانَ فِي غَفْلَةٍ فِي مَعْصِيَةٍ، فَأَرَادَ

أَنْ يَتُوبَ فَأَقْبَلَهُ.

قَدْ يَكُونُ هَذَا التَّائِبُ ابْنَكَ الَّذِي عَاشَ فِي مُسْتَنْقَعِ الرِّذَائِلِ، ثُمَّ أَرَادَ

اللَّهُ لَهُ الْخَيْرَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْكَ فَأَقْبَلَهُ.

قَدْ تَكُونُ هَذِهِ امْرَأَةً عَاشَتْ رَدْحًا مِنَ السِّنِينَ وَهِيَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَعُودَ الْآنَ إِلَى اللَّهِ، لَا بُدَّ أَنْ نَقْبَلَ بِهَا فِي الْمَجْتَمَعِ. نَعَمْ كُونُوا مَعَهُ، وَكَيْفَ لَا نَكُونُ مَعَهُ وَالْمَعْصِيَةُ وَالذَّنْبُ مِنْ طَبِيعَةِ ابْنِ آدَمَ، يَقُولُ نَبِيُّنا ﷺ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ: الْفَيْئَةُ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِرَ ذَكَرَ» (١).

أَنَا وَإِيَّاكُمْ كُنَّا ذَوُو خَطَاٍ، كُنَّا صَاحِبِ ذَنْبٍ، اللَّهُ ﷻ يُخْبِرُنَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ أَنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْئَةُ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، أَوْ ذَنْبٌ مُقِيمٌ عَلَيْهِ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا، وَالسَّبَبُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا، مُعَرَّضًا لِمَتَحَانٍ، تَوَابًا نَسِيًّا، يَتُوبُ وَيَنْسَى، إِذَا ذُكِرَ ذَكَرَ.

وَكُنَّا يَحْفَظُ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَابُونَ» (٢).

فَكُونِي وَإِيَّاكَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَالْخَطَاُ مِنْ طَبِيعَتِنَا، فَلْنَقْبَلْ هَذَا التَّائِبَ عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ، وَعَلَى مُسْتَوَى الْجَمَاعَاتِ، هَذَا إِذَا عَادَ لَا بُدَّ أَنْ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠٤/١١) برقم: [١١٨١٠]، وَصَحَّحَهُ الْأَبْنَانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (١٠٠٠/٢) برقم: [٥٧٣٠]، وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٤٤/٢٠) برقم: [١٣٠٤٩]، وَأَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي «سننه» (باب: فِي التَّوْبَةِ) (١٧٩٣/٣) برقم: [٢٧٦٩]، وَحَسَّنَهُ الْأَبْنَانِيُّ فِي «صحيح الجامع» (٨٣١/٢) برقم: [٤٥١٢]، وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ.

نَحْتَضِنُهُ، وَنَحْتَوِيهِ، وَإِلَّا سَيَتَرَبَّصُ بِهِ أَعْدَاؤُهُ.

عباد الله ... لماذا نَقْبَلُ بِالتَّائِبِ؟

لِأَسْبَابٍ أَرْبَعَةٍ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ قَبْلَهُ، فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ الْمَخْلُوقِينَ، اللَّهُ

قَبْلَ بِهِ إِذَا أَنَابَ إِلَيْهِ وَرَجَعَ.

وَالدَّلِيلُ: يَقُولُ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وَفِي سُورَةِ الشُّورَى يَقُولُ الْمَوْلَى ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ

عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

بَلْ هُنَاكَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ

نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

مَنْ نَحْنُ حَتَّى نَقِفَ بَيْنَ هَذَا التَّائِبِ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةِ الْمُسَدَّاتِ مِنَ اللَّهِ

لِهَذَا الْعَبْدِ. ﷻ

إِذَنْ، نَقْبَلُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَبِلَ بِهِ.

نَقْبَلُ بِهِ وَنَفْرَحُ بِتَوْبَتِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَفْرَحُ بِهِ، هَلْ تَتَصَوَّرُوا أَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ

العَظِيمَ الَّذِي عَصَاهُ هَذَا الْمَخْلُوقُ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ؛ فَرَحَ بِهِ.

يَقُولُ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ

أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ، إِذَا وَجَدَهَا» (١).

وَهَذِهِ رَوَايَةٌ مُخْتَصِرَةٌ عِنْدَ مُسْلِمٍ، أَصْلُهَا قِصَّةُ ذَاكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِي مَفَازَةِ (صَحْرَاءَ، أَرْضٍ قَفْرًا)، وَمَعَهُ دَابَّتُهُ عَلَيْهِا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ. فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، فَإِذَا بِالرَّاحِلَةِ ذَهَبَتْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَأَيَّقَنَ بِالْهَلَاكِ. بَحَثَ عَنْهَا يَمَنَّةً وَيَسْرَةً مَا وَجَدَهَا، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَيَّ الشَّجَرَةَ، وَأَنَا مَعِنَا، وَأَمُوتُ فِي ظِلِّهَا. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، وَجَدَ هَذِهِ النَّاقَةَ مَوْجُودَةً عَلَيْهِا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَرِحَ فَرِحًا شَدِيدًا حَتَّى أَنَّهُ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ! نَبِينَا ﷺ يَقُولُ: «أَمَّا وَاللَّهِ، لِلَّهِ أَشَدُّ فَرِحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ» (٢). اللَّهُ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ.

فَلَمَّاذَا نَحَزْنَا لَمَّا يَتُوبُ فُلَانٌ إِلَى اللَّهِ؟ مَا نَقْبَلُ بِهِ! هَذَا غَرِيبٌ، اللَّهُ يَفْرَحُ بِهِ، وَيَقْبَلُهُ، وَنَحْنُ نَرْفُضُهُ!

السَّبَبُ الثَّانِي: نَقْبَلُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ فَتَحَ لَهُ بَابًا عَظِيمًا سَمَّاهُ بَابَ التَّوْبَةِ، يَقُولُ نَبِينَا ﷺ فِي حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ: «إِنَّ مِنْ قِبَلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَابًا مَفْتُوحًا، عَرْضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ، لَمْ يَنْفَعِ نَفْسًا

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فِي الْحَضِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا) (٢١٠٢/٤) برقم: [٢٦٧٥].

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فِي الْحَضِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا) (٢١٠٤/٤) برقم: [٢٧٤٦].

إِيمَانُهَا، لَمْ تَكُنْ آمَنْتَ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبْتَ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا» (١).

نعم يا عباد الله، سَعَةِ هَذَا الْبَابِ، مَسِيرَةٌ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ سَبْعُونَ سَنَةً، لَمَنْ؟ لِهَذَا الْعَاصِي الَّذِي تَابَ إِلَىٰ مَوْلَاهُ، وَلِهَذَا الْمَذْنِبِ الَّذِي تَابَ إِلَىٰ رَبِّهِ.

أَيْنَ نَحْنُ مِنْ تِلْكَ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ، يَقُولُ الْمَوْلَىٰ ﷺ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

اللَّهُ يُخَاطِبُ الْمَذْنِبَ الَّذِي أَسْرَفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ يَقُولُ: لَا تَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ نُقْنَطُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَنَقُولُ: لَا فَائِدَةَ، خَلَاصٌ، انْتَهَى، سِنِينَ وَأَنْتَ عَاصٍ، كَيْفَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ الْآنَ؟ نَقُولُ ذَلِكَ بِالْإِسْتِنْتَا وَتَصَرُّفَاتِنَا، نَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ.

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: بَعْدَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ بِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَفْرَحُ بِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنَ التَّوْبَةِ، مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَدْعُونَا إِلَىٰ قَبُولِهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَنَا بِذَلِكَ.

هَذِهِ ثَلَاثُ قِصَصٍ:

* الْأُولَى يَرْوِيهَا لَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عِنْدَ النَّسَائِيِّ، يَقُولُ: كَانَ رَجُلٌ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٣٦٩/٢) برقم: [٨٢]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا) (١٣٥٣/٢) برقم: [٤٠٧٠]، حَسَنَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧١/٢) برقم: [٤١٨٨]، وَاللَّفْظُ لِابْنِ مَاجَه.

مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ، وَلَحِقَ بِالشَّرِكِ ثُمَّ تَنَدَّمَ.
تَصَوَّرَ إِنْسَانٌ يُسَلِّمُ، وَيَرَى النَّبِيَّ ﷺ، وَيُصَلِّي مَعَهُ، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ
وَيَمْشِي مَعَهُ، فَإِذَا بِهِ يَرْتَدُّ وَيَلْحَقُ بِالشَّرِكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ عَلَى هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ،
فَإِذَا بِهِ يَكْتُبُ كِتَابًا إِلَى قَوْمِهِ، يَقُولُ: سَلُّوا لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: هَلْ لِي مِنْ
تَوْبَةٍ؟

فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ،
وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟

سَكَتَ ﷺ، لَأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، الشَّرْعُ يُحَرِّكُهُ، وَلَيْسَتْ
الْعَاطِفَةُ، سَكَتَ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْجَوَابَ، فَإِذَا بآيَاتِ الرَّحْمَنِ تَنَزَّلَ عَلَى
النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ، آيَاتٌ عَظِيمَةٌ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَطَّلَعُهَا
وَخَاتِمَتُهَا، يَقُولُ الْمَوْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ.

الْمُجْتَمَعُ يَقْبَلُ بِهِ، النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُنَا أَنْ نَقْبَلَ بِهَذَا التَّائِبِ، رَاجِعٌ مِنْ

رِدَّةٍ وَشَرِكٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقْبَلُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ .

* وَفِي حَدِيثٍ وَقِصَّةٍ أُخْرَى: يُؤْتَى بِرَجُلٍ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُؤْتَى بِهِ، فَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: «اضْرِبُوهُ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ.

قَالَ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ»^(١). أَيُّ دِينٍ عَظِيمٍ مِثْلَ هَذَا الدِّينِ! لَقَدْ جِيَءَ بِهِ قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَأَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ، نَعَمْ، أَقْمَنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، انْتَهَتْ الْقَضِيَّةُ، الْمُجْتَمَعُ يَجِبُ أَنْ يَقْبَلَ بِهِ، لَا يَنْدُهُ الْمُجْتَمَعُ، مَا يَتْرُكُهُ، لَا بُدَّ أَنَّ الْمُجْتَمَعُ يَقْبَلُ بِهِؤُلَاءِ، لَمَنْ يَذْهَبُونَ؟!

* وَكُنَّا نَعْرِفُ تِلْكَ الْقِصَّةَ، قِصَّةَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، جَاءَ أَهْلُهَا يَسْتَشْفِعُونَ يَطْلُبُونَ الْوَاسِطَةَ، لَا فَائِدَةَ، قَطَعَ يَدَهَا النَّبِيُّ ﷺ، تَصَوَّرَ امْرَأَةً فِي الْمُجْتَمَعِ مَقْطُوعَةَ يَدَيْهَا بِسَبَبِ السَّرِقَةِ قُطِعَتْ يَدَاهَا.

فِي خَاتِمَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ: تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ الْبُخَارِيِّ: فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا وَتَزَوَّجَتْ، وَجَدْتُ مَنْ يَقْبَلُ بِهَا كَزَوْجَةٍ، وَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: الضَّرْبُ بِالْجَرِيدِ وَالنُّعَالِ) (١٥٨/٨) برقم: [٦٧٧٧].

إِذَا، لَا بُدَّ أَنْ نَكُونَ مَعَ هَذَا الْعَائِدِ الْأَمِينِ الرَّاجِعِ إِلَىٰ مَوْلَاهُ، فَإِنَّا
بِذَلِكَ نُعِينُهُ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّوْبَةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَىٰ مَوْلَاهُ.
قَدْ يَكُونُ هَذَا الْإِنْسَانُ الَّذِي وَقَعَ فِي الذَّنْبِ لَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ
بَعْدَ اللَّهِ.

قَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ ذَنْبٌ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِ وَهُوَ وَقَعَ فِيهِ فِي الْخَفَاءِ عَنْ أَعْيُنِ
النَّاسِ.

الْوَاجِبُ فِي حَقِّكَ بَعْدَ مُنَاصَحَتِهِ السِّرِّ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ فَضْحِهِ، وَعَدَمُ
كَشْفِهِ، فَإِنَّ فِي الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ جَاءَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
حَيِّي سِتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّرَّ» (١).

مَنْ فِيْنَا بَغَيْرِ ذَنْبٍ؟

الآن فِي هَذَا الْجَامِعِ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: أَنَا بَغَيْرِ ذَنْبٍ، كُنَّا صَاحِبُ
ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، يَعْظُمُ هَذَا الذَّنْبُ وَيَصْغُرُ، فَإِذَا عَلِمْتَ مِنْ أَخِيكَ أَنَّهُ وَقَعَ
فِي ذَنْبٍ فَنَاصَحْهُ، وَحَاوِلْ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ، وَلَا تَفْضَحْهُ، فَإِنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّىٰ يَفْضَحَ بِهَا فِي

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: النَّهْيُ عَنِ التَّعَرِّيِّ) (٣٩/٤) برقم: [٤٠١٢]، وأخرجه النسائي في «سننه» (باب: الإِسْتِثَارِ عِنْدَ الإِغْتِسَالِ) (٢٠٠/١) برقم: [٤٠٦]، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٣٩/١) برقم: [٤٤٧]، واللفظ لأبي داود.

إِذَا، هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَعَامَلَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُقْبِلِينَ عَلَى اللَّهِ ﷻ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: السُّبْرُ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَدَفْعُ الْحُدُودِ بِالشُّبُهَاتِ) (٨٥٠/٢) برقم: [٢٥٤٦]، وَضَعَفَهُ الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٤٥١/٥).

٤٨

لماذا نكسل عن العبادة

عباد الله ...

إِنَّ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَكُلَّمَا قَوِيَتْ هَذِهِ الْعِبَادَةُ؛
قَوِيَتْ صِلَةُ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ هَذِهِ الْعِبَادَةُ؛ ضَعُفَتِ الصِّلَةُ
وَتَرَاخَتْ، وَرُبَّمَا مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ تَلَاشَتْ.

والم تأمل في واقعنا اليوم يشهد أننا في كثير من المواطن ومع كثير
من العبادات والطاعات نكسل ونعجز، فأردت أن أقول في هذه الخطبة:
«لماذا نكسل عن العبادة؟»

وأضع الأسباب، وبمعرفة الأسباب، يأتي العلاج.

لماذا نكسل عن الطاعة؟

ولا أقول: لماذا تكسل أنت، وإنما أقول: لماذا نكسل كلنا؟

لأننا مبتلون جميعاً بالكسل عن بعض الطاعات والعبادات، سواء
المتكلم أو السامع، عندنا جوانب من الكسل عن بعض الطاعات
والعبادات، واخترنا هذا الموضع؛ لأن النبي ﷺ مع ما عرف منه من
النشاط في العبادات والطاعات إلا أنه كان يتعوذ من العجز والكسل.

جاء في «صحيح البخاري»، من حديث أنس قال: كان رسول الله

يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»^(١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب [] (٢٣/٤) برقم: [٢٨٢٣]، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب:

التعوذ من العجز والكسل وغيره) (٢٠٧٩/٤) برقم: [٢٧٠٦]،

عبد الله ... متى آخر مرة دعوت بهذا الدعاء؟ متى قلت مُعْتَرِفًا
بِعَجْزِكَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، أَهْوَ غُرُورٌ مِنَّا؟!
نَبِيًّا ﷺ الَّذِي نَالَ الْكَمَالَ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ:
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ».

فَأَنْتَ وَأَنَا مَتَى آخِرَ مَرَّةٍ قُلْنَا هَذَا الدُّعَاءَ؟ أَتَذْكُرُ أَنَّكَ قُلْتَهُ صَادِقًا
مُجْتَهِدًا مُتَحَرِّيًا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ.
لماذا هذا الموضوع؟ لَأَنَّ الْعَجْزَ عَنِ الطَّاعَةِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ
الْمُنَافِقِينَ، اللَّهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وَيَقُولُ ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ
كَارَهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وَفِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ»، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: «صَلَّى بِنَا
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا الصُّبْحَ، فَقَالَ: «أَشَاهِدُ فُلَانٌ؟»،
قَالُوا: لَا.

قَالَ: «أَشَاهِدُ فُلَانٌ؟». قَالُوا: لَا. قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ أَثْقَلُ

الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا، وَلَوْ حَبَوًّا
عَلَى الرُّكْبِ» (١).

إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ أَنَّنَا لَوْ كُشِفَ لَنَا الْأَجْرُ الْمُتَرْتَّبُ عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ
وَالْعِشَاءِ فِي جَمَاعَةٍ لِأَتَيْنَاهَا حَبَوًّا عَلَى الرُّكْبِ.
الْيَوْمَ الْجُمُعَةَ أَصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: كَمْ مِنْ مُصَلِّ
سَيُصَلِّي صَلَاةَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ لَمْ يُصَلِّ الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ! عَلِمًا بِأَنَّ صَلَاةَ
الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي جَمَاعَةٍ هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ
ﷺ فِي قَوْلِهِ: «أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللَّهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي
جَمَاعَةٍ» (٢).

وَمَعَ ذَلِكَ نَرَى الْعَجْزَ وَالْكَسَلَ، عَلِمًا أَنَّنَا بَعْدَ أَيَّامٍ سَنَرَى تَحَوُّلاً فِي
حَالِ النَّاسِ مِنْ هَذَا الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ، إِذَا أُعْلِنَ فِي اللَّيْلِ
أَنَّ غَدًا رَمَضَانُ، سَيَأْتِي لِلنَّاسِ نَشَاطٌ، وَلَكِنَّهُ مُزَيَّفٌ، وَسَتَمْتَلِئُ الْمَسَاجِدُ
فِي فَجْرِ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَسَيُصَلِّي بَعْضُ النَّاسِ خَارِجَ الْمَسَاجِدِ.
مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا النَّشَاطُ؟
وَأَيْنَ ذَهَبَ الْعَجْزُ وَالْكَسَلُ بِالْأَمْسِ!؟

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: فِي فَضْلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ) (١٥١/١) برقم: [٥٥٤]، وَحَسَنَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَشْكَاتِ
المصابيح» (٣٣٥/١) برقم: [١٠٦٦].

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (١٠٦/٤) برقم: [١٢٧٩]، وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٤٤١/٤) برقم: [٢٧٨٣]،
وَأَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» (٢٠٧/٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٩١/٤) برقم: [١٥٦٦].

لماذا نكسل عن الطاعة ونعجز عنها؟

لثلاثة أسباب :

السبب الأول: نعجز ونتكاسل عن الطاعة والعبادة؛ لأننا متلوثون بالمعاصي والذنوب، المعصية تلوث، والذنوب يلوث، ومن عاقبة الذنب أنه يحرمك الطاعة.

تجد نفسك عامًا كاملاً ما قرأت القرآن، وما صليت الوتر، آخر عهدك بالوتر وصلاة التراويح في رمضان الماضي، عهدك بصلاة الضحى من عامين أو ثلاث بسبب الذنوب.

وليس بالضرورة أن يكون الذنب الذي يحرم من الطاعة من كبائر الذنوب، ليس بالضرورة أن يكون الذنب شرب خمر، وزنا، وربا، حتى الذنوب الصغيرة تحرم الطاعة، وسيأتي بيان ذلك.

يقول المولى رحمته الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وأي مصيبة أعظم من العجز والكسل عن الطاعات، حتى الصغيرة منها يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذابعود، وجاء ذابعود حتى أنضجوا

خَبِرْتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ» (١).

وَاسْمَعُوا إِلَى هَذِهِ الْأَثَارِ الْمُضِيئَةِ عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ :

يَأْتِي رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَيَقُولُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي
أَبَيْتُ مُعَافَى، وَأَحْبَبُّ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَأَعْدُّ طُهُورِي، فَمَا بَالِي لَا أَقُومُ؟
قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «ذُنُوبُكَ قَيَّدَتْكَ».

نَعَمْ، أَخَذْتَ بِجَانِبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَلَكِنَّكَ أَهْمَلْتَ أَسْبَابًا أَهَمَّ،
الذُّنُوبُ تُكَبِّلُ، تُقَيِّدُ، تَحْجُزُ الْعَبْدَ عَنِ الْقِيَامِ وَالنَّشَاطِ فِي الطَّاعَةِ.
وَاسْمَعُوا لِهَذَا الْأَثَرِ الْعَظِيمِ :

يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْعَابِدُ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: «حُرِّمَتْ قِيَامَ سِتَّةِ
أَشْهُرٍ بِذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ».

ذَنْبٌ وَاحِدٌ حَرَمَهُ قِيَامَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ يَتَكَاسَلُ، يُشْغَلُ
سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَقَالُوا لِلسُّفْيَانِ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: «رَأَيْتُ رَجُلًا بَكَى، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا مُرَاءٍ».

رَأَى رَجُلًا يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: هَذَا كَذَّابٌ وَمُرَاءٍ،
مَا سَمِعَهَا أَحَدٌ، مَا أَعْلَنَهَا فِي جِهَازٍ إِعْلَانِيٍّ، مَا اتَّهَمَ بِهَا صَاحِبَهَا فِي
مَجْلِسٍ، قَالَهَا فِي نَفْسِهِ، فَحَرَّمَ عَلَيَّ إِثْرَ هَذَا الظَّنِّ السَّيِّئِ قِيَامَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٦٦/٣٧) برقم: [٢٢٨٠٨]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢١٩/٧) برقم:
[٧٣٢٣]، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٣/١) برقم: [٢٦٨٧].

يَقُولُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَفُوتُ أَحَدًا صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا بِذَنْبٍ أَوْ ذَنْبَةً».

وَإِذَا أَرَدْتَ الْكَلَامَ الْقِيَمَ، فَادْهَبْ إِلَى كُتُبِ ابْنِ الْقِيَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَخُذْ هَذَا الْكَلَامَ النَّفِيسَ مِنْ كِتَابِهِ «الْجَوَابُ الْكَافِي»، قَالَ: «وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا (أَي: الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي)، أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تُوَقِّفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ، فَلَا تَدْعُهُ يَخْطُو إِلَى اللَّهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وَجْهَتِهِ إِلَى الْوَرَاءِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ يَحْجُبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنْكِثُ الطَّالِبَ».

يَقُولُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، وَصِيَامِ النَّهَارِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ مُكَبَّلٌ، كَبَلَّتَكَ خَطِيئَتُكَ».

كَلَامٌ نَفِيسٌ، كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، أَنَّ الذَّنْبَ وَإِنْ كَانَ يَسِيرًا، يَحْرِمُ الطَّاعَةَ، لِهَذَا قِيلَ: كَمْ مِنْ أَكَلَةٍ مَنَعَتْ قِيَامَ لَيْلَةٍ، وَكَمْ مِنْ نَظْرَةٍ مَنَعَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لِيَأْكُلُ الْأَكْلَةَ أَوْ يَفْعَلَ الْفِعْلَ فَيُحْرَمُ قِيَامَ سَنَةٍ، وَكَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، كَذَلِكَ الْفَحْشَاءُ تَنْهَى عَنِ الصَّلَاةِ، وَسَائِرِ الْخَيْرَاتِ.

إِذَا، هَذَا سَبَبٌ رَيْسٌ: أَنَّ الذَّنْبَ يُكْسِلُ عَنِ الطَّاعَةِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: عَدَمُ مَعْرِفَةِ الْأَجْرِ الْمُرْتَبِّ عَلَى الطَّاعَةِ: الَّذِي مَا

يَعْرِفُ الْأَجْرَ الْمُرْتَبَ عَلَى الطَّاعَةِ، مَا يُقْبَلُ عَلَى الطَّاعَةِ بِهِمْ، وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ يُقْبَلُ كَسْلَانًا.

لِذَا، عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَقْرَأَ وَيَتَعَلَّمَ أَجْرَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَفْعَلُهَا، وَأَنَا أَذْكَرُ بَعْضَهَا بِغَيْرِ تَرْتِيبٍ، بَعْضَ الْعِبَادَاتِ وَأَجُورَهَا الَّتِي يَكْسُلُ عَنْهَا النَّاسُ:

* طَلَبُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ: يَعْنِي أَنْتَ فِي بَيْتِكَ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فِيهِ دَرْسٌ، وَهَذَا الْمَسْجِدُ بَعْدَ الصَّلَاةِ مَا فِيهِ دَرْسٌ، فَكَصَدْتَ الْمَسْجِدَ الَّذِي بِهِ دَرْسٌ بَعْدَ الصَّلَاةِ، أَتَدْرِي مَا هُوَ أَجْرُكَ؟

جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي «مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ»، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يَعْلَمَهُ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حِجَّتُهُ» (١).

كُلُّ مَرَّةٍ يَرْجِعُ بِأَجْرِ حِجَّةٍ، هَذَا مِثَالٌ، عِلْمُكَ بِالْأَجْرِ الْمُرْتَبِ يَدْفَعُ إِلَى الْعَمَلِ وَالنَّشَاطِ.

صُورَةٌ ثَانِيَةٌ: كَمْ مِنْ وَاحِدٍ مِّنَّا الْيَوْمَ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ تَوَضَّأَ، وَآتَى بِالْأَذْكَارِ الَّتِي تُقَالُ بَعْدَ الْوُضُوءِ؟ خُذُوا وَاحِدًا مِّنْ هَذِهِ الْأَذْكَارِ:

جَاءَ فِي «سُنَنِ النَّسَائِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤/٨) برقم: [٧٤٧٣]، وصحَّحه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (١٦٩/١) برقم: [٣١١].

«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» (١)، عَمَلٌ يَسِيرٌ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.

نُموذجٌ ثالثٌ: لِمَنْ يَتَقَاعَسُ وَيَتَكَاسَلُ وَيَعْجُزُ عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، وَيُصَلِّيَهَا فِي الْبَيْتِ أَوْ الدُّكَّانِ إِذَا سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْشَطَ:

جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ» (٢).

خَمْسُ صَلَوَاتٍ، خَمْسُ حَجَّاتٍ يَوْمِيًّا.

الآن إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، بَعْضُ النَّاسِ يَتَقَاعَسُ عَنْ سَدِّ الْفُرْجِ، هَذِهِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ، لَوْ عَلِمَ الْأَجْرَ الْمُتَرْتَّبَ عَلَيْهِ لَأَنْدَفَعَ وَسَابَقَ غَيْرُهُ إِلَى الْأَمَامِ، قَالَ ﷺ: «مَنْ سَدَّ فُرْجَةً فِي صَفٍّ، رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَبَنَى لَهُ

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (باب: مَا يُقَالُ بَعْدَ الوُضُوءِ) (٧٧/١) برقم: [٥٥]، وأخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٤٠/١) برقم: [٣٨٦].

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (باب: مَا جَاءَ فِيَقْضِلِ الْمَشِي إِلَى الصَّلَاةِ) (١٥٣/١) برقم: [٥٥٨]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٢/٨) برقم: [٧٧٥٥]، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٢٧/١) برقم: [٧٢٨].

بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(١)،

الْمُتَقَاعِسُونَ عَنْ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ إِلَى الْآنَ، وَكَانَ لَهُ أَنْ يَقْرَأَهَا مِنْ الْبَارِحَةِ، وَمَا قَرَأَهَا إِلَى الْآنَ، وَبَعْدَ الْخُطْبَةِ يَتَقَاعَسُ، إِذَا عَلِمَ الْأَجْرَ الْمُتَرْتَبَ سَيَنْشِطُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ»^(٢).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّنَا نَحْتَاجُ إِلَى نُورٍ؛ لِأَنَّ عَلَى الصِّرَاطِ ظُلْمَةً، وَفِي الْمَحْشَرِ ظُلْمَةٌ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى نُورٍ، يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ كَمَا قَالَ رَبُّنَا ﷻ: ﴿انظُرُوا نَارًا تَلْبَسُ مِنْ نُورِكُمْ﴾، فَيَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ فَيَأْتِيهِ هَذَا النُّورُ مِنْ مَكَانِهِ إِلَى مَكَّةَ، كُلُّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ الطَّوِيلَةِ تَكُونُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. هَذِهِ بَعْضُ نَمَازِجِ أُجُورِ الْعِبَادَاتِ.

يَقُولُ الشَّافِعِيُّ رحمه الله: «مَا شَبِعْتُ مُنْذَ سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَاطَّرَحْتُهَا»، فَقِيلَ لَهُ: لِمَاذَا؟ قَالَ: «فَإِنَّ الشَّبَعَ يُثْقِلُ الْبَدَنَ، وَيُزِيلُ الْفِطْنَةَ، وَيَجْلِبُ النَّوْمَ، وَيُضْعِفُ صَاحِبَهُ عَنِ الْعِبَادَةِ». نَعَمْ، مِنْ أَسْبَابِ التَّكَاسُلِ وَالْعَجْزِ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ: الْمَعْصِيَةُ، وَعَدَمُ مَعْرِفَةِ الْأَجْرِ الْمُتَرْتَبِ عَلَى الطَّاعَةِ.

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١/٦) برقم: [٥٧٩٧]، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٣/٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٢٣/٢) برقم: [١٤٥٥]، وأخرجه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین»

برقم: [٧٥٢/١]، وصحَّحه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣١٢/٦) برقم: [٢٦٥١].

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: نِسْيَانُ الْمَوْتِ: إِذَا نَسِيَ الْإِنْسَانُ الْمَوْتَ كَسِلَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَإِذَا تَذَكَّرَ الْمَوْتَ عَلَى الدَّوَامِ؛ نَشِطَ فِي عِبَادَتِهِ. هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ، وَهَذَا الْبَابُ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ، لَكِنِّي أَكْتَفِي بِمَا ذَكَرَهُ أَبُو حَامِدٍ اللَّفَّافُ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، أُكْرِمَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَعْجِيلُ التَّوْبَةِ، وَقِنَاعَةُ الْقُوْتِ، وَنَشَاطُ الْعِبَادَةِ.

وَمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ عُوقِبَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَسْوِيفُ التَّوْبَةِ، وَتَرْكُ الرِّضَا بِالْكَفَافِ، وَالتَّكَاثُلُ عَنِ الْعِبَادَةِ».

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٤٩

مقَاعَةُ النَّارِ ... لِمَنِ؟

عباد الله ...

رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ، لِيَزِدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ» (١).

وَعِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ يَقُولُ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]» (٢).

نَأْخُذُ مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ أَنَّ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مَنَازِلَ وَمَقَاعِدَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَّ لِلْعُصَاةِ مَنَازِلَ وَمَقَاعِدَ فِي النَّارِ.

تَحَدَّثْتُ فِي الْأُسْبُوعِ الَّذِي مَضَى عَنِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْنِيَ لَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَذَكَرْتُ لَكَ عَشْرَ وَسَائِلَ مَتَى مَا أَخَذْتَ بِهَا مَعَ يُسْرِهَا؛ فَإِنَّكَ تُعَمِّرُ تِلْكَ الدَّارَ بِتِلْكَ الْبُيُوتِ وَالْقُصُورِ.

وَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنْ أَخْطَاءٍ، وَذُنُوبٍ، وَمَعَاصٍ، وَأَثَامٍ، مَنْ وَقَعَ فِيهَا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى لَا تَمِيلَ الْكِفَّةُ، وَنُدْرِكَ مَا لَنَا إِذَا أَطَعْنَا اللَّهَ،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: صِفَةُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) (١١٧/٨) برقم: [٦٥٦٩].

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: صِفَةُ الْجَنَّةِ) (١٤٥٣/٢) برقم: [٤٣٤١]، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»

(٢٦٥/١)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (٣٤٨/٥) برقم: [٢٢٧٩].

وَيُذْرِكُ الْبَعِيدُ مَاذَا لَهُ فِي النَّارِ إِذَا عَصَى اللَّهَ.
وَأَذَكَّرْكُمْ وَنَفْسِي بِأَرْبَعَةِ أَخْطَاءٍ مَتَى مَا وَقَعَ فِيهَا الْعَبْدُ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ
قَدْ بَوَّأَ لِنَفْسِهِ مَقْعَدًا فِي جَهَنَّمَ:

الأوّل: الكذب على النبي ﷺ، فَإِنَّ مَنْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ عَلَى النَّبِيِّ
ﷺ؛ يُبْنِ لَهُ هُنَاكَ بَيْتًا فِي جَهَنَّمَ، وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ: هَلْ هُنَاكَ مَنْ يَتَعَمَّدُ
الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

أقول: نعم، هُنَاكَ مَنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فينسب إليها
أحاديث لم يقلها أو أحكاماً لم يأت بها دون أن يتحرى الدقة في نقلها
ونشرها بين الناس لذا قال ﷺ كما جاء في «صحيح البخاري» من
حديث المغيرة: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبِ عَلَيَّ أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ
مُتَعَمَّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (١).

وَكَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيِّ عِنْدَ
الإمام أحمد يقول ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ كَذِبَةً مُتَعَمَّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَضْجَعًا
مِنَ النَّارِ»، أو: «بَيْتًا فِي جَهَنَّمَ» (٢).

بَعْضُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْخُرَافَاتِ لَا يَتَوَرَّعُونَ مِنْ نَشْرِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: مَا يُكْرَهُ مِنَ النَّيِّاحَةِ عَلَى الْمَيِّتِ) (٨٠/٢) برقم: [١٢٩١]،
وأخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (١٠/١)
برقم: [٤].

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٠/٢٤)، وصحَّحه شعيب الأرنؤوط في تحقيق «مسند أحمد».



المَوْضُوعَةَ الْمُنْكَرَةَ، وَيَنْسِبُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، خَاصَّةً فِي بَعْضِ الْمُنَاسَبَاتِ، مِثْلَ أَيَّامِ رَجَبٍ وَيَسْتَحْدِثُونَ بِدَعَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا بِأَحَادِيثِ مُنْكَرَةٍ وَمَوْضُوعَةٍ يَنْسِبُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَرُبَّمَا بَعْضُ الْوُعَاظِ وَالْخُطَبَاءِ مِنْ بَابِ تَرْقِيقِ الْأَفْئِدَةِ وَدَعْوَةِ الْغَافِلِينَ الضَّالِّينَ يَسْتَحْدِثُ حَدِيثًا عَلَى هَوَاهُ يَرْقُقُ بِهِ الْقُلُوبَ يَنْسِبُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَذِبًا! وَهَذَا حَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ.

وَالْبَعْضُ يُرَدِّدُ أَقْوَالَ مَأْثُورَةً يَنْسِبُهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَمَا يَقُولُ: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الصِّينِ»، صَدَقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، وَهُوَ لَيْسَ حَدِيثًا مُسْنَدًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

أَوْ يَقُولُ: «السَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ آخَرَسٌ»، وَيَنْسِبُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.
أَوْ يَقُولُ: «الدِّينُ الْمَعَامَلَةُ».

أَوْ يَقُولُ: «النِّظَافَةُ مِنَ الْإِيْمَانِ».

أَوْ يَقُولُ: «الْحِفْظُ فِي الصَّغْرِ كَالنَّقْشِ عَلَى الْحَجَرِ».

أَوْ يَقُولُ: «خَيْرُ الْأَسْمَاءِ مَا عَبْدَ وَحَمَدَ».

وَيَنْسِبُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَهَذَا مِنَ الْخَطُورَةِ بِمَكَانٍ، وَأُنْبَهُ إِخْوَانِي أَيْضًا إِلَى مِثَالِ حَيٍّ، وَهُوَ مَا يَقُومُ بِهِ بَعْضُ الْإِخْوَةِ مِنْ إِرْسَالِ بَعْضِ الرَّسَائِلِ النَّصِيَّةِ عَبْرَ الْجَوَالِ،

أَوْ عَبْرَ الْبُرْدِ الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ يَضَعُ فِيهَا حَدِيثًا يَنْسِبُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَنَسْبَتُهُ لَا تَصِحُّ.

لِذَا، اخْذَرْ، لَا تُرْسِلْ حَدِيثًا لَا تَعْلَمُ صِحَّتَهُ، وَتَذَكَّرْ دَائِمًا «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ كِذْبَةً مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَضْجَعًا مِنَ النَّارِ»، أَوْ: «بَيْتًا فِي جَهَنَّمَ». إِذَا، هَذِهِ الْخَطِيئَةُ الْأُولَى.

الْخَطِيئَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي مَنْ وَقَعَ فِيهَا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّمَ: الْإِنْتِسَابُ إِلَى غَيْرِ الْآبَاءِ، أَوْ الْإِنْتِسَابُ إِلَى غَيْرِ الْعَائِلَةِ فِي ظِلِّ غِيَابٍ لِبَعْضِ التَّشْرِيعَاتِ وَالْقَوَانِينِ الَّتِي تَرَدُّعُ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ وَجَدْنَا مَنْ لَا يَتَوَرَّعُ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى نَسَبٍ أَوْ قَبِيلَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَيُّ عِلَاقَةٍ نَسَبٍ، أَوْ يَتَسَبَّبُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي حَجْمَ هَذِهِ الْكَارِثَةِ، وَحَجْمَ هَذَا الذَّنْبِ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ أَحَادِيثَ عَظِيمَةً، قَالَ ﷺ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِعَيْرِ أَبِيهِ - وَهُوَ يَعْلَمُهُ - إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (١).

يَعْرِفُهُ النَّاسُ، وَيَعْرِفُونَ آبَاءَهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً، وَهُوَ يَحْمِلُ هَذَا اللَّقْبَ، فَبَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا فَإِذَا هُوَ يَحْمِلُ لِقَبًا آخَرَ، أَيَجُوزُ هَذَا؟ هَذَا مِنَ الْإِثَامِ الْعَظِيمَةِ، خَاصَّةً إِذَا تَدَخَّلَ بَعْضُ مَنْ يَشْهَدُ زُورًا عَلَيَّ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (باب: نِسْبَةُ الْيَمَنِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ) (١٨٠/٤) برقم: [٣٥٠٨].

ذَلِكَ؛ لِأَنَّ بَعْضَ التَّشْرِيعَاتِ وَالْقَوَانِينِ تَكْتَفِي بِأَرْبَعَةِ شُهُودٍ، تَجَاوَزَتْ أَعْمَارُهُمُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، يَشْهَدُونَ لِفُلَانٍ أَنَّهُ مِنْ صُلْبِ فُلَانٍ، أَوْ مِنْ عَائِلَةِ فُلَانٍ؛ فَيَسْجَلُ بِاسْمِ الْعَائِلَةِ! هَذَا لَعِبٌ بِالْأَنْسَابِ، وَخَلَطٌ لِلْأَنْسَابِ.

يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ قَدْرِ سَبْعِينَ عَامًا»، أَوْ: «مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَامًا» (١).

بَلْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ» (٢).
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْفِرْيِ ثَلَاثَةٌ: أَنْ يَفْتَرِيَ الرَّجُلُ عَلَى عَيْنِيهِ، يَقُولُ: رَأَيْتُ وَلَمْ يَرَ، وَأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى وَالِدِيهِ، فَيَدَّعِي إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يَقُولُ: سَمِعَنِي وَلَمْ يَسْمَعْ مِنِّي» (٣).

الْفِرْيُ: أَيِ الْكَذْبِ، لَعِبٌ فِي الْأَنْسَابِ، وَيَتَّقِي مَا يَشَاءُ، وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَرَّعَ الْإِنْسَانُ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ لَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، النَّسَبُ لَيْسَ لَهُ قِيمَةٌ فِي الْآخِرَةِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَا أَنْسَابَ

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» (٤).

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٢/١١) برقم: [٦٥٩٢]، وأخرجه ابن ماجه في «سننه» (باب: مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ) (٨٧٠/٢) برقم: [٢٦١١]، وَصَحَّه الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (١٠٣٧/٢) برقم: [٥٩٨٤].

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٨/٤) برقم: [٣٦٨٣].

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩٠/٢٥) برقم: [١٦٠٠٨]، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١/٢٢).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: فَضْلُ الْاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذُّكْرِ) (٢٠٧٤/٤) برقم: [٢٦٩٩].

وَلَكِنَّهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِمَكَانٍ أَلَّا تَخْتَلِطَ الْأَنْسَابُ، وَعَلَى مَنْ
وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرَ الْأُمَّةِ، وَمَنْ عَاوَنَهُ فِي سِنِّ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى
أَنْسَابِ الْقَبَائِلِ، وَلَا يَجْعَلَهَا تَخْتَلِطُ بِشَهَادَةِ شُهُودِ الزُّورِ.

إِذَا، الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَالانْتِسَابُ إِلَى غَيْرِ الْأَبَاءِ، وَلَا أَنْسَى
أَنْ أُذَكَّرَ أَنَّ بَعْضَ الْإِخْوَةِ مِنْ بَابِ الْخَيْرِ يَكْفُلُ يَتِيمًا، فَيَنْسِبُهُ إِلَيْهِ، وَهَذَا
حَرَامٌ، اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، لَا تَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِكَ
إِذَا كَفَلْتَ يَتِيمًا.

الْخَطِيئَةُ الثَّلَاثَةُ: أَكَلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بِالْيَمِينِ الْكَاذِبِ، بِالْيَمِينِ
الْفَاجِرَةِ.

نَعَمْ هُنَاكَ مَنْ يَحْلِفُ الْإِيمَانَ الْمَغْلَظَةَ، وَيُقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ لِيَقْتَطَعَ
شَيْئًا يَسِيرًا مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ بِيَمِينِهِ هَذَا يَنْبِي لَهُ بَيْتًا فِي جَهَنَّمَ.
كَمْ مَعَنَا الْآنَ مَنْ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْمَصِيبَةِ؟
اقتطع حق زوجته بيمين كاذب..

أَوْ اقْتَطَعَ حَقَّ أَبْنَائِهِ بِيَمِينٍ كَاذِبٍ، أَوْ جِيرَانِهِ بِيَمِينٍ كَاذِبٍ.
أَوْ بَاعَ وَاشْتَرَى بِيَمِينٍ كَاذِبٍ سَمَّاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَمِينَ الْفَاجِرَةَ، فِيهَا
فُجُورٌ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ بْنِ الْبَرِّصَاءِ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنْ مَالِ
امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٍ، فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْتًا مِنَ النَّارِ» (١).

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذَكَرُ إِجَابِ دُخُولِ النَّارِ لِمَنْ ظَلَمَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَرْضًا
كَانَ أَوْ غَيْرَهَا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ يَسِيرًا تَأْفَهُهَا) (٥٧٠/١١)، برقم: [٥١٦٥].

شَبْرٌ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٌ عِنْدَ الْمَحْكَمَةِ يَقُولُ لَهُ الْقَاضِي: فَلَانَ يَدَّعِي أَنَّكَ
أَخَذْتَ مِنْهُ مَالًا.

يَقُولُ: مَا فَعَلْتُ، عِنْدَهُ بَيِّنَةٌ؟

قَالَ: مَا عِنْدَهُ بَيِّنَةٌ.

قَالَ: تَحْلِفُ؟

قَالَ: أَحْلِفُ بَدَلًا مِنَ الْمَرَّةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، أَقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ أَنَّي مَا
أَخَذْتُ مِنْ فَلَانٍ!

عِنْدَ بَابِ الْمَحْكَمَةِ فِي الْخَارِجِ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ،
وَيُظَنُّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مَقْبُولٌ، وَلَا يَدْرِي أَنَّ اسْتِغْفَارَهُ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ.
«مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنْ مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ فَاجِرَةٍ، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْتًا مِنْ
النَّارِ» (١).

وَيَقُولُ نَبِيْنَا ﷺ: «وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ
مِنَ النَّارِ» (٢).

وَيَقُولُ نَبِيْنَا ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ
اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (باب: ذَكَرُ إِجَابِ دُخُولِ النَّارِ لِمَنْ ظَلَمَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَرْضًا
كَانَ أَوْ غَيْرَهَا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ يَسِيرًا تَأْفِهُهَا) (٥٧٠/١١)، برقم: [٥١٦٥].

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: بَيَانِ حَالِ إِيمَانِ مَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (٧٩/١) برقم: [٦١].

رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَأِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ» (١).

وَإِنْ كَانَ مِسْوَاكًا أَخَذَهُ الْإِنْسَانُ بِيَمِينِ فَاجِرَةٍ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.

الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالانْتِسَابُ إِلَى غَيْرِ الْأَبَاءِ، وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةَ.

تُضَمُّ لَهَا هَذِهِ الرَّابِعَةُ، وَلَوْ تَرَكَتُمْ لَكُمْ الْمَجَالَ تَفَكَّرُونَ مَا هِيَ الرَّابِعَةُ، لَعَلَّكُمْ تَذْهَبُونَ بَعِيدًا عَنْهَا، وَلَا تَقْفُونَ عِنْدَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ مَنْ وَقَعَ فِيهَا، بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّمَ، وَلِيَتَّبِعُوا لَهُ مَقْعَدًا فِي جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ بَعِيدًا عَنِ الْأَذْهَانِ، وَأَذْكُرْكُمْ بِهَا مُتَضَمِّنَةً فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ:

يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ يُوَلِّي عَلَى خُرَاسَانَ، فَأَوَّلُ مَا وَلِيَ خُرَاسَانَ، قَالَ: دُثُونِي عَلَى رَجُلٍ حَامِلٍ لِخِصَالِ الْخَيْرِ. فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

فَلَمَّا جَاءَهُ رَأَهُ فَائِقًا وَمَخْبَرْتُهُ مِثْلَ مَرَاتِهِ، فَأَعْجَبَ بِهِ أَيْمًا إِعْجَابٍ، فَأَرَادَ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَمَلًا (مَنْصِبًا) (يُعِينُهُ فِي مَكَانٍ مَا)، فَرَفَضَ أَبُو بُرْدَةَ، وَقَالَ: لَا تَقْتِنِي، فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ، وَلَسْتُ بِمَوْهَلٍ لِهَذَا الْعَمَلِ. فَقَالَ لَهُ هَذَا الْأَمِيرُ: بَلْ أَوْلِيكَ هَذَا الْأَمْرَ.

قَالَ: اعْفِنِي عَنْهُ يَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ، وَدَعْنِي أَحَدْتُكَ بِحَدِيثِ سَمِعْتُهُ مِنْ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (باب: وَعِيدِ مَنْ افْتَطَعَ حَقَّ مُسْلِمٍ بِيَمِينِ فَاجِرَةٍ بِالنَّارِ) (١٢٢/١) برقم: [١٣٧].

النَّبِيِّ ﷺ .

قَالَ: هَاتِهِ.

قَالَ: قَالَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَوَلَّى

عَمَلًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِهَذَا الْعَمَلِ، فَلْيَتَّبِعْهُ مِنْ النَّارِ» (١).

مُجْتَمَعٌ مُنْضَبِطٌ ضَبَطَهُ الشَّارِعُ الْكَرِيمُ ﷺ، يَقُولُ: أَنَا أَوْلِيكَ، وَهُوَ

يَقُولُ: لَسْتُ بِمُؤَهَّلٍ لِهَذَا الْعَمَلِ!

لِيَسْمَعَ الطَّامِعُونَ الرَّاحِضُونَ اللَّاهِثُونَ وَرَاءَ أَشْيَاءَ لَيْسُوا بِأَهْلٍ لَهَا،

يَضْغَطُ عَلَيْهِ الْأَمِيرُ وَهُوَ يَرْفُضُ هَذَا الْعَمَلِ، وَالْقِصَّةُ لَهَا تَتِمَّةٌ طَوِيلَةٌ،

وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِهَذَا الشَّاهِدِ.

إِذَا، هَذِهِ أَرْبَعَةٌ أَخْطَاءٌ، أَوْ ذُنُوبٌ، أَوْ آثَامٌ، أَوْ مَعَاصٍ، مَنْ وَقَعَ فِيهَا؛

فَلْيَتَّبِعْهُ مِنْ النَّارِ، أَعَاذَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ وَوَالِدِينَا مِنَ النَّارِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) أخرجه ابن عساکر في «تاریخ دمشق» (٥٧/٢٦)، وصحَّحه الألبانی في «السلسلة الصحيحة» (٣٦٤/٥).

فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| المقدمة..... | ٥ |
| ١. اعْمَلْ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ..... | ٩ |
| ٢. التَّحْذِيرُ مِنَ الدُّنْيَا..... | ٢١ |
| ٣. التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ..... | ٣١ |
| ٤. صلاحُ الأسرة..... | ٤١ |
| ٥. الزَّوْجِ سَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ..... | ٤٩ |
| ٦. رسالة خاصة..... | ٥٩ |
| ٧. ترفق قبل أن تُطلق..... | ٦٩ |
| ٨. وقفات مع حديث السبعة..... | ٧٩ |
| ٩. شرح حديث السبعة الإمام العادل..... | ٨٩ |
| ١٠. شرح حديث السبعة أن يحب المرء لا يحبه إلا الله..... | ٩٩ |
| ١١. شرح حديث السبعة وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ..... | ١٠٩ |
| ١٢. حديث السبعة رَجُلٌ تصدق بصدقة فأخفاها..... | ١١٩ |
| ١٣. حديث السبعة وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ..... | ١٣١ |
| ١٤. غِرَاءُ الْإِغْرَاءَاتِ..... | ١٤١ |
| ١٥. مَشْرُوعُ الْحَيَاةِ..... | ١٥٣ |

فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| ١٦. فريضة الحج وآفة التردد | ١٦٥ |
| ١٧. الجود في رمضان | ١٧٥ |
| ١٨. الوصية بالوالدين | ١٨٣ |
| ١٩. حب المال | ١٩٣ |
| ٢٠. حقيقة الموت | ٢٠١ |
| ٢١. خطورة هوية كثرة الكلام | ٢١١ |
| ٢٢. خطورة الوقوع في أعراض الناس | ٢١٩ |
| ٢٣. خطبة عيد الفطر رمضان مظهر لوحدة الأمة | ٢٢٩ |
| ٢٤. التقرير الأهم | ٢٤١ |
| ٢٥. استشعار رقابة المولى ﷻ | ٢٥١ |
| ٢٦. ثمرات استشعار رقابة الله | ٢٦١ |
| ٢٧. الموت حق | ٢٧١ |
| ٢٨. رحلة الموت | ٢٨١ |
| ٢٩. الصلاة خير موضوع | ٢٩١ |
| ٣٠. لماذا الصلاة خير موضوع؟ | ٣٠٣ |
| ٣١. عمل قليل وأجر كثير | ٣١٣ |
| ٣٢. دعوات غيرت مجرى الأحداث | ٣٢٣ |

فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| ٣٣. الانتقال إلى دار القرار | ٣٣١ |
| ٣٤. الظلم ظلمات يوم القيامة | ٣٤١ |
| ٣٥. المسارعة إلى الخيرات | ٣٤٩ |
| ٣٦. الرزق | ٣٥٩ |
| ٣٧. إشارات على الطريق | ٣٧١ |
| ٣٨. المتسلقون على جراح الأمة | ٣٨١ |
| ٣٩. عذراً أبا حفص | ٣٩١ |
| ٤٠. قواعد الحساب يوم القيامة | ٣٩٩ |
| ٤١. كيف تتصرف إذا ظلمت | ٤١١ |
| ٤٢. كيف نعمر آخرتنا | ٤٢٣ |
| ٤٣. كيف نواجه مشكلات الحياة | ٤٣٣ |
| ٤٤. الخطوات الأربع في تغيير الطباع | ٤٤٣ |
| ٤٥. القواعد السبع في تحصيل الأجور | ٤٥٥ |
| ٤٦. والصلح خير | ٤٦٥ |
| ٤٧. كونوا معه | ٤٧٧ |
| ٤٨. لماذا نكسل عن العبادة | ٤٨٩ |
| ٤٩. مقاعد النار ... لمن ؟ | ٥٠١ |

رقم الناشر الدولي: 9-170-1-1-99958-978
رقم الإيداع: 92/د.ع/2017